سيناريو لم تكتمل قصّته

نصف البداية

سيناريو لم تكتمل قصّته
نصف البداية

علي لفتة سعيد

الطبعة الاولى، بيروت/النجف الاشرف، 2026

First Edition, Beirut/Najaf, 2026

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

إن جميع الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر (المركز).

ISBN: 978 - 9922 - 772 - 22 - 6

ن/يونيو 2026

سيناريو لم تكتمل قصّته

نصف البداية

علي لفتة سعيد

الفهرس

مقدمة مركز الرافدين للحوار (RCD) 7
المشهد الأوّل 11
المشهد الثاني 23
المشهد الثالث 33
المشهد الرابع 45
المشهد الخامس 57
المشهد السادس 69
المشهد السابع 81
المشهد الثامن 91
المشهد التاسع 101
المشهد العاشر 111
المشهد الحادي عشر 123
المشهد الثاني عشر 135
المشهد الثالث عشر 149
المشهد الرابع عشر 163
المشهد الخامس عشر 175
خارج المشهد 187
مركز الرافدين للحوار (R.C.D) 189

مقدمة مركز الرافدين للحوار (RCD)

تُشكّل الأعمال الروائية أحد أهم الحقول الثقافية التي تسهم في بناء وعي المجتمع وتشكيل إدراكه للواقع، إذ تتجاوز حدود السرد الفني لتغدو أداةً فاعلة في تحليل الظواهر الاجتماعية، واستكشاف التحولات الفكرية، وتوثيق التجارب الإنسانية بمختلف أبعادها. فهي تعبّر عن نبض المجتمعات، وتنقل قضاياها وتحدياتها، وتفتح آفاقًا للتأمل والنقد وإعادة التفكير، مما يمنحها مكانةً محورية في تشكيل الوعي الجمعي وتعزيز الهوية الثقافية، لذا فإن دعم الإنتاج الروائي والاحتفاء بمبدعيه يُعدّ ضرورة ثقافية لترسيخ قيم الإبداع والانفتاح والتنوير.

وانطلاقًا من هذا الفهم، يحرص مركز الرافدين للحوار (RCD) على تبنّي مشروع طباعة ونشر الروايات المتميزة، على المستوى المحلي والعالمي، بوصفه مبادرة ثقافية تكريمية تهدف إلى دعم الروائيين والاحتفاء بمنجزهم الإبداعي على المستويات العراقية والعربية والأجنبية والعالمية، ويأتي هذا المشروع ضمن رؤية المركز لتعزيز الحراك الثقافي وتسليط الضوء على التجارب الروائية التي أسهمت في إثراء المشهد الأدبي وعكست تنوع البيئات الثقافية وتعدد زوايا النظر إلى قضايا الإنسان.

ويعمل المركز من خلال هذا المشروع على إتاحة الفرصة للأصوات الإبداعية للظهور والانتشار، وتقديم أعمال روائية ذات قيمة فكرية وجمالية، بما يعزز التواصل الثقافي بين الشعوب ويدعم التفاعل الحضاري القائم على تبادل

الخبرات والرؤى، فضلاً عن سعيه إلى بناء فضاء معرفي يجمع الأدباء والباحثين والمهتمين، بما يسهم في ترسيخ ثقافة الحوار والانفتاح ولا يقتصر اهتمام المركز على المجال الروائي، بل عمل منذ تأسيسه الى دعم وإصدار عشرات الكتب والدراسات والتراجم في مختلف الحقول الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية، ضمن رؤية متكاملة تهدف إلى إنتاج معرفة رصينة تسهم في فهم الواقع واستشراف المستقبل، وبذلك، يؤكد المركز أن تكريم الإبداع الروائي هو جزء من تكريم الفكر الإنساني، وخطوة فاعلة نحو بناء مجتمع أكثر وعيًا وانفتاحًا، قادر على احتضان التنوع الثقافي وتقدير القيمة العميقة للأدب بوصفه أحد أهم أدوات التعبير الحضاري.

من هو مركز الرافدين للحوار؟

مركز فكري مستقل (THINK TANK)، يعمل على تَشجِيعِ الحوارات في الشؤون التعليمية والثَقافية والسياسِيّةِ والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السلم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأدائها، ويمثل المركز فضاءً حرا يتّسِم بالموضوعية والحياد ويوظف مخرجاته لمساعدة صُناع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

هيكلية المركز

يتكون مركز الرافدين للحوار RCD من هيكلية إدارية متشكّلة وفقاً لنظامه الداخلي تتضمن: مجلس الإدارة الذي يتكون من السيد المؤسِّس **زيد الطالقاني** بوصفه رئيساً للمجلس **و**ثمانية أعضاء، والمدير التنفيذي، وهيأة مستشارين، وعدد من الأقسام العلمية والإدارية هي: قسم البحث والتطوير، وقسم الشؤون

الإدارية والقانونية والمالية، وقسم المراسم والعلاقات العامة، إلى جانب مستشار الشؤون الثقافية والتعاون الدولي.

الرعاية والتمويل لمبادرات المركز العلمية والثقافية

يعتمد المركز في تمويل نشاطاته على مصادر متنوعة تتسم بالشفافية والالتزام بالقوانين العراقية النافذة، حيث تشمل هذه المصادر إسهامات الهيئة الإدارية، والتبرعات والمنح غير المشروطة من جهات داخلية وخارجية، فضلاً عن الدعم المقدم من المنظمات الدولية ووكالات الأمم المتحدة والجهات والتنموية والشركات الخاصة.

كما يتمتع المركز بدعم من مؤسسات عراقية رصينة مجازة قانوناً، أبرزها «الوطني من إيرثلنك» التي تعد الشركة الأولى والرائدة في العراق المتخصصة في مجال تقنية الألياف الضوئية (FTTH) وأكبر مجهز لخدمات الإنترنت في العراق، وشركة «آسياسيل» المزود الرئيسي لخدمات الاتصالات النقالة عالية الجودة والتي تعد من أقدم شركات الاتصال في العراق، و«مصرف العالم» أحد أهم المصارف العراقية في مجال الاستثمار والتنمية الاقتصادية.

المشهد الأوّل

هكذا قرّرتُ، ليس بصورةٍ مفاجئةٍ، بل بعد أن حلّت الكارثةُ بعقلي وأصبحت المشاكل لا تُطاق، وليس لي القدرة على المواجهة كما الناس أو العيش بلا مبالاة. كل الأشهر الماضية كانت تمهيدًا لهذا القرار الذي احتواني وكوّرني وسوّاني لأتخذه دون رجعة، حتى أحصل على مبتغاي. شيءٌ ما تلبّسني، جعلني أسيره تمامًا حتى لكأنَّ لا فراغاتٍ ينسلّ منها الحلّ الآخر أو ينفد منها قرارٌ جديد.

صرتُ وحدي، لا يحيطني سوى الصمتِ في الغرفة، والريبة والبحث عن شيءٍ يُخلّصني مما أنا فيه، وصار يُسبّب لي ألمًا، كما يمنحني الرغبة بالمكوث من أجل العثور على نواقصي التي سبّبها لي الواقع الذي أعيشه. لم يعد هناك شيءٌ يُعجبني أو يُريحني وسط الناس الذين تغيّرت أحوالهم. في الغرفة التي أُقفل بابها، أجلس عند الزاوية البعيدة، أسحب كل الصور وأفرشها أمامي. أنتظر التفريغ على سطحٍ يوضّح لي تفاصيلها، أو تتحوّل إلى أوراقٍ لا تهدأ من التحليق في الفراغ، أجد صعوبةً في الإمساك بها. منذ البدء أصابتني حالةٌ من الغرائبية التي جعلتني أنساق خلفها وتزيد من صلابة القرار بالانعزال. صارت المشاهد تُعرض أمامي، تأتيني طواعيةً، أم استدعيها من العقل الباطن؛ صورٌ أو مشاهد أو حوارات غير متناسقة أو متسلسلة تتقاطع وترتحل وتختفي ثم تعود، يُبرزها الدالّ المخزون بهمومٍ كبيرةٍ ومناجاةٍ عظيمةٍ واستدراكات فجائعية.

أضع رأسي على الجدار، أغمض عيني وأتأمّل أول مشهد: غرفة صغيرة، والزمن

نهار. تُفتتح اللقطة على غرفةٍ صغيرةٍ شبه معتمة، يسودها الهدوء. الضوء يدخل بخجلٍ من نافذةٍ صغيرةٍ تُغطّيها ستارةٌ قديمة. في أقصى زاوية الغرفة، يجلس البطل على الأرض، يبدو بعمرٍ يفوق الثلاثين بخمس سنوات، والحقيقة هو بعمرٍ أقلّ بعشر سنوات بالتمام والكمال. يبدو عليه الإجهاد، أمامه مجموعةٌ من الصور المبعثرة. يسحب الصور ببطءٍ ويفرشها بعنايةٍ على الأرض. تنعكس في عينيه الذكريات والمشاعر المتداخلة وهو ينظر إليها.

أرفع رأسي من الجدار، أغمض عيني، أريد سحب المشاهد إلى حاضرتي. يهبط صديقي وهو يقودني إلى المدينة، الخروج الأول منذ زمنٍ لا أعرف متى. أخرجني من عزلتي المرتبكة التي لم تكن سوى ملاذٍ من مجهولٍ يُخيفني. الصمت يقاسمنا، نبحث عن شيءٍ لا يُوصلنا إلى التيه. نُمرّر عيوننا على المسالك الكثيرة التي أمامنا، نجد الناس تسير بعشوائيةٍ مرعبة. الصور التي تُصاحب حركة الأجساد تُرعبني، كما تُرعب مخيلتي، وتزيدها كتمًا وقتامة، وربما لعنة.

تجعلني الصورة الباهتة التي أعيشها لا أنظر بشيءٍ من الإحسان إلى الآخرين، أو بشيءٍ من الثقة. كل ما حولي مشوبٌ بالشك والظن، وفيه ريبة، ومليء بالسلبيات. أنظر بتلك اللامبالاة الممزوجة بالتعب والإرهاق، أبحث عن شيءٍ لا أريده، ويؤكّد معي قراري بالانعزال، حيث انتظار النهاية التي لا أعلم كيف ستكون.

لم يعد هناك ما يُعجبني أو يُريحني وسط الناس الذين تغيّرت أحوالهم.

المشهد الذي أراه، الشارع مليءٌ بالناس والمحال مظلمةٌ من الداخل، والشمس الحارقة تضغط على كلّ شيء. يظهر بائع الماء، صبيٌّ لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر يرتدي ملابس متواضعة، يعرج قليلًا، يحمل كيسًا كبيرًا من النايلون

مليئًا بعلب الماء. يتنقل بين الناس الذين يبدون منهكين من الحرارة، وينادي بصوتٍ مبحوح: خافتٍ لكنه متكرر من كثرة النداء:

«ماي بربع! ماي بربع، برّد قلبك!» أضحك في سرّي المظلم على كلمة «ربع» حيث لا توجد هذه العملة، لكنه كان يقصد 250 دينارًا وهي ربع الألف دينار.

صديقي حامد تطوّع لإخراجي من البيت بعد توسلاتٍ منه ومن أمي. كان يتصل بي لثلاثة أيامٍ كي أخرج؛ فالحياة لا تُساوي شيئًا، والوظيفة لا تعني نهاية المطاف، والعمل موجود. أخي ماهر الذي يكبرني بثلاثة أعوام، وهو خريج كلية التربية. وأنا خريج كلية الآداب، بلا عمل.

يصيح حامد على البائع ليأخذ منه علبتين. جاء الصبي يعرج، بوجهٍ فرح، كأنه سيحصل على مالٍ يكفيه شهرًا، وهي خمسمائة دينار لا تجلب له إلا ثلاثة أقراصٍ من الخبز. أخذ صديقي علبتين من الكيس ووضع المبلغ في جيب قميصه، القريب من دقات قلبه. جاءني وهو يضحك: «اخدموا أنفسكم بأنفسكم».

أتيني مشهدٌ آخر، يظهر رجلٌ في الأربعينيات، بملامح متوترة ومنهكة، يبدو غاضبًا ومتذمّرًا، يتّجه نحو بائع قناني الماء بخطواتٍ متثاقلة. يمد يده التي تضم ربع دينارٍ أو عملةً من فئة 250 دينارًا، يدسّها بسرعة في جيب البائع المعاق، عيناه تتفحصان البائع بنظرة استياء، وربما نظرة عتب على الدنيا كلها. العطشان همس لنفسه وتبدو ملامحه غاضبة: «حتى الماء في هذا الحر... بارد لكنه لا يروي».

يأخذ العطشان قنّينة الماء ويشرب منها دفعةً واحدة، لكنه يُبعدها عن فمه بتذمر، للتعبير عن عدم قبوله بواقعٍ لا يُطيقه. يمشي بعيدًا وهو ينظر إلى الأرض، محاولًا تجاهل كل شيءٍ حوله.

أضحك على نفسي، أحاورها بطريقة من هو مسلوب الإرادة أو التفكير، لكني

أريد التمسك بالقرار قبل كل شيء. أعود إلى التأمل الذي يشبه «صفنة حمار» لكن بصمت. الصور ما زالت منتشرة أمامي، وصوتي الداخلي يتردد مرة أخرى. أحاول الإمساك بإحدى الصور لكنها تنزلق من بين أصابعي.

بصوتٍ عميقٍ وتأملّي، حرّكت رأسي: «كل ما أراه يتلاشى... يتطاير... وأنا أقف عاجزًا أمام هول المصائر التي تُحيطنا».

تسلّلت ضحكة صديقي حامد من الشارع، يتردد صداها عبر النافذة. أنظر باتجاه الستارة المسدلة منذ زمن، ثم أشيح بوجهي عنها. أعود إلى تأمل الصور بصمت. كانت الأشياء تنسحب من حولي لأبقى وحيدًا.

لكن صاحبي سحبني من ياقة قميصي، وقد قرأ ما بداخلي من تعاطفٍ مع البائع الذي كان يتوسل بعينين ذابلتين: «تعال، هم راح تفكر وتتفلسف في دنيا لا تستحق التفكير فيها». أسحب نفسًا أشم رائحة زفيره: «شوف وعوف».

ينفرش المشهد. فتحت غطاء العلبة، دلقت الماء في جوفي لكن عيني على الشاب تتابعانه، بألمٍ مبحوح الصوت. رجله العرجاء، وبنطاله المتّسخ، وقميصه الذي قُدّ من كلّ الجهات. تخيلت نفسي مثله أبيع الماء لكي أعيش... أدفن سنواتي الدراسية في قمامة الشوارع المحنطة، منتظرًا انفجارًا يحوّل جسدي إلى أشلاءٍ كما حصل لأخي الكبير ساجد، ساجد الرجل الذي آمن بتعصبٍ كبير بالعقائد والتوجيهات والحكم والروايات والأقوال وصراع المذاهب، حتى تخيلته عبارة عن مجموعة تفاسير تمشي على قدمين ولها لسانٌ يذرف كلامًا في أي نقاش. أو لحظة اغتيالٍ تأتي بغفلةٍ من مجهولين يستقلّان دراجةً ناريةً، تنفيذًا لأمرٍ جاء إليهما، بعد صدور حكم الاغتيال، لأن قولًا كُتب على صفحات التواصل الاجتماعي، أو قيل في أثناء تجمّعٍ وعدّ معاديًا ومفتّتًا للوحدة الوطنية.

سحبني حامد من جديد ليبعد نظري عن متابعة بائع الماء، ثم دفعني إلى الأمام، لكني وجدت نفسي أعود إلى ذات المكان، ولو بنظراتي التي نبتت هناك. لم يجد حامد بدًّا من الوقوف مثلي ليدلق الماء دفعةً واحدةً في جوفه، ويرمي العلبة الفارغة باتجاه حافة الرصيف، لتتمدد مع القناني والأكياس الفارغة الأخرى، وتشكّل نهرًا آخر يمتدّ على طول الرصيف، تتحرك بفعل الهواء لتتجمع عند فتحة مياه الأمطار المطمورة، أو تحرّكها بعض أقدام السابلة أو الأجساد المهمومة، التي يُرى ما في داخلها، في مشهدٍ مكشوف، كأن أمرًا صدر لمعرفة هذه الدواخل المسكونة بالهموم

جلستُ على حافةِ الرصيفِ أتابعُ حركةَ هذه العُلبِ الشفافةِ. كانت في داخلِ كلِّ واحدةٍ همٌّ أو شخصٌ يبكي، أو امرأةٌ تولول، أو طفلٌ أعرجُ كبائعِ الماءِ أو بائعِ أكياسِ النايلون. وجوهٌ تتصارعُ داخلَ هذه العلب، كما تتصارعُ مشاهدُ من نارٍ وريحٍ وزوابعَ، وكلامٌ محتشدٌ بالهذيانِ والصراخِ والعتابِ، يصدرُ من أفواهٍ بلا أسنانٍ أو ألسنةٍ أو حتى بلا شفاه. طردتُ صورَ المشهدِ وعدتُ لأتابعَ وجوهَ الناسِ غيرَ المُكترثة. رأيتُ شرطيَّ مرورٍ مختبئًا تحت مظلّةٍ صُنِعت على شكلِ يشبه قبّعته، وُضعت فوق كرسيّ بلاستيكي أبيض تغيّر لونه، يتّسع لجسد شرطي واحد، كانت شكلٍ نصف دائر. لم يكن مشهدُ الازدحامِ والمخالفاتِ المروريةِ والعبورِ من غيرِ خطوطِ العبورِ يعنيه. كان مشغولًا بجهازِ هاتفه النقال.

يتحوّل الأمر إلى قفز العينين لرؤية ما يتابعه شرطي المرور، فيجده يقرأ أدعيةً. تصدر ضحكة تدور في المكان المكتظ بالزعيق والكلام، فتعود إلى المحجرين، قبل أن تدوسها إطارات العجلات الزاعقة.

يلتفت البصر إلى متابعة شرطي، ببدلةٍ خاكيةٍ، له وجهٌ مكفهرٌّ، يمسك بعصا ويهشّ بها على أصحاب البسطيات والعربات الخشبية، طاردًا إياهم من مكانهم، ليقلل من حجم الازدحام في المنطقة. وتظهر وجوه الكسبة وهي غاضبة

مستنكرة ولكن بصمت، فيهرعون راكضين للتصادم على الشرطي قبل مصادرة ما لديهم وتحميله فوق سيارة حمل متوقفة عند مدخل الشارع.

على مبعدةٍ من الشرطي، كانت هناك سيارة شرطة النجدة، في داخلها شرطيان بقميصين أزرقين.. يتحرّك الجسد بلا إرادة نحو سيارة النجدة، مغافلًا حامدًا، ليستكشف ماذا يفعلان في هذه الظهيرة، وسط كلّ هذه الفوضى التي تحدث في الشارع والأفرع وحتى الأزقة البعيدة عن الطريق الرئيس. أحدهما يقرأ القرآن من جهاز هاتفه النقّال، يبدو خاشعًا وقد نزع غطاء رأسه، ووضعه في حضنه. يرتّل بصوتٍ مسموعٍ يصل إلى الأذنين اللّتين كانتا قد امتدّتا إلى داخل السيارة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾. خرجت ضحكة. دارت في المكان. في حين كان الشرطي الثاني، وهو سائق السيارة، يبتسم ويُسمع صوت ضحكته، فامتدّ البصر وتبيّن أنه يتابع مقطعًا في اليوتيوب. ينتبه الشرطيان إلى أن هناك من يراقبهما. يرفع الشرطي الضاحك رأسه دون أن يقفل الهاتف النقّال، تتغير ملامحه إلى شرطيّ مكفهرّ شرّير، كأن أفعى لدغته، يقول: «اشعدّك واكف؟ أمشي من هنا لو أسحْلك لمركز الشرطة!». يسارع الشرطي الآخر إلى إغلاق الهاتف النقال، ويقول: «صدق الخاتمة لقراءة القرآن»، يلبس غطاء رأسه بسرعة، كأن ضابطًا كبيرًا وقف على كتفيه. يدخل حامد في المشهد يمدّ يده المرتجفة، يجَرَّ نفسه ليبتعدا عن الزجاج. «تتدخّل في كلّ شيء وتسأل عن كلّ شيء، حتى عن النغل، من هو أبوه؟» يسحب نفسًا عميقًا وأكمل: «ما راح ترتاح إلّا تجيب لنفسك مشكلة لو تتخبّل».

صرت بلا هدف.. المدينة تمنحني ضيق الأفق، وتجعل الحلول ضائعة، فيما الأسئلة ظلّت تتقافز وتثير في داخلي زوبعة من الفوضى، أسئلة بدأت تأكل في أطراف عقلي، وتزيد من وجع الأسئلة السابقة التي كانت قد تراكمت من قبل،

طوال الأشهر التي تلت مقتل أخي ساجد. بعدها أيضًا وفاة أبي قهرًا على أخي الذي قُتل بتفجير انتحاري، كان يصرخ مثله: «الله أكبر». المدينة الآن مخاتلة في عيني. المشاهد التي تتراكض أمامي لا أستطيع إيقافها، ويبدو أن خروجي هذا من البيت تلبيةً لدعوة صديقي ستكون القشة التي تقصم ظهر البعير. لكن صاحبي، الذي يعاني مثلي من هجوم الأسئلة وإطلاق الحسرات وربما الشعور باليأس، لكنه ليس متمرّدًا مثلي، في داخله بعض اللامبالاة، وصورة صغيرة قابعة في قلبه من حب، يريد رد الجميل فيها إلى أمي يوم وقفت مع أمه وتبرعت لها بالدم بعد إجراء عملية تبديل صمام لقلبها. ورد الجميل يوم حصل له حادث وكنت قريبًا منه، فحملته إلى المستشفى، قبل أن يلفظ أنفاسه، سارع الأطباء إلى إجراء عملية استئصال المرارة التي تأثرت بحادث الدهس. قلت له كثيرًا: «أنا لا أعدّه فضلًا أو مكرمة أو دينًا، بل هو الواجب»، لكنه كان يجيبني «إن الجميل يجب أن يشكر، والله يحب الشاكرين». وكان أخي ساجد يردّد دائمًا بعد صلواته الكثير من الشكر لنعَم الله عليه. وكان أخي ماهر ينزعج ويعبّر عن امتعاضه من هذا الكلام، قائلًا: «لا شكر على الفقر الذي نعيشه، وعلى الكفاف الذي نعيش فيه». وكان ساجد يصرخ مستغفرًا ربه: «النعمة التي لدينا ليست لدى الكثيرين، أوّلها الصحة والعافية». يردّ عليه ماهر: «هذا بالنسبة لك هو الكثير، أما في العالم الآخر الذي نسمّيه، الكفار يعيشون في أحسن حال، مالًا وصحّةً وعافيةً، ولا حروب ولا رجال يستغلون السماء».

كنت أقارن بين ابتسامة حامد غير المنطقية وروحه الصغيرة وامتعاضه من كل شيء، لكنه لا يريد أن يقوم بأي ردّة فعل. ردة الفعل الوحيدة التي حصلت منه اليوم هي حين جرّني من ذراعي وأخرجني من الغرفة بقوّة لرفضي الخروج، فمن عادته ألّا يكون ملحاحًا في أي شيء. ما أن يسمع كلمة «لا» أو «العفو» أو «اعتذر» حتى ينسحب تمامًا. لكنه معي، ويبدو أنه باتفاق مع أمي، لذا أصرّ

وأبى إلّا أن أخرج. قلت له: «سنجلس عند بداية الزقاق أمام الشارع العام قرب محل مرطّبات»، لكنه سحبني وصعدنا سيارة الكيا. قال: «تصعد لو أصيح أمام الناس؟» كانت البدايات من هناك، من الصور الشاحبة التي تمر من أمام عيني من نافذة السيارة.

كان يتحدث باستمرار، ولأنه لم يتعوّد الحديث الكثير، كان يتلعثم ويبلع ريقه. أدركت أنها محاولة لإخراجي ممّا أنا فيه، بما فيها صمتي في البيت وعدم الكلام مع أمّي، ولا أرد على الهواتف، بل مسحت كلّ الأرقام إلّا رقم أمّي ورقم أخي ماهر. كانت عيناي تغوران في التفاصيل التي تصادفني، وكلماته تضرب سقف سيارة الكيا، وتتقطّع مع صوت المحرّك ودخان العادم الذي يلتفّ من خلف السيارة عبر النافذة، فيزيد من اختناق التنفّس والجو العام.

حين نزلنا، صار صوته يختلط مع صوت الباعة. الباعة يتشابهون في سحنات وجوههم وكدرهم وعوزهم وحتى أصولهم. شعرت بالاختناق من مشهدهم المتعب. الفقراء يذكرون حين يريدون التلاعب بالكلمات، ويُعدّونهم أحباب الله.. لكنهم يرفضون أن يكونوا مع الله. نبّهني حامد وقال: «أعرف أنك تفكّر بهم وبمصيرهم». بينهم خريجون بلا وظيفة، وربما جنود سابقون، وربما أيضًا معاقون من الحرب مع داعش. لكنها هذه الحياة.. أردت إخباره أني لا أحبهم، وأنا منهم.. لم أعد أحب نفسي، لأننا سلعة لتجارة الطغاة والكهنة والسياسيين. وقفز السؤال: لماذا ونحن أحباب الله نُعامل على أننا بهائم عند البشر؟ شعرت أني بدأت أخاصم العالم.. الصور التي أراها في المشهد مرعبة. مشهد سينمائي بدأ يقتحم رؤيتي، فانعزلت عن العالم. وحده حامد الذي أشعر بقبضة كفّه على ساعدي، كأني طفل يخاف أن يتيه منه. فكّرت أن أبدأ بكراهيته هو الآخر، والشغل الجديد هو أن أكره العالم كلّه. تمنّيت في تلك اللحظة أن يمضي إلى حال سبيله، ويمنح لنفسه فرصة التواصل مع العالم الذي يتوافق معه مرغمًا.

وهو يقول لي ذلك: «ما علينا أن نفعل ونحن لا نملك الحلول، هل نهاجر إلى دولٍ أخرى، وليس لدينا القدرة، هل ننتحر وليس لدينا الشجاعة؟» أسرّ لي أنه انغمس في الملذّات كنوعٍ من التمرّد على الواقع.. تمرّد لا أحد يعلم به.

حدّثني عن النساء اللواتي يضاجعهن ليبرهن عن استمرار رجولته، يقول: «حين أقف أمام فرن الخبز أرى الكثير، وأنا أحترق بنار التنّور الطيني، أحرقها في الفراش تلك التي أتواعد معها في بيتها بعد أن يخرج زوجها إلى العمل. أكون رجلًا شريرًا في الفراش». أضحك في سري وترتسم في ذهني صورةً وهو يهتزّ فوقها، وهي تصرخ أن يملأ جرارها باللّذة المفقودة من زوج يتعبه النهار. قال: «لذلك لا أريد أن أتزوج ولا أريد أن تتزوج.. دعنا نعيش الحرب التي لم نخضها على الجبهات، هي التي جاءت إلينا في الشوارع. ونحن نخوضها في البيوت المشتعلة أنوثة». حتى أُقارن بين اللّذة التي لا يتعب فيها الرجل ولا المرأة في الاختفاء، كما كان الآباء والأجداد وهم يُخاتلون نساءهم بحجة السفر، ويمضون لمضاجعة غجرية (كاولية) استغلّت ليل المدن لتُطفئ حرارة الحروب في أجساد الرجال، الذين تحوّلوا إلى رجالٍ هداهم الله، وصاروا ينتقدون الشباب إذا ما أرادوا الخروج عن مألوف العشيرة والتقاليد.

المدن تحوّلت إلى قرى وأرياف، بل إن الأمر الآن، في زمن التديّن، أصبح، أن النساء يعرضن أجسادهن في منصات التواصل الاجتماعي، حيث يُستعرض كل الجسد مفضوحًا على مسافة إصبعين مغطاة بقطعة قماش تفضح المعالم.

خرجتُ من صمتي على صوت قارئ القرآن الشرطي الذي عاد إلى التلاوة عن الموت أيضًا: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾. كل شيء يتحدث عن الموت، ترهيب من كل شيء، وقد توقّف التفكير في رأسي. حتى حامد، لم يزل يثرثر، فيزداد الصراخ في رأسي مع أصوات الباعة والمتسوّلين وأصحاب العربات الخشبية, باعة الخضار والفواكه، وهم يضعون

سمّاعات كبيرة للمناداة عن البضاعة، وأصوات باعة اسطوانات الغاز، الذين ربما هم الوحيدون الذين تعزف عرباتهم الموسيقى المأخوذة من مسلسل يوسف الصديق. من بعيد، وجدت طفلًا يلعب بكرة قدم صغيرة، بالقرب من جدار بيتٍ متهالك قديم، بابه خشبي عتيق يتكئ على حافة منهارة، وقد سقط بعض طابوقه المفخور بالنفط الأسود. كان يلعب الكرة ويضحك. كانت ضحكته قد احتلّت المشهد. الطفل يركض ولا يهاب كل ما يحدث أمامه من فوضى، كان صوت سماعة الجامع يعلو مع ارتفاع القارئ للآيات التحذيرية، والطفل يلعب يريد الحياة. كانت الضحكة أيضًا تزداد قوة. ارتطم صوته بالجدران. التفت الناس الذين تجمعوا حول سيارة النجدة، والشرطي القارئ غارق في رفع الصوت: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنّما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. صاح الناس بشكل جماعي: (الله.. سلمت على هذا الصوت)، ثم التفتوا إلى الطفل وأشاروا له بسباباتهم أن اصمت، لكن الطفل لم ينتهِ ولم يصمت، بل كان يلعب ويضحك. وحين ارتفع صوت أحدهم، لاذ بالباب العتيق، وراح يلعب. انتبه الشرطي السائق إلى التجمع. طالب زميله الشرطي أن يتوقّف عن الترتيل: «الله يخليك، إحنا بالواجب. لا يجينا آمر القاطع ويصير براسنا شريف». أخرج مسدسه ولوّح به من النافذة، فتخيل أحدهم أنه يلوّح للطفل ألّا يلعب. تطوّع ورمى بحجارة على الطفل فأصابت الباب، فردّ الصدى بصوت جاء من مكان ضاج بالصراخ والعويل. تراخى الطفل، لكن لم يزل يضحك. تحتلّ ضحكته المشهد، حتى إنها أخذت ترتجّ في الشارع العام، وتؤثّر على أصوات الآخرين. ترك المتجمعون الشرطي الذي لم يزل يتلو، وراحوا يرمون الطفل بالحجارة وبقايا الطابوق.

لم أرَ بعدها أيّ شيء، فقد تحوّلت المشاهد أمامي إلى ما يشبه الأشياء الطائرة المبعثرة المتلاطمة. اختفت الصور، إلّا من كومة طابوق وحجارة، غطّت الباب

القديم، وجزءًا من الجدار، وصورة الشرطي وهو لم يزل يرتّل آيات الموت ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. فيصعد صوته ويلتفّ مع الأوراق المتطايرة، فتصعد معها الأسئلة التي تكاثرت ولم تترك لي فرصةً لفراغٍ أنفد منه ولا ينفد. كنت أراني أعيش الصمت والبلاهة معًا، مثلما أعيش الخدر والغليان أيضًا. وجدتني في المشهد أركض، أو هكذا بدا لي. أركض وألهث، ألاحق جوابًا لم يتشكّل أمامي بوضوح، لعلّي أمسك بالتفاصيل. لكن يد حامد وهي تضغط على معصمي جرّتني جرًا، ركضت بي هاربًا من مشهد أكوام الطابوق والحجارة، وسماع أصوات سيارات نجدة التحقت بالمكان. ثم حلّقت طائرةٌ سُمتيةٌ أخذت رياحها تزيل كلّ شيء أمامها، حتى الطيور والعصافير. ثم جاء رتلٌ من عجلات سود حديثة، تحمل اسمًا غريبًا، كتب بلونٍ أبيض كبير((SWAT). وجدته مليئًا بنار ملتهبة، انتشرت بسرعةٍ في الشارع العام والشوارع الفرعية، حتى أنها حاصرت الجموع التي تسمع الترتيل، وقد أشاحت بأقدامها عن المكان، كلّ يهرب إلى الاتجاه الأقرب إليه.

كنت أسمع صوت الترتيل يأتيني من بعيد (كلّا إذا بلغت التراقي وقيل من راق، وظن أنه الفراق، والتفت الساق بالساق إلى ربّك يومئذ المساق). كان حامد يركض ولم يزل يمسك بمعصمي، فيما كانت الريح التي تسبّبها الطائرة السمتية ترفعنا وترفع معنا كلّ قناني المياه الفارغة وأصوات الباعة. لم أعرف بعد ما حلّ بالشرطي المرتل. فقد أضحت الشوارع فارغة ونحن في البعيد، باتجاه البيت.

المشكلة التي لم تزل تؤرّقني إنني لم أشاهد الطفل، ولم يحضر المشهد أمامي، لكني لم أزل وأنا في الغرفة، حيث قرار الانعزال، أسمع صدى ضحكته يأتي من خلف أكوام الطابوق، قبل أن يختفي تمامًا مع صمت الزقاق.

المشهد الثاني

لم أكن أصغي إلّا لداخلي.. وكل الأشياء التي أمامي، أضحت غير مقبولة ولا تمتلك شرعية المكوث في رأسي، وثمة تحريّات لا تريد الهدوء.

مضت أيامٌ لا أعرف عددها، لا شيء يشعرني بالطمأنينة أو حتى بالرعب. لكن هناك امتلاءً كبيرًا بالحزن والحيرة والارتباك، كلُّ شيءٍ واضحٌ وغير واضحٍ. زمني الحاضر يلعب معي لعبة الاستغماضة، وقامتي تبحث عن استقامة الواقع كي تنتصب. ربما هو القرار الذي رجعت فيه بعدم مخالطة الحاضر الذي لا أشعر بالانتماء له؟ التفاصيل تترى أمامي، تتحرك الصور بشكلٍ عشوائي، وأصابعي تكبر أمامي كلما احتاجت إلى الصمت وتصغر كلما أردت الكلام وتوجيه السؤال. المستطيل الذي أعيش فيه صار عالمًا مكتظًا بالمتناقضات، مستطيل ضيقٌ هو ما يشكّل الغرفة التي أغلقْتُ بابَها عليّ من الداخل وصحتُ في البيت.. لا أحد يطرق الباب ولا أريد الكلام مع أحد. الشيء الوحيد الذي يتابعني ويتصيّد كلّ ما في الداخل، من ثقب الباب أو من ثقوب النافذة التي تحرّك الستارة القديمة، هي التفاصيل التي تجعلني في حالة من الارتباك معها. غرفةٌ ليس فيها سوى سرير بفراشٍ قطنِيٍّ قديمٍ عليه وسادةٌ قديمةٌ من تلك التي انمحَتْ تطريزُ كلمة (تصبحون على خير) من زمنٍ ولى، ومسامير أعلق عليها ملابسي التي رميتُ أغلبها في باحة الدار واكتفيتُ بقطعٍ قليلةٍ، وهاتفٌ نقّال. مسحتُ منه كل الأرقام، واكتفيتُ بخاصية الواتساب للتواصل مع أمّي وأخي ماهر، ولم أمسح رقم حامد بعد.

رنّ الهاتف النقّال، تظهر الشاشة الزرقاء، عليها دائرةٌ وفوقها اسم المتصل.. كانت أمي تتصل بي عبر الواتساب.. أهزُّ رأسي، أتأخر في الرد لأني أفكر ألّا أرد عليها. لأني لا أملك حوارًا مناسبًا ولا إجابةً على أيّ سؤالٍ قد يتم طرحه، بل لا أملك عذرًا عن أسبابي الأخيرة ومتى تنتهي كما قالت لي أمي ذات عصبية وهي تطرق الباب، «ولك يمّه افتح الباب وتعال.. اطلع من هذا السجن.. محّد ينفعك غير نفسك». كنت صامتًا.. أتّكئ على الجدار وجسدي على السرير وعيناي على النافذة، ويأتيني الكلام من حنجرتها متوسلًا. «صدقني، أنت الخاسر الوحيد.. هاي الدنيا ابتلاء.. وأنت لا للسما ولا للأرض.»

تنتهي موسيقى الهاتف ولا أرد. علبة السجائر مرمية في الزاوية البعيدة القريبة من النافذة، كأنها قبر صغير مستطيل من خشبٍ صار لونه مائلًا إلى السواد. في تلك اللحظة قرّرت ألّا أدخن أبدًا، لي طريقة معاندة مع الدنيا، مخالفة لما هو سائد. لا دخان يدخل جوفي حتى لا أمضي مع الاحتراق، وحجة «التدخين يقلل من عصبية الحال ويمنح الهدوء للأعصاب» لم تعد تجدي.

أخذت القدّاحة وبدأت بالضغط عليها وإشعال النار، أعجبتني اللعبة. إبهامي يضغط والنار تصعد، ثم تهبط وتختفي. شيء ما يريح الأعصاب، يقضي الوقت، ويتفاعل مع الانتظار. الراحة في الصدر والتعب في التفكير، واسم أمي يعاود الظهور على شاشة الهاتف النقال. حاولت أن أتوارى عنها كأني لا أقرأ. شيء ما بداخلي يقول: لا تستسلم للعاطفة، لذا عليَّ ألا أتخلّص من التلعثم والإرباك. رميت القدّاحة، حيث ينام الهاتف. كانت رسالة من أمي عبر الواتساب: «هل تتناول الفطور لو أضعه لك عند الباب؟» أقرأ ولا أجيب. أسمع همهمات أمي تأتيني عبر ثقب الباب: «نوم الظهاري والتعود على البيت.. طالع على خالك تمبل.. لا صلاة ولا صوم». أضحك في سرّي، مجدّدًا إصراري على البقاء. ها هي أمّي تتعوّد عليَّ ونتّخذ طريقةً للعيش معًا. قلت لها قبل أيام: «دعيني أعيش

كيف أريد». كانت تنظر لي باستغرابٍ كبير، وتلوك حيرتها. تمتمت، فدخل الكلام في أذني مثل قذًى: «حتى خالك لا يفعل ما تفعله، ولا أبوك ولا أخوك الكبير.. وحدك من تهمل نفسك وتريد الحلول. لو كان واحد مثلك بلا عمل ومثقّف، لدعوت أن تبقى البلاد بلا مثقّفين». ضحكت حينها. المشكلة بالثقافة إذن، وليس بسنوات الدراسة الطويلة، لأجد نفسي أعيش الفراغ. وكلمات أبي: «عليك أن تدرس.. النجاح وحده يضمن المستقبل». لكني كنت أعيش التناقض الذي فرضه الواقع الجديد.. حروب بعدها حروب، وقبلها حروب.. موت ثم موت. حتى الفلسطيني، نحن نتظاهر ليس للتنديد بالاحتلال بل لأننا نريد أن نقاتل. أسمع التناقضات من الناس، بما فيهم حامد وأخي ماهر. «الفلسطينيون حقهم علينا أن نقف معهم». وماهر يصرخ: «الفلسطينيون أرسلوا لنا آلاف الانتحاريين بعد أن سقط صدام. فجروا أنفسهم انتقامًا لأنهم يعدوننا كفرة». يلتفت لي ماهر يريدني أن أؤيده، يضحك حامد ويقول لماهر: «ما تقوله صحيح، لكن القلة لا تمثّل المجتمع. فلسطين القضية». التفت إليَّ حامد يريدني أن أؤيده. أضحك وأهزّ رأسي. وأبحث عن شخص أضحك له لعلّه يؤيّدني فتخرج الكلمات من فمي: « نحن لعبة بيد هذا وذاك والمتاجرة بكل القضية». ثم انفجرت بوجهيهما وصحت: «أين الحقيقة في كيفية المناصرة وليس في قضية العداء؟» متأكّد أنهما لم يفهم ما أقصده، لأنّي أنا لم أفهم ما قلته. كلّ الذي حصل هو أن ماهر ذهب إلى مكان عمله، وظلّ حامد معي يلوي ذراع الكلام ليبتعد عن النقاش.

صاحت أمي مكبرة: «الله أكبر!» ارتجفتُ قليلًا، ثم ضحكتُ، أدخل الكلمات في بطني بدلًا من عقلي، حتى لا تصعد حموضة ردّة الفعل والنقاش وتضغط على قراري. صرت أسمع صوت أمّي وكأنه صوت نداء كراهيةٍ وتحريض السماء ضدّي، ولا تعلم أن واحدةً من المواجهات وتوجيه الأسئلة موجّهة إلى السماء ذاتها. كان صوتها الذي يتناغم كثيرًا مع دبيب عاطفةٍ وبكاءٍ ولطمٍ وعويل، يخرج

من حنجرتها أسيرًا. صرت أرى البيت كذلك، بيت عناكب وصراصير وفئران. صورة الحيوانات وهي تخرج من الجدار وتريد التهام كل شيء داخلي. مرّات أراها تتجمّع حول رأسي، تبحلق في التجاويف وتستعرض قوّتها في نهشي، ثم سرعان ما تختفي. هي تتغذى من خوفي. لذا أعود للتأكّد من إغلاق الباب والنافذة المطلّة على الزقاق الضيق في الحي القديم.

عاد لي صوت أمي، سوط من نار، بالرغم من أن فيه جرسًا من أغنياتٍ قديمة عذبة، كنت أترنّم بها سابقًا حين يشتد الحنين إلى حضنها. نادت بشيءٍ من اليأس: «أخرج من عشّ الدبابير قبل أن تتحوّل إلى دبور لا معنى لك». الحقيقة أنني خفت من هذا التوصيف الذي قطع عني الاستماع لكل الكلام، لكني انتبهت إلى ما تقوله الآن: «العالم يحترق وأنت تطرح أسئلة. فلسطين يموت الناس فيها بالجملة ونحن نموت هنا من القهر، واثنينه ما نرتوي إلا من الموت».

أعلم أن أمي مثقفة وأكملت الكلية، وأبي تزوجها حين كان الحب في الكلية واحدًا من أزهار الحياة الجامعية. لكني لم أعرف أنها تحلل الأمور بصورة جيدة. استمعت لها من جديد وهي تعاتب، هذه المرة: «قبل أيام خرجتَ مع صديقك حامد وعدتَ أكثر جنونًا. لو أدري ما كلفته!» لم أقطع كلامها بالحديث مع نفسي الخائفة. قالت: «سجنك لا يعطيك الدليل، ولا يعرفك السبيل، ولا يرويك من عطش العقل. التعقل أساس المعرفة». يا لأمي الحبيبة، كلماتك لم تنفع أمام تعصب ساجد، وتمرّد ماهر، وفوضى الحياة. الحياة لعنة حين يتبارى الناس فيها على صحة الأقوال والروايات، فيما الآخر يمنحنا الموت.

ينعكس المشهد.. أعود إلى ذاكرة قريبة، يوم دخلت البيت في ظهيرة قائظة. ينزل جسدي بقدمين مرتجفتين إلى باحة الدار. ثمة أشياء مخيفة تلاحق الخطوات، والضحكة تصدر بلا معنى، فيدور الصوت بتكبيرة الأذان «الله أكبر» يتبعها تحذير: «ألا تخاف الله؟» تختنق الصورة، فيرتفع الرأس لينظر إلى السماء،

لعلّ بصيص أملٍ ينزل على شكل بياضٍ أو غيمةٍ أو حتى طير، ليذيب الجليد الذي كلما تدرج زادت قوته في المكان، ويطفئ النار المستعرة، كراهيةً تدور على شكل حروفٍ وأصواتٍ متداخلة.

جلس جسدي عند باب عتبة الغرفة. كانت أمي داخل المطبخ. أراها بشكلٍ مستقيم، حيث الباب مقابل الباب والمطبخ يقبع في آخر البيت. كانت تقف عند مغسلة الأواني، تفرك ماعونًا زجاجيًا بممسحة قطنية اقتطعتها من منديل عتيق. ترتدي ثوبها الأسود الذي لم تنزعه منذ وفاة أبي وأخي ساجد قبل خمس سنوات. مات أولًا أخي بانفجار سيارة، لم يمت سواه في انفجار المدينة. عشرات الجرحى وميت واحد، ولم يمضِ قطار العمر طويلًا حتى مات أبي كمدًا. أخي وُجد شهيدًا، وأبي مُنح راتبًا تقاعديًا كونه موظفًا في دوائر الدولة. أخي ساجد، لم نكن نعرفه حين جيء به أشلاءً ناقصة. ربما عرفناه من ساعته التي كان يضعها في يده اليمنى، وهويّته الوظيفية التابعة لوزارة الزراعة.

وزارة الزراعة، وخاتم زواجه الفضّي الذي كتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم». بقينا أنا وأبي في الطب العدلي، بينما كان ماهر قد هرب إلى سطح الجار ليبكي مثل طفل لا يعجبه مشهد الموت، المشهد الذي أحاطنا جميعًا ليزيد من ضيق الأفق الذي أعيشه وأنا أقرأ أسماء القتلى الذين كتبوا أعلى صورهم أنهم «القادة الشهداء». وليس لهم ذنب سوى أنهم ولدوا في المكان الذي لا يمنح سوى الموت وخطابات التاريخ. هذه الجملة ليست لي، بل لأخي ماهر. كان يتحدث بصمت حتى لا تسمع أبراج الحمام في بيت جارنا الذي يعشق الطيور. قال: «أنا جبان، لا أحب الموت، لذا أريد الحياة، ولا أريد أن أمنحها لمن يتاجر بحياتنا للموت».

المشهد الذي تراكمت صوره أمامي، هو مشهد السير بسرعة سيارة، والصورة مركّزةً على أعمدة السيارات، حيث تخطف الأنظار. صور الشهداء المعلّقة بدلًا من

لوحات الإعلانات. صور تتغير بكلمات الخطب والتفاسير والأقوال التي خُطَّ تحتها أسماء من قالها وعلقت على جدران الحدائق، وحتى جدران الأبنية الحكومية كأنها عبر وحكم. صورة حوار في مقهى يظهر اثنين يتجادلان بأن هذه الأقوال ليست حكمًا، بل تبين الصراع بين الجهات التي تتوجّه للصلاة نحو قبلةٍ واحدة.

لقبلة واحدة. مشهد يعلن انفجار دراجة هوائية محملة بمواد متفجرة، فيتصاعد اللهب إلى الأعلى. مشهد لمجموعة مسلحة ترفع راية سوداء كتب عليها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهي تعدم مجموعة من سائقي سيارات النقل العام صادف وجودهم على الطريق الخارجي بين العراق والأردن. صورة لمشهد مع موسيقى حزينة تنزف دمًا لرجل عسكري بوجه يابس، وهو معلق بحبل في مشهد إعدام قاسٍ والناس تهتف أو تشاهد بصمت.

المشهد تقطعه أمي وهي تتحدث بصوت عالٍ: «لولا راتب أبيك لمتنا من الجوع». كنت قد انتبهت حينها إلى نغمة صوتها المبحوح، وقد خرجت من بين أسنانها كأنها تمنح اللوم بعض حضوره القدري. وربما من تلك المحاورة الأخيرة قررت هي الأخرى ألّا تتحدث معي، لكي لا تتعب نفسها بالحديث مع شخص «لا يعرف رأسه من رجليه»، كما تصفني. ربما ملّت من كثرة صمتي وانزوائي وتقاطع الحلول. وربما، وهو ما أعتقد، لولا أني آخر العنقود، كما يقال، لكانت قد فعلت ما تفعله الآن بتجاوز المحنة بالصمت مثلي. وهو ما تفعله مع أخي ماهر الذي طلب منها ألّا تتدخل في أي شيء لأنه غير مستعد للتضحية بمتع الحياة.

فهي وحيدة بين اثنين لا يتحاوران بشكل سليم، وهو الأمر الذي جعل زوجة أخي ساجد تغادر إلى بيت أهلها مع ابنها وابنتها، ولم يعد أحد يناديني «عمو»، تلك الكلمة التي كنت أشعر معها بالعجز الكبير، كأن صخرةً من جبل سقطت عليّ، حين يستقبلاني في الباب وأنا لا أحمل شيئًا سوى السؤال: «من تسبب بمقتل أبيهما؟»

ولا أخفي أن مشهد المغادرة كأن شيئًا أفرغ من عقلي وخفّف عن كاهلي، وأزاح عني ثقل كلمة «عمو». ومنذ ثلاثة أشهر لم أرَ أيًّا من الثلاثة، منذ أن غادروا إلى بيت جدهم الآخر. لم أعد أطيق رؤية الوجوه. لم أمهل الحنين أن يبدأ بالتناسل داخلي كي أحن لملاقاة الوجوه واحتضانهم حتى أجد المصير. وهو ما ذكرته لماهر وأنا أطلب منه رفع صورتي أبي وأخي ساجد من الباحة والاستقبال وتركهما معلّقتين في غرفة نوم أمي. لم يعارض، بل أشار برأسه وهو يتنحنح بطريقة مزعجة أن الأمر لا يعنيه.

كل شيء أزيح وأزيل من جدران البيت، حتى صورة الخيول الصاهلة التي كان أبي يحبها، وكان ساجد يقول له إن هذا الأمر حرام. كان أبي يضحك ويرد عليه بقولٍ فيه الكثير من الحدة، وإن بدا هادئًا: «حين أموت افعل ما تشاء، أما الآن فأنا من يقرر ماذا نعلق على الجدران».

لم يبقَ في الباحة سوى آية الكرسي، معلّقةً بين بابي المطبخ وباب غرفة نوم أمّي، وقد بنى العنكبوت حولها الخيوط وتراكم الغبار.

لم أزل في مشهد اليوم الأوَّل.

كانت أمي تنظر إليَّ وهي تغسل الأواني. أعتقد أنها تفعل ذلك بحرقة، ويُخيَّل لي أنَّ الماعون الذي بين يديها يصرخ من الألم. فلا أواني كثيرة، أنا وهي فقط، وأخي لا يدخل البيت إلا مساءً. كنت أسرق الوقت وهي تُصلِّي أو نائمة لأتسلَّل إلى المطبخ، أحمل جوعي وبطني الفارغة وعنادي، وأستخرج أيَّ شيء من الثلاجة. أتناول قبضات من الرُّز وأشرب اللبن، وربما أجد بعضًا من قرص خبز أو بقايا صمونة باردة، وقد أجد في الثلاجة بعضًا من التمر.

لأستمرَّ في احتجاجي وأمنح القوة لبدني كي يُعينني على الاستمرار في البقاء حيًّا، كي أحصل على شيء يأتيني كعلامة، ولو كان توبيخًا أو شيئًا معكوسًا، حتى لو سقطت الغرفة فوق رأسي.

كنت خلال الأيام الأخرى أكبت في صدري كومةً من الصُّراخ، خوفًا من الانفجار والموت على يد من يجد في نفسه القدرة على القتل وإهداء الموت المجَّاني، وربما أُسجن لمخالفتي شروط الإقامة في هذه الحياة.

شعرت بالعاطفة تجاه أمي أن تبقى وحيدة، فأخي ماهر، لم ذلك الرجل الذي يكبرني بعامين، من يهتم حتى لنفسه. ولأول مرة تمنيت لو أنَّ الجميع قد مات من عائلتي، لكن أمي الشبيهة بالميت معي.. لا تُحدِّثني تلبيةً لطلبي أو ربما لأنها وجدت أنَّ الحوار لم يعد له فائدة في تأجيج الأمومة داخلها.

صرت بعدها لا أسمع إلا تكبيرتها على كل شيء، بعد أن كانت لا تكبِّر إلا للصلاة. لذا اتخذت القرار الآخر بعدم الحديث معها مهما كلف الأمر، حتى لا أزعجها ولا أجعل نغمة صوتها وحزنها وأمومتها تؤثّر على ما أفعله. كنتُ أريد تخليصها من ردَّة فعلها، كلما خالفتُها بأمرٍ صاحت: «الله أكبر»، فأعود أدراجي إلى الغرفة وأعاقر الصمت. صارت صلة التخاطب بيننا رسائل خاصَّة على الواتساب؛ ترسل لي رسالة تقول فيها إنها ستخرج لجلب راتب أبي التقاعدي... أو أنها ستطبخ اليوم مرقة الباذنجان أو البامية أو الشجر أو الفاصولياء، سأجلب الطرشي. كنتُ أشعر بها أنها تريد تلبية حاجياتي، لذا تريد معرفة ماذا أشتهي من الأكل. لم أكن أردُّ على رسائلها، تعلم أني قرأت رسالتها، ولا أجيب. تخرج وأسمع صوتها (الله أكبر) مثلما أسمع صوت انغلاق الباب يأتي عبر نافذتي المطلة على الزقاق، أضحك قليلًا. ثم أرفع رأسي إلى السقف. أتأمَّل في غاري الذي أتخيَّله مكانًا هادئًا لم يعد يُفتت سكونه. أكلِّم السماء بطريقتي وأخنقها حتى لا تسحلها الشياطين وتحولها إلى صراع أخسره. كانت وحدتي تزداد، ولا شيء أكلمه غير السقف الذي يمنعني من رؤية السماء.

في المشهد النهاري الداخلي في الزمن العشرين، رأيتُ شيئًا يخترق

السقف، ويهبط مثل ضوءٍ أو كومة بياضٍ، يتحرَّك حولي، فأفسح له المكان ليجلس على حافة السرير. أشعر بالرعشة الخفيفة التي تحتاج إلى برميل كامل من الماء البارد كي ينعش الجسد. وحين أسمع صوتًا يأتي من الخارج، أشعر به أشبه بأسرابٍ من الجراد، تضرب الباب الخشبي ثم تدور باحثةً عن فتحةٍ واسعة. لا ألتفت إلى حركة الجراد. كنتُ أتحاور بشكل لا أستطيع كيف أوصفه. بدأت معاتبًا على ما وصلتُ إليه وما وصلتْ إليه عائلتي وما وصل إليه المجتمع. قلتُ بصوت أسمعه، أسمع دبيبه يخرج من حنجرتي ويمرُّ على لساني: أنتَ أقرب إليَّ من حبل الوريد، وأنا الذليل... أقطع الوصل والحوار. أشعر بدبيب عجيب يسري في أوصالي، لكني شعرتُ أن لا لحظة تجلٍّ تصاحبني. ربما الصوت الذي يدور في البيت تسبب بقطع الحوار والمناجاة. لكني واصلتُ الابتهال والأدعية والترتيل. لحظة ومرَّ شيء عقد لساني وخنق أنفاسي. كان السرير قد أُضيء. خُيِّل إليَّ أن ضوءًا مرَّ في الغرفة أزال بعض ظلامها، شعاعٌ يخرج من جهاتٍ أربع، فتتحوّل الظلال إلى ضوء... إلى حدائق متلألئة كأعياد الميلاد... أجراسٌ من ضوءٍ حليبي، يشبه لون الغيوم. أصابتني حالةٌ من الفرح أني في الطريق إلى الحصول على الإجابات. أغمضتُ عينيّ كجزءٍ من التأمّل، تخرج الكلمات كأنها مكتوبة على لساني. خرج السؤال من فمي: «لماذا أنا مخلوق معذَّب؟ وما نفعي وأنا أعيش بأفكارٍ لا تجد لها حلولًا؟» كان الكلام يرتفع بنغمته، كأنَّه راديو يتم رفعه إلى أعلى درجة. فيرتدُّ الصدى هائجًا. وتختفي الأشياء لأبحث عن بقايا الكلام المتساقط على أرضية الغرفة.

يخرج فجأة صوتٌ مدلهمٌّ، سمعته يأتي من الزقاق. صوتٌ يتسرب من حناجر هاتفة ضد أمريكا وإسرائيل وإيقاف الحرب على غزة.

سقطتُ على الأرض. تحوَّل المكان إلى سرابٍ أركض خلفه دون أن أجد

النهاية. تعيدني تكبيرة أمي إلى صدى خائب. أجلس نافضًا عن جسدي بقايا تأملٍ لم أتوضحه... يتغيَّر المشهد. ظلامٌ وحركة أجنحة تخفق في الباحة، تضرب الجدار، ليتبدد نشاطي حين تحوَّلت الجدران إلى مرايا ونار. لا أدري ما الذي حصل، لكن ما أدركه وأنا أمسك شعر رأسي أن الضوء كان يمنحني الكلام فيما كان الخوف يشدُّ قبضته كي أغرق في الذهول.

المشهد الثالث

كان الهاتف يرنُّ بإلحاح، صوته يقطع صمت الغرفة المُظلمة. كان اسم (حامد) واضحًا. ثمة تردّدٌ يخنق الموافقة على الاتصال، وثمّة ندمٌ على عدم مسح الرقم. بيدٍ مرتعشةٍ وبعد مضي لحظاتٍ طويلة، وقبل انتهاء مدة الرنين، خرج الصوت بطريقة من يريد إخفاء التعب في نبرته.

«أين أنت؟ لماذا لا تخرج؟» جاء صوت حامد قلقًا، كأنما يسحبه من أعماق ظلامه.

كان الجواب يبدو جاهزًا: «لا أريد الخروج. كل ما أراه خارجًا يذكّرني بأن الحياة ليست أكثر من مسرحيةٍ تافهة، حيث يستغلّ الناس الحضور من أجل الموت».

كانت النبرة جافّة ومُحمّلة بخيبة الأمل. يأتي صوت حامد: «لكن الحياة ليست كذلك! هناك لحظات جميلة، أصدقاء، تجارب، وذكريات. لماذا تفضّل العزلة؟».

في طريقة الكلام محاولةٌ للإقناع مقابل التجهم واليأس.

«لأنني لا أريد أن أكون جزءًا من لعبةٍ تُلعب بأرواحنا، حيث يتسابق الناس نحو الفناء وكأنهم في سباقٍ محموم». أجاب الشاب، محاولًا تنظيم أفكاره. «الخارج مليء بالخداع. لا أريد أن أكون ضحيةً لهذه الحيل».

يصرّ حامد على المجادلة خارج سلوكه المعتاد: «لكن... الحياة لا تعني الموت، يجب أن نعيشها كما هي».

يأتي ردّ اليأس من حنجرةٍ يابسة: «لكني أرى الموت في كل زاوية، في كل ابتسامةٍ مزيّفة. أنا أفضّل الحبس هنا، بعيدًا عن كل شيء».يفترش الصمت بضع ثوانٍ، كأنّ كل واحدٍ يتبادل الأفكار مع نفسه. حامد لا يجيد المجادلة أو النقاش، ولا حتى الإقناع. تتعالى أنفاس حامد وتظهر واضحةً في الهاتف النقال. لكن الردّ يأتيه كإصرارٍ لا بد منه: «إنهم يستغلون الحياة ليحققوا مآربهم، وأنا أريد أن أعيش بمعزلٍ عن ذلك. أريد أن أكون حرًا في وحدتي».

تنفس حامد ليُبيّن لنفسه قدرته على عدم التراجع: «أنت لست حرًا في وحدتك، أنت أسير خوفك. اخرج، واجه العالم، وإلا ستظل محبوسًا في ذاكرتك».

ثم ساد الصمت. كانت الغرفة تغمرها ظلال الليل، وستارة النافذة المسدلة، تعكس ضوء المصباح الوحيد. جاء صوت حامد يختلط بالقلق والأمل: «ألم تفهم؟ الحياة ليست حربًا فقط!» كان صوت حامد يفيض لأوّل مرّة بالحماس. «هناك الحب، هناك الأشياء الجميلة التي تنتظرنا».

لا يصدق حامد أنه يتحدث بهذه اللغة وبهذه الطريقة، كأنه أزال صدأ السنين التي أعقبت التخرج، وما حصل فيها من ويلاتٍ، كاد هو أن يموت مرّتين، وما جناه هو أن يكون صامتًا. فيأتيه الرد بطريقة الاستهجان والتنكر: «حب؟ وما هو الحب في عالمٍ يعاني من الألم والدمار؟»

ليجد حامد نفسه يتحدّث بصوتٍ مكسور: «الحب هو القوّة، هو الأمل. صحيح أن هناك حربًا، لكن هناك أيضًا قلوبًا تتلاقى، وأرواحًا تتحد».

لم يكن هناك صوت أو جواب مقابل. يستمر حامد بالكلام، محاولًا اختراق جدار العزلة: «تذكر تلك الفتاة جارتكم، كيف كانت عيناك تتلألأ عندما تحدثت

عنها». يخرج الجواب سريعًا كأنه جاهز في جوف البلعوم: «الحب أمام الخراب، مثل مؤمن بالله، في مجتمعٍ لا يؤمن به». ثمّة تنفّسٌ عميقٌ ليُتابع الصوت: «كيف يمكنني أن أعيش في ظلّ كل هذا الخراب؟»

لم يجد حامد بُدًّا من الكلام الذي أعجبه هو الآخر كما لم يتكلم من قبل: «الحب هو ما يجعلنا نعيش، ما يجعلنا نتجاوز الصعوبات. لا تدع الخوف يأسر روحك، بل انفتح على الحياة. يمكنك أن تكون جزءًا من شيءٍ أكبر».

تتسلل الكلمات إلى الفراغ، ولا تدخل العقل ولا تدغدغ القلب: «لكن الحياة مليئة بالمخاطر، والناس يستغلون الحب لأغراضهم. الحب يضيع وسط النار. ما نفع القشة وأنت تعيش وسط النيران؟ نور الواقع الذي نحن فيه، وواقع فلسطين الذي أُقحمنا فيه بإرادتنا أو بدون إرادتنا».

تمسّك حامد بالحروف، وراح يوقظ الكلمات من سباتها ويدلقها على لسانه بلا توقّف هذه المرة: «لولا فلسطين، لكنّا في موقع آخر... كل شيء هو ذاته اسمه الاحتلال... هنا وهناك، لكن الفرق أننا نعيش. لذا عليك أن تدرك أن هناك من يستحق الحب، وأن هناك من سيساعدك على الشفاء. لا تترك الحياة تمرّ من بين أصابعك بسبب الخوف».

كان الصمت قد احتلّ الغرفة، ولم يعد حامد يسمع شيئًا. تسرّبت مشاعر مختلطة في داخله. استمر بالكلام، متخيّلًا أن صديقه بدأ يقتنع بما يقول: «نعم، فالحياة ليست مجرد حرب، بل هي فرصة لنعيش الحب. اخرج، وستجد الجمال حتى في أصعب اللحظات».

لم يكن الحوار مع حامد مساعدًا لاتخاذ قرارٍ آخر، بل كان كأنه هواءٌ في شبك، كما يُقال. بل إنه أصابني بالهذيان، لذا قررت عدم الرد على اتصالاته، بعد أن تضاعفت حسرتي وداهمتني حمى الضوء وخوف الظلال وصراع الرهبة. لا

خروج من الغرفة؛ حتى أمّي لم تعد تسأل أو تعلّق أو تفعل أيّ شيء. الخروج فقط لقضاء حاجتي، وفيها أغسل وجهي ويدي. الغداء تضعه أمّي عند عتبة الباب. أسمعها تقول: «لا طعام كثير، أيها الناسك..». ثم بطريقة التهكّم والسؤال الساخر» أبهذا الانعزال ستحرّر فلسطين من الصهاينة؟»

شعرتُ بها وكأنها تمارس دور السجان، وكأنها بدأت تخاف عليَّ من الخروج. لذا، حين تضع الطعام عند عتبة الباب، ترسل لي رسالة عبر الواتساب: «افتح الباب وخذ غداءك».

أشعر أن هذه الطريقة أفقدتني سماع رنة صوتها الحزين، لأني كنت أصنع من روحي نايًا أعزف فيه ألمي مما حولي. وكنت أقول لحامد ذلك. حامد الذي أتكلم معه أكثر من أخي ماهر. لكني عرفت أن أمّي ربما تخاف عليَّ من الموت وحيدًا في الغرفة. سمعتُ، أو كأني سمعت، صوت حامد يقول لي أن أفتح الباب وأتناول الغداء.

فتحت ظلفة الباب، هالني الظلام. مشهد مرعب مسلط على صينية الطعام: رزّ وماء مرق مائل إلى الاصفرار، وقطعة خبز صغيرة وقطعتان دائريتان من الخيار، وكأس ماء مصنوع بلاستيك قديم. انحنيت لأمسك بصينية الطعام، وعيني تسترق النظر لعلّي أرى أمي وملامحها. ربما هي في غرفتها، أو في الحمام، وربما خرجت إلى بيت الجيران. تناهى إلى سمعي صوتها، صوت مخنوق بدمع وسحب مخاط ورجاء وتوسل موجه بالتأكيد إلى السماء، إلى رب العرش الذي لم يمنحني حتى الآن هدوء التفكير: «أرجوك خلصني من العذاب.. أن أموت لأرتاح، خذ أمانتك بيدك، لا أريد أن أموت كمدًا». الموت هو ذاته... المسعى، حتى في أدعيتنا الخلاص هو أن نموت. نفكر لنموت، نجاهد لنموت، نضحي لنموت، نفرح ونبكي ونخاف أن نموت. أغلقت الباب بقدمي اليسرى، فارتدّ صدى الإغلاق مثل صوت حركة الخفافيش، وتحوّلت الجدران والسقف والأرضية إلى صراع

بين الضوء والظلام. كادت صينية الطعام تسقط من يدي لتعثرّي بشيء لم أره. وجدت نفسي داخل مشهد جلوسي القرفصاء أمام الطعام.

كنتُ أشعُرُ بالجزعِ وفي داخلي يتردَّدُ كلامُ أمّي وهي تُشَبِّهُني بالناسك. لذا صارت رغبةُ تناولِ الطعامِ قليلة، أنظُرُ إلى ما حولي بشكلٍ مريب، متصارعًا بين إلحاحِ الجوعِ وإصرارِ القرار. شعرتُ بشيءٍ يرفعُ يدي ويمدُّها إلى داخلِ الصينية. رفعتُ كسرةَ الخبز، ثمَّ شعرتُ بشيءٍ يعيدُ يدي اليُسرى إلى فخذي. سمعتُ ضحكةً تهتزُّ لها الجدران، أفقدتني القدرةَ على معرفةِ التفاصيل. أردتُ أن أفتحَ الستارة ليطلَّ ضوءُ الزقاق، وجدتني متسمّرًا، ويدي اليُمنى مغموسةٌ بالمرقةِ الصفراء، ترتفعُ لتلقمَ فمي كومةً من رزٍّ مبلولٍ بالمرق، وقبل أن تقطعَ أسناني اللقمةَ شعرتُ بصفعةٍ خفيفةٍ على خدّي، تُنَبِّهُني إلى نسياني البسملة. وشعرتُ أيضًا بلمسةٍ هادئةٍ تمرِّرُ راحتها على خدّي ألا أنشغلَ بالكلام وأواصلَ الأكل. فالجسدُ بحاجةٍ إلى قوّةٍ وطاقةٍ مثلما العقلُ بحاجةٍ إلى وعي.

لم أكن أرى ما حولي من صراعٍ مخفي، أشعرُ به وأحسُّ لكني لا أعرفُ معناه ومداه. كان صوتٌ مخنوقٌ يأتيني من النافذة، سيخترق الستارة مثل حشرجةِ عشراتٍ من الناس الذين مرّوا ويمرّون من الزقاق. بالكاد تمكنتُ من مسكِ نفسي وبدأتُ أتناول الغداء بطريقة من يريد كسبَ الطاقة، لكن هناك صعوبةٌ في ابتلاع اللقمة. ورأيتني أشبهُ بآلةٍ تطحنُ بحركتها المكوكية ما يأتي بين أسنانها. فتشتُ عن شيءٍ يعينني ويهديني السبيل لإدامةِ واقعي. انتفضتُ غاضبًا على حالي. ضربتُ خدّي فتطاير الطعام حولي، وتوقفت نصفُ لقمةٍ في بلعومي جعلتني أقحُّ بطريقةٍ كدتُ معها أرى الموتَ يخرجُ من عيني كأنه مصيرٌ محتومٌ يلاحقني. أنا الهاربُ من الموتِ وأسبابِ الموت، والسؤالُ الذي تسبب به الموت يأتيني بغصةِ نصفِ لقمة. هممتُ مسرعًا إلى كأس الماء، ولارتباكي وسرعةِ السعالِ وقوّته، ضربتُ الكأس بإبهامي فانسكب الماء في وعاء المرق ليفيض الى

داخل الصينية. رفعتُ يديّ إلى الأعلى، كما علّمتني أمّي ذات يوم، حين غصصتُ بلقمةٍ أيضًا، حتى يدخلَ الهواء. لا أعرفُ مدى علميّتها، لكني فعلتُ ذلك. وبعد أن أعياني السعال، هدأتُ وخفَّ جرحُ البلعوم. رفعتُ رأسي إلى السقف حامدًا عدمَ الموتِ بسبب غصة. ثم نظرتُ بشيءٍ من الأمنية إلى الباب، لعلَّ أمّي تسمعني وتأتي طارقةً الباب. تناهى إلى سمعي أو هكذا تخيّلتُ دعاءَ أمي، تناهت بعض الكلمات وهي تطير في هواءِ الباحة، يأتيني صداها أن يتلطّفَ الرحمنُ بأمره وقضائه. شعرتُ بالراحة من نداء التوسل، لكن جملةً دارت، حلقت في الفضاء وجمعت صداها واقتربت من أذني وفككتُ عقدةَ فهمها: «هذه عقوبةٌ من الله لمن يكون عاقًّا وناكرًا للإيمان».

فتّشتُ في داخل عاطفتي عن لحظةِ عقوقٍ، وفي عقلي عن أمرٍ يتعلّق بالنكران. درتُ في كل الغرفة الفارغة، لم أجد أثرًا لما أنا متهمٌ به، غير أسئلةٍ معلّقة ومتأرجحة وطائرة، تحرّكت نحو داخلي مثل ناسكٍ يُغمض عينيه ويتلو ما تيسّر له من تعاليم المكوث. فلم أجد غير صدى تلك الكلمات، التي لم تزل تدور بصداها وتتحوّل إلى أزيزٍ يشبه تكسّر الزجاج. لم يُردني أن أستفيق على أمرٍ واضحٍ، وتغلّب عليَّ جوعي وعطشي، فصعد الغضب إلى قمّة رأسي، فاستهلكني وقتًا لا أجد فيه منفعةً. نهضتُ مثل من لدغته أفعى، مقرّرًا مواجهة الظلام الذي تدور فيه الكلمات، بل مواجهة أمي والمجابهة إن اضطرَّ الأمر، فلستُ بعاقٍ أو ناكرٍ. فتحتُ الباب لألجَ ظلال الباحة. وجدتني أصرخ، أتنفّس بصعوبة، ووجدتني مواجِهًا بشكلٍ غليظٍ، شعرتُ به أن جدالي يخرجُ الغضاضة بلا رحمة، كأنها ردّة فعلٍ عارمة: «لستُ معنيًّا بالله أو وجوده، فهو أمرٌ لا قدرة لي على البحث فيه. بل أحتاج الله كي أعثر على استجابةٍ وإجابة. أنا معنيٌّ بما حصل ويحصل معنا، ولماذا؟ نحن نموت، ولا أحد يقف معنا. يموت الآخر، فنكون معنيّين به». وجدتني وأنا أقف عند عتبة الباب، اضع رجلًا في الغرفة نصف المضاءة، وأخرى

في الباحة الغارقة في نصف الظلال. شعرتُ بنصفِ راحةٍ ونصفِ تعبٍ في صدري، ودورانٍ في الكلام الذي يخرجُ من رأسي. فتمدّد الكلام معارضًا: «لستُ ملحدًا... ليفهم العالم كله». أغلقتُ الباب، عائدًا إلى داخل الغرفة، فما زالت كلماتي تدور باحثةً عن طيرٍ يلتهم الحروف ويغادر بها إلى السماء. أسندتُ جذعي على الباب من الداخل. لأجدني أعيشُ في الصمت، كان الطير قد وقف في منتصف البيت. لحظات وتغير المشهد. بدأت همهماتٌ تخرج من الجدران. أقفلتُ الباب بالمزلاج، وتراجعتُ إلى عمق الغرفة. فتحتُ عيني ووجدت طيورًا بألوانٍ مختلفة تلتقط حبات الرز في صينية الأكل. كانت مناقيرها طويلة وقوية وحادّة ومحدّبة كمناقير الصقور. ما لبثت أن طارت مخترقةً الستارة، لتضيع في فتحة السماء.

انتابني شعورٌ أني مسكين، وأن أمي مسكينة، وأن ماهر مسكين، وحامد أكثر مسكنةً منا، لأننا جميعًا ليس لنا سوى المواجهة، وربما أن تبتسم في وجه الصراع خيرٌ من أن تبكي أمامه، لأنه يحيلك إلى ذات الشعور. صوتٌ خرج من جوف الجدار: «من أين لك القدرة على الابتسامة وأنت تعيش في عالمٍ يتحول فيه الفرح إلى نعيٍ وبكاء؟ وأن أجمل صوتٍ هو الذي يجعلك تبكي وتصيبك حنينًا إلى النغم الأولي وأنت تتغنى بالقصب لأن فيه ثقوب الروح، حين تنفخ فيها يمنحك الشعور بلذة الحزن». ثمة ما يدور في المكان فتتحول التفاصيل إلى شاشةٍ كبيرة. أخذتُ نفسًا عميقًا، وتخيلت أمي بوجهٍ آخر. هبطت عليَّ مثل ملاك، يذهب بصري إلى هيئتها وهي ترتدي عباءتها البيضاء أو إحرام الصلاة الأبيض، فتبدو لي طائرةً محلّقة، يرفعها ملكان، تقوم بترتيل القرآن، فتخشع له القلوب. أرى النسوة يتجمّعن في الباحة التي تضاء، ويهرب منها الظلام، وتلفُّ الجدران ببياضٍ يشبه نثيث الثلج. نساءٌ أخذن من النواح ما يعجّل البكاء في صدورهن قبل عيونهن، مستذكرات من مات، ومن قُتل، ومن رحل، ومن هاجر،

وصارت الغربة نواحَ الروح. الصورة تعطي المشهد الكلي حيث يجلسن، فتبدو وجوه الشابات منهن مؤطّرةً بالاستماع والاحترام، ويكشفن عن وجوهٍ نضرة. يتسلّط النور على وجهين من وجوه بنات الزقاق، تجلس الأولى على يمين الأم، والثانية على يسارها، فتطفح الرغبة بالتقرّب أكثر وضوحًا.

يتحوّل الحوار حول المرارة والحزن الذي يعتري الجميع، فتبدو النسوة الأمهات متّفقات على القول. يصعد الكلام ويدور في الباحة. تبتسم إحدى الفتيات وتوجّه الكلام للجميع: «أنتنَّ عشتنَ في زمن الحروب وانتظار الأزواج، ونحن نعيش زمن التيه وانتظار الزواج». تضحك الثانية على يمين الأم، فتظهر الأسنان البيض، وتنزلق عباءتها على كتفها، فيظهر جزءٌ من البياض مكوّرًا على رمانة الكتف، فتغازلها الأخرى: «أنهينا الجامعة بلا حب كما كان في الزمن السابق. خالتي أم ساجد حبّت أبو سجاد بالجامعة!» تضحك النسوة ويصيب وجه الأم سحابةٌ من الخجل، فتقرص الثانية فخذها الريّان، وقد أزاحت العباءة عنه، ظهر ثوبٌ القصير، وبان فخذٌ مليءٌ باللحم، فتردّ عليها بطريقةٍ من تستفسر: «على أساس أنتِ خلّصتِ الكلية بلا حب وظلّ القلب فارغًا؟» تبتسم النسوة، فتبادر إحداهن وهي أم الفتاة الثانية مدافعةً عن ابنتها: «ما عدنا بنات للحب. إذا سمع أبوها يذبحها. كل شي تغيّر.» كانت الأم تبتسم، وبان عليها الفرح. نهضت مسرعةً إلى المطبخ لتعدّ الشاي. الفتاتان تنهضان معها، وتدخلان إلى المطبخ وتتسارعان للتعاون ووضع كلّ شيء في مكانه. تفرح الأم، ويظهر على وجهها الحبور. تخاطب الفتاتين بشيءٍ من اللّذة المقصودة: «لو عندي بنات مثلكم، جان ما شفت حزن». تسارع الفتاتان لتقديم المحبّة والعاطفة. تقول إحداهما: «أنا مثل بنتك، اعتبريني». وتقول الثانية: «أنت أمّي الثانية». تضحك الأم، يصعد صوت الضحكة مثل نغم أفراح الأعراس، فيتحوّل إلى زغرودة أمّ لم تزوّج ابنًا من قبل. يتسلّل النغم

إلى الغرفة الموصدة، ويدور إلى حيث يشاء في الغرفة حتى يستقر. استقرّ عند ثقب الباب.

أتلصّص بشيءٍ من الخجل إلى ما يدور في الباحة، أدرك سبب الضحكة. أعود لأقرفص في مكاني شارد الذهن، أفكّر بأمّي التي كلّما ضجرت أو شعرت بالحزن تلجأ إلى التكبير. إذًا هي تحتاج إلى نَديمٍ، حتى لو كانت فتاة بعُمرِ ابنِها الصغير. نحنُ بحاجةٍ إلى نُدَماءَ دومًا، بإمكانِهم أن يُقلِبوا المُعادلة، معادلةَ الحزنِ إلى تفكيرٍ عقلانيٍّ وإلى مُساوقةِ الحياة. كنتُ غائبًا عن المُلاحقةِ لما حصلَ بعدَها. شعرتُ بفَراغِ البيتِ، بل بخَوائه. سَمِعتُ إغلاقَ البابِ وآخرَ كلمات التوديعِ من النِّسوة. جاءني صوتُ امرأةٍ من النافذةِ وهي تُنادي على ابنتِها: «تَعالي، كافي ملحّة.. أم ساجد تعبانة، لا تعْبينها أكثر». لم أسمعْ رَدَّ أمي. ربما ابتسمَت أو اعتذَرَت أو حمدَت وأشادَت، ربما تكون غمزَت للبنتِ الأولى وقرصَتِ البنتَ الثانيةَ للتدليلِ على المحبةِ والاهتمام. ربما حَمَلَت كلُّ واحدةٍ منهما آمالًا رَسَمَتْها أمّي، وربما وزّعَتْهُنَّ علينا، واحدةً لأخي ماهر والأخرى لي. لكني لم أتبيَّن أيُّهما الأصغرُ لتكونَ حصّتي. يااااه، أخذَتْني الهَلْوَسةُ إلى مخيِّلةِ أفعالِ الأمِّ وقلبِها.

مع إغلاقِ الباب، جاءني الصوتُ أسرعَ من برقٍ يلوِّحُ في الأفق: «اللهُ أكبر». صوتٌ فيه شجنٌ كما فيه غضب. حطَّ السؤالُ أمامي: لماذا تغضبُ مني؟ وكيفَ لها أن تتحوَّلَ من مرحلةِ المرحِ إلى مرحلةِ الحزنِ والغضب؟ من أينَ لها كلُّ هذهِ القوّةِ والقدرةِ لتتحمَّلَ وتصبرَ وتتغيَّرَ بينَ لحظةٍ وأخرى؟ كانت تريدُ أن تكونَ قويّةً أمامَ ضيفاتِها، وتكونَ ضعيفةً في وحدتِها كي تكسبَ المهارةَ التي تُعينُها على البقاءِ خارجَ حساباتِ الجنون، كما كانت تقولُ لنا: «كلُّ شيءٍ سيصادفُكم، حتى لو انتصرَ عليكم، لا بدَّ أن يحصلَ التغيير، اخزنوه في دواخلكم، لكن لا تجعلوه ينتصر عليكم».

مرَّ الوقت لمدّةٍ قد تزيد على خمسِ دقائق، كنت أُدقِّقُ في وجود الأسئلةِ

ذاتها على جدرانِ الغرفةِ والكتابةِ باتجاهِ السقف. ربما أتخيَّل أن السقفَ سينشقُّ وستطير الأسئلة، ولكن حتى ينشقَّ لا بدَّ من فعلٍ خارق. كانت الأشياء مُلبَّدةً في داخلي، وريحُ الانتظارِ تدفعني إلى وُلوجِ مساراتٍ كثيرة. الريح تؤذيني كونها متغيّرة؛ لحظة أشعر بسخونة المكان، فأتصبَّب عرقًا، ولحظةً أخرى تصيبني رعشة البرد، فأبدو مثل واحدٍ يهذي مع نفسه. أهجو حالي إلى الفراغ، موقنًا من عزّة المكوث، ومن قوّةِ الكلامِ الذي يأتيني طائرًا تحملهُ الريح. وسمعتُ في انقطاعاتِ خلوتي في هذهِ الدقائق، بعد صمتِ البيت، تكبيرةَ أمي: «اللهُ أكبر». إذن حلَّت الصلاة. يا لهذهِ المرأةِ المسكينة، تتمسّكُ بالغيبيّاتِ كأنّها تمنحُها القوّة، وهي الضعيفةُ العطشانةُ لماءِ أنوثتِها الذي توقَّفَ عن الجريان، وهي لم تزلْ لم تصلِ الخمسينَ بعد. نصفُ عمرِها بعددِ سنينِ عمري، وأنا الذي لا أشعرُ أني خرجتُ من معتركِ المواجهة. سمعتُ مرّةً أخرى تكبيرتَها، كأنّها كلما نطقتْها بصوتٍ أعلى تريدني أن أسمع، أو أن ريحَ الباحةِ تُرسل التكبيرةَ لتدخلَ عبرَ ثقبِ الباب. أشعرُ باختناقي من جملتِها. انجذابي الذي لا حلولَ له يتحرَّكُ العطشُ داخلي مثلَ امرأةٍ عاريةٍ تسيرُ في مكانٍ صقيعيّ. أحضنُ جسدي، أتكوَّر وأقعي أمامَ البابِ من داخلِ الغرفة. لا شيءَ سوى قرقعةِ بطني، وصوت أمي الذي تكرَّرَ هذا اليوم لثلاثِ مرّات. وجدتني أصرخ بها.. الكلماتُ تدور في بطني: «أعرف أن اللهَ كبير، وأكبرُ من الوجود.. أعرفُ أنه الحامدُ والحميدُ والمشكور والشكور والناصر والنصير والرزّاق، لكنه أيضًا المميت الجبّار المتعال. فلماذا يجعل الموتَ بيد من خلقهم ويهدونَه لنا في الحروب؟. لم نرتحْ من الحروب، وإن هدأنا، خرجت لنا حروبٌ أخرى. ها هي فلسطين، القبلةُ الأولى، يموتُ كلَّ يومٍ العشراتُ من أهلها ولا حلَّ لتوقُّفِ الموت.

أوقفتني الأسئلة على ساقٍ واحدة، ممسكًا بطرفِ الباب، مُغمضًا عينيَّ، فتداخلت الصورُ والمشاهد. مشهدُ التوابيت وهي تخرجُ من تحتِ الأنقاض والنارِ

والترابِ والغبارِ والنداءاتِ العديدةِ وأفواهِ النسوة. كلُّ شيءٍ يتحرّك، تخرجُ منه جثثٌ ملفوفةٌ بقماشٍ أبيض، أو توابيت ملفوفة بالعلم. الناس تسيرُ في التشييع أو تصلّي على مَن هم مسجَّون على الأرض مثل أيِّ أشجارٍ فقدت الحياة. تتوقفُ الصور على حركةِ الأعلام والرايات، يسقطُ بعضُ شعاعِ ضوء الشمس، فيضيء جثثَ الأطفال، حيث أحجامهم الصغيرة. تتراكض المشاهد بين توابيتٍ في العراق وأخرى في فلسطين، وربما توابيت من حربِ السودان وجنوبِ لبنان وربما تفجيرات سوريا. الناس تُشيّع في مربعات الصورة، وكلٌّ يمسك علمَ بلاده. وجملةٌ واحدة تركضُ أمام الناس أو تتحوّل إلى يافطةٍ كبيرة في أماكن عديدة: «تعدَّدت الأسباب والموتُ واحد». تخرجُ الأصوات خائفةً من بطون بعضهم. هؤلاء شهداء، لكنهم لم يسعوا إلى الحرب، ولم يسعوا إلى الموت، كانوا ربما يمشون في الشوارع أو يلوذون بالملاجئ أو المخيمات، لكنهم ماتوا. يتوقّفُ الوقت، يخرجُ صوتٌ من أعلى المنابر في بروج مشدَّدةٍ بالحراسة وتبريدِ القاعات: «إن الشهادة هي أن تكون العقيدةُ هي الأساس». والناس الذين ماتوا لم يكن لهم ذنبٌ أن يكونوا على موعدٍ مع الموت. يخرج صوتٌ آخر: «نحن أمةٌ كُتب علينا القتال وهو كُرْهٌ لنا». يتردّد الصدى بين الكلمات، ترتفعُ الحروفُ إلى الأعلى فتكون مثلَ غيمةٍ طائرة، الأبرياء والشهداء وما بينهم الموت المتكافئ.

تتحوّل الصورةُ إلى ظلامٍ دامس. دارت جملٌ مسموعة الحروف: ألا أحد يفكرُ بهذه الطريقة، ألا يخرجُ الكلامُ إلى آذان الآخرين، وإن كان هناك تفكيرٌ فالصمتُ أجدى. المصير هو الموت. تتسارعُ بالظهور صورٌ متلاصقةٌ أخرى معها حركةٌ وتصادم، وضوءٌ أبيض يشبه الحليب، يُسلَّطُ على بابِ غرفةِ الأمِّ المفتوح. كان الضوءُ يخرجُ من غرفتها راقصًا ليمتدّ بالباحة. خرج من البياض مناديًا بعد أن دار ثلاثَ دوراتٍ في المكان: «إنه القدر». وفي لحظةٍ تدخل جنازتان إلى الغرفة ويوصدُ الباب بقوّة.

ضربتُ رأسي في الباب، فحدثَ دورانٌ دوخةٌ لا يستقرُّ معها مشهد. وبدلاً من السقوط، انتابتني ضحكةٌ ساخرة، أردتُ إخراجَ هذه المشاهد من رأسي. مشاهدُ الغضب والقدر والقناعة والارتباك والتفكك. مددتُ يدًا مرتجفةً إلى أكرةِ الباب، لأفتحه قليلاً لعلّي أسمعَ ما يدورُ في غرفةِ أمي. لكن الهاتفَ النقال رنَّ برنةِ رسالةِ الواتساب، أسرعتُ إليه لأغلق الاتصال وأطفئ الضوء حتى أعودَ لأسمع. كانت رسالةً من أمّي تقول: «إياك والاقتراب من بابِ غرفتي أو سماع خطواتك في الباحة. أنا أصلّي صلاة الثواب على أبيك وأخيك، فلا تُزعج الملائكةَ بأفكارك!»

المشهد الرابع

لم يتوضَّح الأمر بعد. وجدتُ نفسي مسجّىً على السرير في الغرفة المغلقة، المسدلة الستارة، يغمر المكانَ ضوءٌ خافتٌ لا يرسم ظلًّا لجسدٍ أو حتى لحشرة. حتى ثقبُ الباب لا يُسرب الضوء إلى الداخل. الزمنُ هنا موحشٌ، ورغم ذلك، أشعرُ بارتياحٍ غريب، أو لعلّي لا أُحسُّ بالضجر كلما تحرّكت بعضُ قوافلِ الأسئلة في ذهني. فتبدأ الأشياءُ من حولي بالتحرّك، ترتسم معالمُ غير واضحةٍ أو متداخلة.. ككهفٍ أو غارٍ أو سردابٍ.. زقاقٌ لا ينتهي إلى شيء، طريقٌ مفتوحٌ عارٍ من الحياة.. شارعٌ مليءٌ بالأشجار.. أيكة وحيدةٌ يخرج منها صوتُ أغنيةٍ قديمة.

خرج صوتٌ من داخلي معترضًا على ما ينتابني. صوتٌ لم أفهم معناهُ أو غايته، لكنني أشاطرُ الآراء، ولا أريدُ أن أكون ملعونًا. كما أنه لا يمكنُ الخروجُ من معتركِ ما أقدمتُ عليه. لكن الصوتَ عاد ليضربَ أذني: «ماذا أنت فاعلٌ؟ ما هذا الهراء الذي تريد أن تقنعَ نفسك أنك ناسكٌ تلبسُ لباسَ الورع، والباحث عن أسبابٍ ليس لك القدرةُ على تحليل محتواها؟»

تتداخل الروائح في الأجواء، مزيجٌ من زُميجٍ وترابٍ وطينٍ وماءٍ ومطرٍ ومياهِ مجاري. أجنحةٌ تخفق في الفضاء، بعضها طويلٌ، وآخر قصيرٌ، منها العريضة والرفيعة، كأنها تُجسد حركاتٍ قديمةٍ تتردّد في الذاكرة

تلفتُّ حولي في حالةٍ من الضعف، ثمة صوتٌ ينتابني، أنينٌ يأتي من اتجاهاتٍ مختلفة، حتى من تحت السرير ومن فوقه. عالمٌ غريبٌ أراه ولا أشعر

به.. أشعر به ولا ألمسه. لا حركة في جسدي سوى ما يدور في رأسي، ووجهي موجهٌ صوب السقف، كأني شبه مُحنَّط. كنت أشعر بجمودي، ويداي ممدّدتان بجانبي بالتوازي مع جسدي، وساقاي ملتصقتان، ورأسي بلا وسادةٍ تحته.

ثمة صراعٌ بين البقاء والهروب، لا قدرة لي على الانصراف، كما لا أستطيع التواصل مع وجود جسدي المسجّى. الشعورُ بالموت مؤذٍ، صورةٌ غير مكتملة. كل ما يأتي من السقف، وعلى ما أتخيّل، هم أشبه بالملائكة، يأتون ضاحكين، بينما أرى الأشياء الأخرى بلونها الأسود ضجرةً وعابسة. أردتُ لهذه الأشياء أن تتوارى عني، لذا حاولتُ الجلوس، كي أعطي لنفسي بعض القوة، ثم ممارسة الطقوس التي يحتاجها مثل هذا الموقف أو المشهد. لكنني كنتُ عاجزًا عن الإتيان بحركة، واستحضرتُ المشاهد التي تتوافق مع ذكرياتي. كان مشهدُ أبي هو الأقرب، يومَ وضَعناهُ أنا وصديقي حامدٌ في التابوتِ، كان ماهرٌ على عادته يبتعدُ عن الأشياءِ التي يتحملُ فيها مَأساةَ الحضورِ كما يسميها. كان يكتفي بالبكاءِ والمشيِ في الشوارعِ.

كان أبي مسجّىً حينها في المغتسَلِ.. عاريًا تمامًا إلّا من قطعةِ قماشٍ بيضاءَ لَفَّها عاملُ المغتسَلِ على عورته.. كانت عظامُ قفصه الصدري مكشوفةً، ولونُ جلده شاحبٌ. رأيته ينظرُ نحوي حين قلبه العاملُ على جنبه الأيسرِ فصار وجهه أمامي، فتح عينيه مع إرجاعه إلى وضعيةِ النومِ على الظهرِ ووجهٌ باتجاه السقفِ، رأيته لم يزل ينظرُ بصورةٍ جانبيةٍ. وخرجت من عينيه كلماتٌ حامت حوله، اقتربتُ منه أربعَ خطواتٍ كي أرى وجهه بالتمامِ والكمالِ، لكن حامدًا سحبني قال: «لا تقتربْ، ستبقى الصورةُ حاضرةً ما دمتَ حيًّا». لم يدرِ أني أريدُ تجميعَ الكلماتِ فلم أجدْ بدًّا من إمساكِها بقبضةِ يدي وأضعُها أمامي لأجدها مكورةً بمعنى «لا تكن مندفعًا ولا تكن متراخيًا.. كن كما تريد حين تفكرُ بما تريد». لم أستطع اللحاقَ بالكلماتِ الأخرى التي طارتْ وخرجت من نافذةِ المغتسَلِ. لكن

وجهه لم يزل مبتسمًا. على العكس من أخي ساجدٍ، الذي جمعناهُ أنا وأبي. كان مقطَّعًا في موتهِ أو مقتلهِ أو اغتيالهِ. جمعناهُ في كفنٍ صار مثل نضيدةِ ملابسَ لامرأةٍ بدويةٍ. لذا كانت صورته أكثرَ إيلامًا ولم يحضرْ في جلستي وأنا مسجّىً. في المشهدِ تلاحقني صورةُ أبي، رأيته قبل أن يُلفَّ بالكفنِ يفتحُ ذراعيه لي، فتتحركُ العصافيرُ، تطيرُ من تحتِ إبطيه. تتحركُ حول وجهه ولا تقترب مني، ثم تحطُّ على أغصان أشجارِ المغتسَلِ في أولِ المقبرةِ. يتحركُ الشوقُ في داخلي، أبصر الشوقَ الذي يرتفع منسوبه لأحضنه وأقبله. لم يكن ميّتًا في نظري، كنتُ أودُّ سؤالهُ عن معنى الحياةِ التي أمضاها وما أنجزَ ليكونَ ميتًا بأثرٍ من موتِ أخي الكبير. وأسألُه: «أنا سأكونُ قادمًا إليه بعد حينٍ وأنا خالٍ من نطفةِ القناعةِ التي تكنُ لتكونَ علقةً وظلت حنينًا يقاتلني ويمنحني خساراتِ الهدوءِ»..

وجدتني أنا أيضًا ميتًا، سمعتُ نفسي تخاطبني. مشهدٌ لم أتخيّله أو لم أكن مستعدًّا لأكون فيه، لكن السؤال الأكثر إلحاحًا في تلك اللحظة: لماذا يأتيني أبي الآن وجسده كما رأيتُه دخل غرفة أمي مع أخي ساجد؟.

خرجت صرخةٌ مني لا أعرف معناها. هل هي احتجاجٌ أم لحظةُ غضبٍ على فعلٍ لم أستطع إيجاد ردّةِ فعلٍ مناسبةٍ له. كانت صرخةَ مناداةٍ إلى أمي ألا تترك ابنها وحيدًا مسجّىً في غرفته التي لا يدخلها ماهر، ولم أشعر به يومًا قد طرق الباب وسأل عني. كل ما أعرفه أنه لا يأتي إلا بعد أن ينام الزقاق كله، وينهض مع صياح أوّل ديك في المنطقة. لا أنا أسأل عنه، ولا أمّي تسأل عنه، ولا هو يسأل عنّا نحن الاثنين. حضرت صورةُ الأب، وأُزيلت صورةُ ماهر. رحت أخاطب أبي: «صدقني يا أبي، صرت أتخيّل كلّ الأشياء معكوسة. أمي وأخي أتخيّلهما يكرهانني أو لا يهتمان بي. فهل هذا صحيح؟».

لم أجد صدى للسؤال، ولم يخرج المعنى في المشهد. طلبتُ من أبي أن يذهب إلى أمي ويسألها عن أسباب الابتعاد، أو يخبرها أن ابنها ليس بكافرٍ

ولا ناسكٍ ولا يجلس في كهفٍ أو غارٍ، أو يتأمّل كبوذيٍّ، أو يقيم قدّاسًا ليخرج بعنوانٍ ديني. بل هو يتأمّل الأسئلة ويريد الأجوبة. «أرجوك، أقنعها أني لست كما تقول وكما كان يردّد أخي ساجد، بل أنا متخمٌ بالروايات وأقوال الفقهاء وألاعيب الساسة والحكم، وهذا الموت الذي يسحقنا منذ أن كانت الحضارة هنا.. فهل هذا يعد كفرًا؟».

مضى وقتٌ طويلٌ وأنا بانتظارِ ما يقولُه أبي، لم يخرجْ لي صوتٌ، كي أكون على درايةٍ، أغمضتُ عيني لثوانٍ ليست قليلةً، أخذتُ فيها نفسًا عميقًا كمن يريدُ الغطسَ، لاسترجاعِ بعضِ الهمّة، لم أجدْ أبي. حضرتْ أشياءٌ غريبةٌ، كنتُ قد فرحتُ بأني مع أبي أمواتٌ. مباشرةً كنتُ بالقربِ من أبي، ولم أجدْ أخي ساجدًا في أيِّ مكانٍ من المشهدِ. لكنْ صورةُ أبي رأيتُها منطبعةً على السقفِ على شكلِ ظلٍّ، أبي بكاملِ هيئتِهِ التي تغيَّرتْ بعد الاحتلالِ، ليكونَ الذهابُ إلى الجامعِ وليس إلى المقهى ليلعبَ الدومينو مع أصدقائِهِ، كما كانَ يخبرُنا ويؤيِّدُهُ ساجدٌ بأنَّ تلكَ السنواتِ كانتْ عجافًا، لكنَّ اللهَ يقبلُ التوبةَ، وأبي تابَ، وكانَ ماهرٌ يقولُ إنَّها ليستْ توبةً بلِ الناسُ على دينِ ملوكِهِم.

كانَ أبي قبلَ مماتِهِ يوصينا أنا وماهرَ بالصلاةِ، لكنَّه لم يُوصِ ساجدًا بالتعقُّلِ والهدوءِ وعدمِ التعصُّبِ. كانَ شبهَ خائفٍ منه. هكذا تخيَّلتُ الموقفَ بعدَ أنْ زادَ ساجدٌ من تَصلُّبِهِ الدينيِّ. كانَ يقولُ لنا إنَّ العبادةَ واجبةٌ للخالقِ، لذا لم يكنْ يسمحُ لي بالسؤالِ، لأنَّه لا يعرفُ الإجابةَ كما لا يعرفُها الكثيرونَ من أمثالِهِ، وحتى ساجدٌ يُكرِّرُ القولَ ذاتهُ الذي سمعتُهُ وأنا في الابتدائيةِ.

مرةً قلتُ لساجدٍ: «لماذا حرَّم اللهُ على المسلمين الخمر، وحلله في الآخرة، وأراه في الديان الأخرى يشربونه مثلما ما يشربون العصائرَ؟» لم أتركْه يجيب قبل أنْ أردف بالسؤال الثاني: «لماذا كُتب على المرأة أنْ تكون كلَّها عورةً، وفي الأديانِ الأخرى تكون لها كلُّ الحقوق أمام الرجل؟» لم أسمعْ منه سوى إجابةٍ

واحدةٍ تجعل ماهرًا يضحك ويولي الأدبار: «محمدٌ بدينه وعيسى بدينه». وحينَ يجدني أبتسم أو غير مقتنعٍ بالجواب، أقول له: «أليس الله هو ذاتُه في كلِّ مكانٍ أم أنَّ الناسَ جعلوه حسب المكانِ والبيئة والعادات والتقاليدِ والفقهاء والكهنة؟» ينظر إلى وجه أبي ليستعين به في الموقف، فيجد نفسه في ردّة الفعل، ينظر لي بشزرٍ وريبةٍ: «أنتَ تخالف شرع الله، هذه الأسئلة لا يسألُها إلّا كافر أو ملحد». يستفزّ في داخلي معاني الأسئلة التي تتقافز في رأسي. أُقسم له أنَّ الأمر ليس كذلكَ، أحاول إقناعه بأنَّها مجرّد أسئلةٍ: «أنا أسأل لأعرف اللهَ الحقيقيّ وليس الله الذي تصنعه الأقوال». يستفزُّ بقوةٍ ويقف منتفضًا دون أنْ يراعي شيئًا لأبي ويردُّ: «أنتَ حتى لا تحترم أبي الذي هو الذي علَّمنا واجب طاعة اللهِ». كان وجهه محمرًّا. فيرمي الكلام الذي يجعلني أقترب منه قليلًا، وأبتعد لأنَّها لا تشفي غليل الأسئلة: «إيَّاك أنْ تسأل، فكلُّ شيءٍ بأمر الله، ما نحن إلّا عبيده، نسير برحمته ورزقه». ثمّ وهو يبتعد عن المكان يقول: «إنْ عدت إلى الأسئلة يعني هذا سيكون فراقًا بيني وبينك». لكنَّهُ خرج، وأنا أحاول لمدّة أسبوعٍ أنْ أُمنحه احترامي الكبير، وأنْ أقول له إنَّ له رأيًا أحترمه، لكنْ عليه ألّا يتهمّ بالآخرين، مثلما يفعل ماهرٌ الذي إنْ وجد مخالفًا له، قال عنه إنَّه متعصبٌ ومحتكرٌ ومتاجرٌ بالدينِ. أسبوعٌ واحدٌ عاد مقتولًا بصفة شهيدٍ.

تتقلَّب في داخلي المواجِع وأنا أتقلَّب معها. أمضيتُ بعد وفاة أبي أسبوعًا أسير في الشوارع وحيدًا، أُكلِّم نفسي ولا أُكلِّم أحدًا، ولا أردُّ على السَّلام. حتى حامد لم أعد أُصاحبه، ولا أُخبره إلى أين سأذهب. المشهد يتقلَّب بي كأني في صحراء قاحلة، لا بعيرَ ولا ناقةَ ولا جملَ، ولا حيوانَ، ولا شكلَ إنسان. كلُّ شيء كنتُ أراه يتحوَّل إلى سراب وإلى فراغ. حتى السماء لم أكن أنظر إليها على أنها من تستقبل للأدعية، التي تُعيدني إلى رُشدي، لأن لا رشدَ لي، والأسئلة بدأت تتكاثَر مثل شجرة لبلاب. لا أتذكَّر من الوقت إن كان صيفًا أم شتاء. الحال يتقلَّب

بمشاهد متناقِضة كلما خلوتُ إلى نفسي لأجدَها في البيت بلا حِراك، وأرى أخي ماهر كيف يُفعِّل اللامبالاة مع نفسه. قال لي: «هل تعترِض على أمر الله؟ أليس هذا الكلام الذي تقتنع به كما أقنعكَ ساجد؟»

لم أكن أُكلِّمه منذ يومها، حيث اتَّسعت الهوَّة بيننا، نتبادَل التحيَّات بالحركات ورفع الأيدي أو بالتنهيدة التي لا أحد يسمع ما يقولُه الآخر. لذا تصوَّرت أني أعيش في الصحراء، حتى صورة أمي أبعدتُها كي أتمكَّن من الإمساك برَسَن القيادة، كي أكون على قَدر عالٍ من التفكير إلى أي اتجاه أسير. فأنا في المنطقة الوسطى التي لا يمكن القبول بها. قصة بدأت وأريدها أن تنتهي. شُعور ميت نحو اللامبالاة أو شُعور متناقِض نحو الاعتراف بالخارق. لكنِّي أنا الآن مَسجَّى في المشهد الأخير. تُحيطني الغرفة مثل قبر لم يُغلق، لا برد ولا حر، شُعور بموت الحياة مثلما هو شعور بأهميَّة الحياة. أنظر بعينين قويَّتين وأسمع بأُذنين تعرفان كيف تلتقطان الأصوات وتُميِّزانها من جذور نَغَماتها. يَنبعث الحَدْس إلى حيث أمدُّ الوقت.

لذا أعجبني أن أُشاهِد كيف تُنصب خيمة عزاء لموتي، لا أحد يقف عند باب الخيمة ولا أحد يأتي للتعزية. فَراغ بريح صَرصر. وأبي ببياض وجهه غاب عني هو الآخر، فيما ينظر ساجد من بعيد. أُغمض عينيَّ لعلِّي أجدُه أمامي. أعجبتني الفكرة. أرسُم مشاهد من صُنع لحظة الطيش، لعلِّي أرى تموز كيف كان في العالم السُّفلي.. عالم لم يُدركْه الأنبياء إلّا في المُدوَّنات، حيث حبيبته إلهة الحب التي أعلنت توبتَها وهي تُمارِس فعل الرذيلة تحت شعار الحب. تَستغِل الطاعة للنفي أو القتل. يااااه. لماذا نستمر بالسؤال منذ الأسطورة، في البحث عن موازين للإجابة، وصِرنا نبحث عنها في كتابات أخرى مثل سؤال النار، الذي أردنا فيه أن نبدأ بالبحث عن إجابة، وإن كانت على شكل رواية أو ابتزاز للسؤال ذاته؟

وما بين تموز وعشتار، ألف عشتار وملايين تموز التي تُرسَل إلى العالم السفلي، لنبقى نجلد أنفسنا بلا رحمة. المشهد يتوقف على صفعة تموز؛ يده مشعرة، وكفُّه كبيرة بحجم النافذة المغلَّفة، ويُسمَع الصوت يخرج كأنين من فوهة مصنوعةٍ من الألمنيوم على شكل حلزوني: «لماذا تسأل وتقارن، وتوقظني من نومتي الأبدية أيها المجنون؟» يرتج الرنين بحركة الحلزون الملتوي على شكل ظل على الجدار، ثم يرن الصوت من جديد: «لماذا تبحثون عن إجابات لم نصلها نحن، حيث كنا أكثر عقلانية منكم وأكثر هدوءًا، لأن لا منصّات لدينا ولا منابر، ولا جلد، ولا إعلام؟

تتوقّف الأشياء جميعها، حتى الريح، وتلك الذؤاباتُ الصغيرةُ التي تلتفُّ على شعارِ الضوءِ. «تتخيل أنك سليلُ الأسئلة الكبرى، لذا توزع المعاني على الكتابات، وتكون أشبه بمن يعيد الكرة مرّتين في ذات الاتجاهِ. ولأنك لم تجد شيئاً، فلن تفيدك الإعادةُ، وإن تغيرت طرق السؤالِ».

جفلتُ حقيقةً من مشهدِ السؤالِ، وليس من مشهدِ الصفعةِ. فالمُسجَّى كما الميّتُ لا يشعرُ بألمِ الصفعةِ، الصفعةِ التي أحسستُ بها من الكلماتِ التي كانت تؤذيني من أفواهِ الآخرين. لكنَّ الذي أفزعني هو الحوار، وتكرار الأمر معي، حيث مررتُ بذات الأسئلةِ في (سؤالِ النارِ) حيث البحث عن إجاباتٍ. فكيف حضرت كلُّ الأشياءِ دون درايةٍ أو تذكيرٍ أو انتباهٍ؟

فجأةً حضر جزءٌ من أخي ساجد: فمه، وأرنبةٌ واحدةٌ من أنفه، وأذنٌ واحدةٌ، نصفُ وجهه الأيسر، ومنها وجنتُه وذقنُه. ظهرت على شكلِ أجزاءٍ، وبدأت تلتصقُ ليتوضَّحَ وجهُه. أصابني الفزعُ. توقفتُ عن التفكيرِ لبرهةٍ، محاولًا الهربَ من المشهدِ المخيفِ، بسبب الحوارِ. احتجتُ إلى شيءٍ أرتشفُه ولو قليلًا من طعمِ الهدوءِ والتقاطِ أنفاسي، لأريحَ الجسدَ المُسجَّى. لكن الغمَّ لاحقني، وخالجتني حالةٌ غريبةٌ، بين أن أتقيّأ وبين أن أبكي. ولأني بلا شعورٍ، أو هكذا جعلتُ نفسي،

لم أذهب إلى أيِّ اتجاهٍ، إلّا المكوثَ في برودتي وتجمُّدي واستقرارِ جسدي، لعلّي أكون في الهدوءِ الذي أريدُه. بحثتُ في السقفِ عن أبي ليساعدني ولو بربعِ وجهٍ، ويخبرني كأبٍ مسؤولٍ عنّي كيف أتصرف، أو دخولِ أمّي والدخول في مشهدِ السقفِ ولو بحنجرتِها. تمنيتُ في تلك اللحظةِ أن أسمعَ صوتَها ولو كان تكبيرًا.

رأيتُ ظلَّها ينصرف من الغرفة كلّها، باتجاهِ الباب. ربما هي نائمةٌ، ربما هو الفجر وستجلس لتصلّي، ربما هي الظهيرة، وانتهت من الطبخِ وتتهيّأ للصلاة. لم أسمع شيئًا يأتي من خلفِ رأسي. سمعتُ لأوّل مرّةٍ صوتَ نباحِ كلبٍ يأتي من نهايةِ الزقاقِ، استمرَّ لثوانٍ معدودات، لم يمنحني الوقتَ لأعرف لماذا ينبحُ، ومن أفزعه، وهل كان يركضُ أو متوقّفًا عند إحدى منعطفاتِ الزقاقِ. وربما هو كلبُ جيراننا الجروُ الصغيرُ الذي يخرجُه صاحبُه ليمسكه من حبلٍ مشدودٍ في طوقِ رقبتِه، للتعويض عن حرمانِ الحنانِ لديه وغيابِ الصحةِ التي لا يمنحها له سوى جروه الصغيرُ الأبيضُ، بعد رحيل أهله بين ميّت أو مغدور.

توقّفت الأصواتُ كلها. خِلتني انقطعتُ عن الكلامِ، وربما هو انقطاعُ الهدوءِ الذي يسبقُ عاصفةَ المكوثِ. لذا وجدتني أتحدثُ في مناجاةٍ عجيبةٍ: أين أنتِ يا أمي الغالية؟ تعالي، أنا ابنكِ المكلومُ المُسجَّى. تعالي وكبّري وادعي لي عند الربِّ العظيمِ. استغفري لكم جميعاً لأنكم تركتموني نَهْبًا للوساوسِ التي لا أحد يعرفها، وكلٌّ يراني بما يريدُ ضدَّه. تعالي ومارسي دورَ الأمومةِ كما كنتِ قبل إعلانِ الانشطارِ الفكريِّ في العائلةِ، مثل انشطارِ الزمنِ بين الضوءِ والظلِّ في العقولِ التي تشبهني.

كانت الكلماتُ تخرجُ ولا تصلُ إلى السقفِ، ولا شيءَ يأتيني من السقفِ أو يشطرُ السقفَ وينزلُ. لا وحيَ الإجابةِ حضر، ولا شيطانُ الأسئلةِ فارقَ المكانَ. سمعتُ صوتَ أخي ماهر كأنه يريدُ هزَّ جذعي ليخاطبني بشيءٍ من الجدلِ، من

أني لم أعرف الطريقَ، فكلُّ ما كنا نسمعُه مجردُ هلوسةِ تاريخٍ، وصراعِ الحياةِ والسيطرةِ على العقولِ. قلتُ له: «لا كلامَ معك. فأنتَ ابن البيئةِ المتقلبةِ التي لا تنتجُ سوى هذا الانقسامِ».

أغمضتُ عيني وسمعتُ صوتَ أخي ساجد، كأنه يريدُ العتابَ، وربما يريدُ تقديمَ درسٍ بالتصلُّبِ في ما يؤمنُ به، ولا يقبلُ النقاشَ. رأيتُه يأتي من جهةٍ كتبَ عليها اليومُ الموعودُ. قلتُ له: «تكلّم. أنا ميتٌ مثلك، أو تخيل أنتَ معي أني ميتٌ، وأنتَ تسمعني ماذا أقولُ وماذا أبغي؟ قُلْ ما تريده، ولكن ليس بطريقةِ من لا يقبلُ الرأيَ الآخرَ كما كنتَ». لم أسمع منه شيئًا. كلّ ما حدث أني رأيتُ أبي، يبتسمُ بوجهٍ حزينٍ، وجهٍ ربما ملأه الأولادُ بما لا يريدُ من الحياةِ. رأيتُ بعدها حافّةَ فمه تتحركُ لكن بلا صوتٍ. ربما كانت همهماتٍ من لا يريدُ الكلامَ ويكتفي بالإشارة. حركتُ فمي كلّه، ليعلو صوتي ويسمعه من المسافة البعيدة بيننا: « تكلّم معي بأيّ شيءٍ، شريطةً ألّا تعيدَ كلامَ أخي ساجد، فقد كفّى وكفى ووفّى، ولم يعد في جعبتهِ شيئًا جديدًا. ولا تقل لي كلامَ أخي ماهر، فقد كفّى لنفسه وابتعد عن النصيحةِ. لذا عليك ألا تتركني للحزنِ والانشطارِ كأنه الغذاءُ الذي يشبعني.

لكنَّ الذي تغيَّر في المشَّهد هو حضور أخي ساجد بكامل جسده. كان حضورًا صامتًا، كمن يتابع مشهدًا أو منظرًا أو حالةً فيها غرائبيَّة. لم أكن أريد أن أكون حادًّا حتَّى لا يغضب منِّي، رغم خوفي من التَّقريع الَّذي ربَّما يكون النَّتيجة الحتميَّة في نهاية الأمر، لذا كنتُ أَحبِس أنفاسي ما دام الصَّمت قد حلَّ بيننا. لا شيء يتحرَّك من بقايا وجهه، وليس من عادته أن يكون كذلك. فهو الأخ الأكبر الَّذي يأخذ دومًا دور النَّاصح والمؤمن والمؤتمن على تربية الإخوة الأصغر منه. وهو ما كان يُفرح أبي، والحقيقة أنّي كنت أميل له لصدقه وبعض ثقافته الَّتي تحوَّلت بمرور الزَّمن إلى تعصُّبٍ غير مبرَّرٍ وصار يرى الآخرين وكأنَّهم

أعداء السَّماء. تحوَّل إلى مُتسلِّطٍ لا يقبل النِّقاش، لكنَّه رغم ذلك حنون. كنت أتابع حضوره بشيءٍ من الفرح والرِّيبة. شعرتُ به يضحك، تقاسيم نصف وجهه مبتسمة لي كأنَّها مرحِّبة. ضحكت في سرِّي: كيف عرف أنِّي أضحك؟ وكيف يعرف هو أنِّي ضحكت من موقف حضوره، وأنا بلا شعور أو إحساس؟ حقًّا أنا بلا شعور؟ ربَّما أنا في اليوم الأوَّل من الموت، وأخالف أن يقول مع نفسه وروحه وإدراكه الَّذي لا أعرف كيف يكون عليه عالم الأموات. إنَّ أخي الذي يكبرني بخمس سنواتٍ، المتزوِّج الَّذي ترك زوجةً وابنةً وابنًا، يضحك على شكلي المُشوَّه. صرت أكلمه. اقتربت تفاصيله منِّي وتوضَّحت تضاريس وجهه: «عذرًا منك أخي الكبير، لا أريد التَّقريع والنَّصائح أن تلاحقني في مثل هذه الحالة، أنت تستخدم التَّقريع وماهرٌ في ذلك، وأنا في مرحلة الاستكشاف. لذا سأنتظر من يأتي ليُحاسبني وليس أنت». ضحكت مرَّةً أخرى وأنا أسمع صدى الكلمات يرنُّ في رأسي. لا شيء أمامي سوى السَّقف، وربَّما لم يأتِ اللَّيل بعد. أشعر أنَّي وحيدٌ بلا حلول، ربَّما أراني شارد الذِّهن، أتصنَّع ابتساماتٍ كاذبةً دونَ شعور. ربَّما أحاول الإمساك بالعواطف لأتمكّن من قرص نفسي، لكن يديّ بلا حراك، وهما ممدَّدتان إلى جانبي. تذكَّرت حامد، صاحبي، كم تمنَّيت لو أنَّه افتقدني وتفقَّدني الآن. المشهد الذي أريده أن يطرق الباب وينادي: «ها خالة أم ساجد، أني حامد». صوت خطواته داخل البيت يُسمع على وقعٍ بطيء، يردُّ عليها صوتٌ من داخل الغرفة الأخرى: «صاحبك قافل علي الباب». ينتقل المشهد إلى اللسان اليابس الخشبي الثَّقيل داخل فمٍ عطشان لم تنزل عليه قطرة ماء، منذ أن صار جسده مُسجًّى. وجهٌ أصفر وقد انخسفت وجنتاه وغارت عيناه وغاب جحوظهما. يُسمع صوتٌ فيه رنين الخائفين من شيء مجهول: «أنا حامد، لماذا هذا الغياب وأنت في وحدتك بلا سبيل؟». الصوت فيه نحيبٌ يأخذ من النَّظرات التي تخترق الجدران ويتَّجه إلى البحث عن تنفُّس يريح الواقع ويمكنه أن يردَّ على النِّداء،

لكنَّ الحنجرة بلا صوت. الرَّجاء أن يحمل الصوت أيَّة نغمة، حتَّى لو كانت يأسًا أو موتًا أو رغبة بالبكاء، كما هي نغمة حامد الذي راح يكرِّر النِّداء: «يا صديقي العزيز، لا أحد يخسر سواك، حتَّى خسارتك لأخيك ماهر الذي لم يعد واحدًا من البيت، تمرّد هو الآخر، لكنَّه تمرّد على الواقع ليعيش في الواقع». كان الصوت يخرج من حنجرة مذيعٍ في برامج إذاعيَّة، في لحظة صفاءٍ بوجه المستمعين. رنَّة الصوت تتغيَّر فيتحول الإصغاء إلى غربةٍ أخرى وتيه، وسؤالٍ يتردَّد في المحاجر: «من الذي ينادي؟».

أغمضُ عيني لطردِ التيهِ، وتضيعُ وقعُ خطواتِ حامدٍ ليحضرَ أبي، وأنا أتمعَّنُ باختلافِ أصواتنا. يهبطُ أبي من جديدٍ مع طيرانِ السؤالِ من رأسي: «أنا وأخواي من بطنٍ واحدةً وظهرٍ واحدٍ، فلمَ أصواتُنا تختلفُ بنغماتها؟ وأفكارُنا تتصارعُ مثل خيولٍ لم تُروَّض؟» يصرخُ أبي بغضبٍ لم أحسب له حسابًا في التأويلِ الآخر: «لعنة الله على الشيطانِ يا ابنَ الكلب.. في قولِك شكٌّ وظنٌّ؟» بالتأكيد لا أقصدُ الأمرَ الذي ذهبَ إليه ذهنُ أبي. وأعترفُ أن صوتَ ساجدٍ أكثرُ نبعًا وموسيقى من صوتِ ماهرٍ الاتكاليِّ القبيح، وهو يلثغُ الراءَ ويجعلُها غينًا.

تتصارعُ الصورُ والمشاهدُ وأنا لم أولِّ على حالي، أقلبُ أوجهَ الحقيقةِ التي لا تسورُّها سوى قناعاتي التي لا أفرغُ منها. كنتُ أستقبلُ الكثيرَ من الآراء في مراحلِ التفكير. لا أغافلُ رأيًا حتَّى لو كان من طفلٍ أراه يتقلبُ على جمرِ الحالِ الذي صارَ فيه الإنسانُ كثيرَ الشكوى. يمرُّ رجلٌ عجوزٌ يحملُ عدته في بَزِّ الزهد. يختصرُ المسافةَ بيني وبين السقف. يلمُّ بأطرافِ أصابعه ما يجعله أكثرَ موسيقى في القول. يرمي كلامه الذي يخرجه من كيسِ الجنفاص الذي يتدلى على بطنهِ الكبيرة متحزِّمًا بحبلٍ ربطه حولَ رقبته وكتفه الأيمن: «يا ولدي، قبلك من سأل ولم يحصل على جواب. أنا جوابُ الآفاق.. ومن دهرٍ أسألُ السؤال: لماذا يجوعُ بعضُنا ونحن خلقٌ واحد؟ ولمَ أولَّ أسألُ وكلما مررتُ بشخصٍ مثلك في هذا

الكون، أحملُ منهُ بعضًا من خصلةِ شعرهِ». يا إلهي.. المشهد يستعر، يمتدُّ المقصُّ طائرًا في الفراغ.. يقتربُ من الرأس، تتحركُ العينان من مجريهما. يتابعان حركةَ المقصِّ الذي يبدأُ بقصِّ خصلةٍ من أعلى الهامة. يعودُ المقصُّ إلى كيسِ الجنفاص الذي يفتحُ فمهُ ويرمي المقصَ خصلةَ الشعر ويختفي المشهدُ كله.

أردتُ أن أصرخَ: أحرِّرْ يدي.. ساقي أصابعَ قدمي. لحظةُ غضبٍ جديدةٍ ولكن بلا معنى للحراك. أردتُ الإمساكَ بتلابيبِ ردةِ الفعل، لأبيِّنَ أن الأمرَ ليس كما قالَ هذا العجوزُ أو كما يريدُ ساجدٌ أو ما يتمناه أبي. وجدتني أُردُّ بلا صدى: «الأمر ليسَ كما تقولُ، ولا علاقةَ له بالإيمان، بل بفهمنا للحياة. انتظروني جميعًا قبل أن نلتقي في يومِ الموعود». تغيبُ كلُّ التفاصيل.. تختفي حتى الغرفة.. الغرفة التي تحوَّلت إلى ظلامٍ دامس. غرفةٌ خرساءُ ليس فيها سوى هسيسِ نارٍ ورذاذِ ماء، لا أدري من أين تأتيني بقايا ارتطامِهما.

المشهد الخامس

حركةٌ غيرُ طبيعيةٍ في الخارج، تأخذُ الأصواتُ مجالها لقطعِ مسافاتٍ واسعة، في نفس اللحظة تخفقُ راياتٌ وأعلامٌ وصورٌ وشعاراتٌ تملأ مساحةَ الرؤية. مثلما تأخذُ حركةُ الأقدامِ موقعَها في المشهدِ لرجالِ دينٍ وشيوخِ عشائرَ وشبابٍ وعسكرٍ بقبعاتٍ (خاكيةٍ)، وشبابٍ يرتدون ملابسَ لجهاتٍ مسلحة. الأصواتُ والأقدامُ والراياتُ تجوبُ الشارعَ الرئيسَ للمدينة، كلُّ شيءٍ يطرقُ أبوابَ القلوبِ حيث الثأرُ مما يجري ويعبرون منها على المواقفِ والاستعدادِ للتضحية. الأصواتُ أكثرُ حركةً في انتقالها بين المسافات، تصلُ إلى فمِ الزقاقِ المتصلِ بالشارعِ العام، تدخلُ إلى الشارعِ الفرعيِّ الملتوي الذي يمشي مع حركةِ أبنيةِ الزقاقِ في بيوتهِ القديمة، فتتحولُ الأصواتُ إلى حزمةٍ متحدةٍ من اختلافِ الترددات، فيكونُ الصدى مثلَ نغمٍ مستعارٍ من الأفواه. تدخلُ من الأبوابِ مثلما تدخلُ من النوافذ، فيسمعُها سكانُ البيوت.

الأصواتُ تصلُ إلى الغرفةِ المغلقة. تدخلُ من اتجاهِ النافذةِ ومن اتجاهِ البابِ بعد أن تدورَ في الباحة، أفزُّ من نومتي التي لم تكن سوى ضجيجٍ آخرَ مع الصراعِ الداخلي. أردتُ معرفةَ أصولِ الأصوات، عرفتُ أنها هتافاتٌ ضدَّ أمريكا وإسرائيل وتأييدًا لغزة. يااااه.. لقد نسيتُ التاريخَ وما يحصل. فالدائرةُ التي أحاطتني هي التي تسببت لي بافتراقِ التفكير، ربما أعيشُ زمنَ مقتلٍ أو مصرعٍ أو حتى استشهادِ أخي ساجد. أو حتى موتِ أبي كمدًا. أخي مات بلا ذنبٍ، لذا اعتبروه شهيدًا. وأعدُّ أبي شهيدًا لأنه مات بلا ذنبٍ سوى حسرته على ابنه. فالشهادةُ

بدون قتالٍ تشمل الجميع، والحربُ أولى العلاماتِ الدالة. آآآه يا جنوني وجنونِ تفكيري.

الهاتفُ على السرير، وأصواتُ التظاهراتِ تبتعدُ عن الزقاق، كأن هناكَ من يفسحُ لها المجالَ لتستمرَّ في الترديدِ وأخذِ الطرقِ معها، تريدُ إيصالَ الهتافاتِ إلى فلسطين لعلَّ العدوَّ يرعوي ويوقف الحرب. كنتُ أخمِّنُ أن هذه الهتافاتِ هي إثباتُ مواقفَ أكثرَ منها إعلانُ حربٍ أو أحداثُ لعبةٍ مستمرةٍ. (الموتُ لأمريكا. الموتُ لإسرائيل). اقتربتُ من النافذةِ المسدلة. كانت هناك بقايا هتافاتٍ تُردِّدُ أسماءَ زعماءَ يرفعون السلاحَ في الساحات. ضحكتُ.. مسحتُ ذقني وأنا أتخيَّلُ ملاحقتي للهتافاتِ مثلما أتخيَّلُ الصورَ المرفوعةَ لهذه الزعامات. قلتُ كلامًا هامسًا لا أريدُ له الخروجَ من النافذة: «نقاتلُ على أكثرَ من جبهةٍ، والطريقُ إلى تحريرِ فلسطين يبدأ بالهتافاتِ، والأطفالُ تموتُ هناك تحتَ الأنقاض». شعرتُ بيدٍ تمسكني وتقيِّدني، وتسحبني سحبًا إلى جهةٍ أخرى. أصابتني رجفةُ خوفٍ كأني ذاهبٌ إلى جلسةِ تحقيقٍ والاعترافِ بتهمةِ المعاداة. نفضتُ يدي وسارعتُ إلى جهازِ الهاتفِ لأطلعَ على بعضِ البرامجِ وأعرفَ أن الحربَ مستعرةٌ هناك، بل طاحنة. تذكرتُ التفجيراتِ في العراقِ يوم كنا نموتُ ونحن نمشي وتتحوّل الرعية إلى استقبالِ الموت. قال لي صدىً بعيدٌ: «الموت واحدٌ والقاتلُ واحد». صرختُ به: «يومَ قلنا إن الاحتلالَ هو المسؤول، اتهمونا بالانتماءِ إلى النظامِ السابق، والآن هم يصدِّرون الكلام».

عادَ الصمتُ يلفُّ الزقاقَ ويلفُّ مكاني. تمددتُ على الأرض، ووجهي إلى السقف، فهبطَ السؤالُ، سؤالٌ أحمرُ اللون، له ذوائبٌ عديدةٌ من الانتهاكاتِ الفكرية. سمعتُ نغمته: «ألا تتعاطفُ مع الحال؟» اهتزَّ جسدي، كان صوتُ أخي ساجد. «ألا تعترفُ بالجهادِ في سبيل الله؟» لم أملكِ الكيفيةَ على الردِّ، وفي فمي الكثيرُ من الإجابات. قلتُ في داخلي دون أن يسمعني أحدٌ: «الجهات تحتاجُ

رجالًا غيرَ فاسدين يقودونها ونحن نعيش...». قطعتُ الكلام حتى أصابَ بالذعرِ من جديدٍ، وتأتي يدان قويتان لتقيّداني من جديد، لكن صوتَ ساجد يأتي من بعيدٍ: «من لا يجاهدُ في سبيلِ فلسطينَ لا جنةَ له». أضحكُ ليس على ساجدٍ وكلامه، بل على حالي الخائفِ من الردِّ، ولا أجد سؤالًا لأضيفه: «لو كنت حيًّا، ولو كان هناكَ طريقٌ إلى القدسِ لما تأخرتُ». رفعتُ يدي وطردتُ المشهدَ الذي لا أجدُ فيه الجوابَ الشافيَ أو الردَّ العقلاني.

غيرتُ المشهدَ. يقفُ ماهرٌ ويجلسُ في الزاويةِ البعيدة، يصغي إلى الحوار. كان صامتًا ولا يُحرِّك ساكنًا. وعينه كانت على صورةٍ معلقةٍ في أعلى سُلَّمِ البيت حيث غرفته، تمثلُ ناطحاتِ السحابِ لها لو زُرقٍ زجاجيٌّ يلتقطُ ألوانَ الأرضِ والنافوراتِ ورذاذَ الماءِ ولونَ الخضرةِ والأشجارِ الوارفةِ العالية. كان كلامُ ساجدٍ لا يدخلُ أذنَ ماهر. حتى صرخَ به: «ألا تؤمنُ بما يحدث؟» يزفرُ ماهرٌ وينهضُ بشكلٍ استفزازيٍّ أمامَ ساجد. والأمُّ تخفي رأسها خلفَ بابِ غرفتها: «هل الحربُ على الجميع؟ هل على الجميع أن يقاتلوا أم هناكَ فئةٌ؟» يجيبُ ساجد: «نعم، هناكَ فئةٌ من يجدُ في نفسه المقدرةَ على القتال». يتحيّر ماهرٌ ويتقرّب من السلَّم، يضع قدمه على أوّلِ درجةٍ من السلم: «أنا لستُ من الذين يقاتلونَ في سبيلِ الآخر. لأني لا أجد من يقاتل في سبيلي». يلتفت بقوّةٍ إلى ساجدٍ ويضع يده على محجّرِ السلَّم الطابوقي: «في فلسطينَ نفسها ونحن نشاهدُ الأخبار، هناكَ من لا يقاتل وهو نازح ليحافظَ على عائلته، وأنا مثلهم». يضرب ساجدٌ يدًا بيدٍ ويتمتم بكلماتٍ لم تعجبْ ماهر: «هذا فعل الكفّار، لقد غيّروا المعادلة».

يتغيّر المشهد.. يدخل حامد إلى الغرفة، يفتح جهاز الهاتف النقّال، ويضع الشاشة المضيئة أمام الجدار، لتتحوّل إلى هناك بشكلٍ أكبر. تتحرّك الصور وتستقر على الأخبار التي تبثّها الفضائيات: قصفٌ عنيفٌ على المخيمات والمدارس والمستشفيات في غزة، بيت حانون، مخيم جباليا، دير البلح، رفح والنصيرات.

يظهر الموت زاحفًا في كلّ الاتجاهات، كما تظهر النساء وهنّ يحملن الأطفال الجرحى، واللواتي يضربن خدودهن لفقدهن فلذات أكبادهن أو أزواجهن. يظهر طفلٌ وحيدٌ يشبه طفلًا من عائلةٍ تعمل في صناعة الطابوق، وجهه محترق وملابسه ممزّقة. المراسل يقول إنه الناجي الوحيد من العائلة.

المشاهد تزيد الناظر حقدًا على الحياة وتثير التفكير في جدوى استمرارها. يقول حامد: «إنها مجرّد أرقام للزمن، وزيادة في سمك حبل الأفكار المرتطمة بالتردّد». ثم يصرخ وهو يشير إلى الصورة: «انظر!» ويكبر: «الله أكبر!» كانت صورة أبٍ يحمل طفلًا مقطوع الرأس، يسرع باتجاه إحدى المستشفيات، كأنه يريد إعادة الرأس إلى الرقبة. الطفل نائم، لا يبدي حراكًا، وقدماه تهتزان مع اهتزاز الأب أثناء الهرولة. المصابون نيامٌ على الأرض، بينما لفّ الموتى بالكفن الأبيض. الكفن وحده الأبيض في فلسطين.

أهربُ إلى داخلي، وأُبعِدُ كلَّ الأشياء. أكتمُ صرخةً كبيرة، وعيني على السقف، لعلَّ شيئًا يهبط لي ويُحدِّثني، يُناقشني، ويجيب على سؤالٍ اختفى مع اختفاء المشهد. ضممتُ رأسي في صدري، جلست، ألمُّ ركبتيَّ، تحتويان رأسي وصدري. داهمتني صورةُ الطفل الذي أخرجه أبوه من تحت أنقاض وركام تفجيرٍ انتحاريٍّ بسيارةٍ مفخخة. الانفجار كان عنيفًا استهدف مطعمًا على أحد الطرق الخارجية، تحترقُ سياراتٌ كانت متوقّفةً أمام ساحة المطعم، وكان هناك أطفالٌ يلعبون في الساحة. الآباء يحملون الأطفال بين أيديهم وألسنتهم امتلأت كلامًا خرج من قلوبٍ كان ردُّ فعلها الحقدَ والكفرَ أيضًا. فيما كان الناس يحملون جراحهم إلى سيارات الإسعاف. أبٌ وحيدٌ حمل ابنه اليتيم وهو يصرخ: «اللعنة عليكم.. أتقتلون الأطفال باسم الدين!» يردُّ عليه رجلٌ يقف على مسافة، وهو يمسح بقايا دمٍ نازفٍ من ساقه: «الكل يشاركون في قتلنا، وكلهم باسم الدين». لكن شابًا من ذوي الوجوه التي تحدّد مسارات اللحى أراد أن يخفف من الصدمة، فقال: «هذا

أمرُ الله وقضاؤه». ليردَّ عليه شابٌّ تمزَّقت ملابسه بشيءٍ من العنف: «إنه أمرُ الله، لكنه نُفِّذَ بيدِ من استغلَّ السماء، فلا تكن متعصبًا مثلهم». صاح رجلٌ من بعيد: «اتقوا الله جميعًا وساعدوا في إسعاف الجرحى. وانتبهوا، ربما يكون هناك انفجارٌ آخر!»

كنتُ أريد أن أصرخ. لكن رجلًا لا أعرف من أين خرج، ليكون لصيقًا بي، وضع يده على فمي، خنقَ الكلام: «أعرفُ ماذا تريدُ أن تقول». كنت بالكاد أتنفّس، ووجدتُ صعوبةً في القدرة على تحريك عيني، فماتت الكلمات تحت صوت الانفجار الذي لم يزل يتردّد في الذاكرة، كلّما دهمني من جديد. كان قلبي صغيرًا، وحين ابتعدنا عن المطعم راكبين سيارتنا، صار النقاش بين الركاب أكثر من احتدامًا من صوت الانفجار نفسه، وقد نزلت قصص التاريخ منذ آدم حتى إعدام صدام حسين. كنتُ صامتًا حدَّ البلاهة. ويد الرجل الذي لا أعرفه، كلما أردت فتح فمي، تخترق كل الأشياء بسرعة الضوء لتخنق فمي. كان الركاب الذين لم يُصب أحد منهم أو يُقتل أحد من أهلهم وأقاربهم، يفركون أصابع الكلام، فينزل منها الوجع الذي يشبه أشواكًا تبزُّ رأسي.

في تلكَ السّاعة، شغلتني فكرة المقارنات. فكرةُ أنْ أُلقيَ الحُجّةَ على الأفكارِ، وبينَ ألّا أكونَ وسطًا بينَ حالتين وأحتاج إلى دليلٍ. جلستُ على حافّة السريرِ، أستمع إلى عديدِ الأصواتِ في داخلي. أصواتٌ تركضُ في اتجاهاتٍ متناقضةٍ. يبرزُ صوتُ رجلٍ يرتدي عباءةً صوفيةً، يستمعُ إلينا أنا وحامدٌ وبعضُ الأصدقاءِ، وقد أخذتنا الحميةُ في النقاشاتِ بعدَ أنْ تخرجنا لتونا من الجامعةِ. كنا نلتقي للبحثِ عن عملٍ، أو لسماعِ أيةِ وزارةٍ تقبلُ بالتعيينِ ولها درجاتٌ شاغرةٌ. كان الحديثُ عن الدينِ والعلاقةِ مع اللهِ. كنا متناقضينَ في الفهمِ، لكنَّ الرجلَ، وهو يعدلُ مكانَ عقالهِ فوقَ اليشماغِ بشبكتِهِ السوداءِ، قال لنا مستأذنًا: «هل تسمحونَ لي بالكلامِ؟» توقفنا جميعًا

وألقينا نظرةً على الرجلِ بوجههِ القرويِّ ويدهِ الكبيرةِ وملابسهِ النظيفةِ، فأشارتْ له رؤوسُنا بالموافقةِ.

قال بلهجةٍ هادئةٍ جدًا: «عمي، اسمعوني. هذا ليسَ اللهَ الذي تتحدثونَ عنه. اللهُ لا يرتبطُ بالتعيينِ، ولا يحاكمُ الناسَ على انتماءاتِهم». فغرنا أفواهَنا كما نفغرُها من حلاوةِ القولِ وسلاسةِ المفردةِ، وحركةِ شاربهِ المشذبِ بروحِ الريفِ ومكانتهِ. قال: «اللهُ يسامحُ عن كلِّ شيءٍ إلا الإشراكَ بهِ، وما دمتم غيرَ مشركينَ فهو يسامحُكم». التقطنا الأنفاسَ وبقيتْ رؤوسُنا صامتةً تنظرُ إليهِ كمن يقدمُ لنا محاضرةً عن الإيمانِ.

قال: «لكنَّ اللهَ يحاسبُكم على صلةِ الرحمِ، وأداءِ الأمانةِ، والرحمةِ بالوالدينِ، وحفظِ الجارِ». كانت تلكَ الكلماتُ أولى علاماتِ توهجِ الأسئلةِ. الرجلُ، الذي كشفَ عن أنه خريجُ جامعةٍ بلباسٍ قرويٍّ، لم يزلْ يحتفظُ بقرويتِهِ التي تبعدُهُ عن التدينِ القلقِ. اختصرَ الكثيرَ من التناقضاتِ ليكونَ في المنطقةِ الوسطى. لكنَّ سؤالًا آخرَ برزَ: «كيفَ الوصولُ إلى تلكَ المنطقةِ الوسطى بلا قناعاتٍ؟»

لم أجد نفسي إلّا وقد شغلتني شاشة الهاتف النقّال، لعل امي ترسل لي رسالة تخبرني بموعد إطعام السجناء. أضحكتني هذه الجملة، فتحت لي بوابة الراحة النفسية والحصول على إيواء الروح. لذلك أخذت اذرع الغرفة المستطيلة، متنهدًا بطريقة من ينتظر شيئًا لم يأتِهِ من قبل، وهو مصرٌّ على أن يحصل في النهاية على مراده.

جلستُ على حافةِ السريرِ، في داخلي بقايا الضحكةِ وكومةُ الأسئلةِ ونارُ الانتظارِ ورهافةُ التوسُّلِ، بالبقاءِ دونَ رجفةٍ تُمارسُ عليَّ ضغوطَ الانفكاكِ من الحالةِ التي أنا عليها. لكن لا رسالةَ من أمي ولا طعامَ يوضعُ عند عتبةِ البابِ، فانقلبَ الوضعُ إلى حالةِ اشمئزازٍ مما حفظتُه من أقوالٍ وتفسيراتٍ وتحليلاتٍ

من كتبٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ لم تُورّدْ سوى تعميقِ الاختلافِ. انفرشتْ أمامي في مشهدٍ لم يكتملْ كل ما يمرُّ الآن أمامَ ذاكرتي، ولكني قبلَ القراءةِ شعرتُ بامتلاءِ الكلى . نزلتْ ساقاي إلى الأرضِ، ورفعتُ مؤخرتي بقوةٍ لأزيلَ التصاقَ الثوبِ بها من كثرةِ التعرُّقِ. بخطواتٍ رتيبةٍ ومرتابةٍ، فتحتُ بابَ الغرفة، أطلتُ برأسي للتفحُّصِ لأتأكدَ من خلوِّ الباحةِ من وجودِ أمي. لا شيءَ سوى الخواءِ.. وبخطواتٍ سريعةٍ ذهبتُ إلى الحمامِ تحت السلمِ المحاذي لبابِ الدارِ. كان البولُ أصفرَ وفيه حرقةٌ. استعجلتُ الانتهاءَ لأخرجَ إلى المغسلةِ لغسلِ يدي. نظرتُ إلى تفاصيلِ وجهي في المرآةِ فوق المغسلةِ، كان وجهي أصفرَ شاحبًا. شعرتُ بتفاهةِ الحياةِ ومعناها في لحظةِ مداهمةِ الصورِ للنساءِ الفلسطينياتِ وهن يحملنَ الأطفالَ للبحثِ عن الأمانِ. النساءُ اللواتي يهتمنَّ بالحجابِ أكثرَ من اهتمامهنَّ بالحياةِ. خليطٌ بينَ شعورٍ بهذا الالتزامِ وبين الإدراكِ الذي يجعلُ العدوَّ أقوى منهُنَّ وفتكًا لأنَّه اهتمَّ بصناعةِ الموتِ. صوتُ الماءِ في المغسلةِ لم يشبه الخريرَ. رأيتُه بلونٍ أحمرَ، ومن عمودِ الماءِ خرجتْ لي صورٌ لملايينِ الضحايا الذين كانوا أداةً للأقوالِ والرواياتِ والأحاديثِ التي استغلتْ الدينَ مثلما استغلتِ المفكرينَ الذين يصنعونَ أفكارَهم على طريقةِ الشيطانِ. عدلتُ ثوبي لأغطي عريي في بيتٍ لا أحدَ فيه سواي وأمي التي لم أرها ولم تسعَ لفتحِ البابِ ورؤيتي كيف صرتُ خلالَ هذا المكوثِ.

دخلَ أخي ماهر. دفعَ البابَ بحالةٍ من لا يريدُ إيقاظَ من بداخلِه. وجدني أمامه، ووجدتُه أمامي، فلم يكنْ هناك متسعٌ لخطواتٍ ستةٍ وأكونَ في الغرفةِ. ابتسمَ بخبثٍ ولا مبالاةٍ دونَ أن يطلقَ السلامَ. قال لي وهو يراني أنظرُ إلى المرآةِ: «ما دمتَ منشغلًا بالتفكيرِ أيهما الأحقُّ الموتُ بالتضحيةِ أم الحياةُ أو العيشُ برفاهيةٍ، فإن لا راحةَ لكَ، وستبقى في حالةِ تفكيرٍ دومًا». لم يتوقفْ، وواصلَ تقدمَه بذاتِ الخطواتِ البطيئةِ، ووصلَ إلى السلمِ. التفتَ نحوي وقال: «أعلم أنك

تفكرُ أيهما الأصحُّ البولُ وقوفًا أم بروكًا، وكأنك إن توفقتَ في الإجابةِ ستحصلُ على علمٍ يجنبك الموتَ». لم أردَّ عليه، كنتُ أُمسكُ المغسلةَ متشبثًا بها. وفي ذهني صورتُه وهو يتبولُ وقوفًا تحتَ صورةٍ عريضةٍ نُصبتْ في منتصفِ جزرةٍ وسطيةٍ، موجّهًا عضوهُ لي قبلَ أن يسحبَ سحابَ البنطلون: «ها أنا أعلنُ تمردي على كل شيءٍ، وأجاهدُ من أجلِ الحياةِ والحريةِ وستعلمُ أين سأكونُ قريبًا». لم أفهمْ ما يقوله. رأيتُه يواصلُ الصعودَ إلى غرفتِه، فيما سارعتُ أنا إلى الغرفةِ لأغلقَ البابَ.

غافلني المشهدُ ليعيدَ الكرةَ على شاشةِ التوصيفِ. أثناءَ الوقوف أمام باب المرحاضِ، تأخذُ النظراتُ بُعدها إلى الجانبِ الأيسرِ باتجاهِ بابِ البيتِ العتيقِ، ثمة شقوقٌ واضحةٌ ومتآكلةٌ، يخترقُ إلى الداخلِ ضوءُ النهار على شكل شعاعٍ، ليزيد من إضاءة البيتِ. ماهرٌ يسحبُ الأشياءَ معه إلى بدايةِ السلمِ، البيتُ خالٍ، وأمٌّ ساجدٍ غيرُ موجودةٍ، خرجتْ للتسوقِ، الصورةُ تتابعُ خطواتِها القلقةَ وهي تصطحبُ ابنةَ الجيرانِ معها. تهفهفُ عباءتُها خلفها، وعلى وجهها تظهر خصلة شعرٍ طويلةٌ تُداعبها الريحَ. أمٌّ ساجدَ تُحدثُ عن البنتِ ولا يُسمعُ صوتُها. حركةُ الرأسِ توضّحُ أنَّ هناك حديثًا، فتبتسمُ بنتُ الجيرانِ وتلتصقُ بجانبِها الأيمنِ على جانبِ أمِّ ساجدَ الأيسرِ. تعودُ الضحكةُ إلى البيتِ تدغدغُ السمعَ، لكن العينينِ منشغلتانِ بماهرٍ وهو يصعدُ إلى غرفتِه. يرمي جملةً ساخنةً فتأكلُ ضحكةَ ابنةِ الجيرانِ وكلامَ الأمِّ عن الأسعارِ والغلاءِ و(حشوِ البطنِ). يقفُ ماهرُ في منتصفِ السلمِ ليُعيدَ الجملةَ، كأنَّه يرمي بها في الفوضى حتى لا أحدَ يسمعُه. كانت الكلماتُ متقطعةً: «لم أعدْ أطيقُ البقاءَ، فأنا رجلٌ بلا فائدةٍ». تَنقضُّ الكلماتُ على تردّدِ الخطواتِ الصاعدةِ، فتتلوى لتُعيدَ ترددها إلى ثقبِ بابِ الغرفةِ حيثُ يمكثُ الجسدُ القَلِقُ.

أطلقتُ تنفّسًا قلقًا، محتارًا بين كلامِ ماهر وتلك الفتاةِ التي تصحبُها أمي.

وصار هنا سؤالٌ جديدٌ يدخلُ جعبتي. ماذا يعنيه بكلامِه؟ من زرعَ الفكرةَ في رأسِه؟ كنا أنا وهو على تضادٍّ مستمرٍّ إلا بشيءٍ واحدٍ لم يستمرَّ طويلًا، وهو أن نكون على استعدادٍ للعمل، فالعملُ يؤدي دائمًا إلى الراحةِ. لذا هو سارعَ إلى العملِ، في عدة أماكن، مرةً عاملًا في مقهى يُقدّمُ الأراجيلَ إلى المدمنينَ على كسبِ الدخانِ لعلَّه يحرقُ دواخلَهم الهائمةَ، ومرةً عاملَ بناءٍ في فرنٍ للخبز. وأنا لم أستطعِ التكيفَ مع العملِ بانتظارِ الوظيفةِ الحكوميةِ. لذا سمعته يقولُ لأمي واصفًا إيّاي بـ(التِمبل)، ويَزبدُ عليها: «يريدُ الأكلَ أن يصله بلا تعبٍ»، وقال: «من يُفكّرُ كثيرًا لا يُنتجُ كثيرًا». وتردُّ عليه أمي: «قسمته هذي».

تناهى إلى سمعي صوتُ أمي وهي تنادي على ماهر، تصفُه بأنّه الأوسطُ الذي عليه أن يكونَ خيرَ الأمور. يردُّ عليها وهو من السطح: «لا توجدُ أمورٌ طيبةٌ هنا حتى أكونَ خيرَها وأوسطَها. كلها في الهوى سوى».

المشهدُ الذي أمامي: ماهر ينزلُ من غرفته. يقفُ عند باحةِ الدار ويخاطبُ أمي: «اسمعي يا أمي، نحنُ أمرٌ طبيعيٌّ ألا نتشابهَ، فلا يُزعجكِ في الأمرِ شيء». تردُّ عليه الأم بشيءٍ من السخريةِ: «صاير فيلسوف؟» وبنكهةٍ مداعبةٍ يُبَرِّدُ عليها: «طالع على أمي المثقفةِ التي انتبهتْ إلى أن لا مجالَ إلا القبولُ بالأمرِ الواقعِ، لذا تركتِنا نتصرفُ بما نشاءُ». يلتفتُ ناحيةَ بابِ الغرفةِ ويعلو بصوته: «واحدٌ يُفكرُ أكبرَ من عمرِه ولا أعرفُ إذا كان يريدُ أن يكونَ إمامًا وينقذَ الناسَ من حبلِ الموتِ، وواحدٌ مثلي تائهٌ يبحثُ عن مكانٍ يرى فيه ظلَّه بلا خوفٍ».

شعرتُ بضربةٍ على رأسي. حتى الآن لا يعرفون ماذا أُبغي. وضعتُ جسدي على السريرِ لأمسكَ بالتأملِ. رأيتُ بياضًا ينزلُ من السقف. أغمضتُ عيني وتحولَ الحوارُ الصامتُ إلى صخبٍ في داخلي. البياضُ ينزلُ من السماءِ يخترقُ السقفَ، فأبدو مثلَ رجلٍ ميتٍ. شعرتُ بضربةٍ على رأسي. أسقطُ مسجًى على الأرضِ، وعيناي تتلوّيانِ كأفعى حولي. فينعدم الواقعُ ويظهرُ الشريطُ أمامي. يعودُ إلى

الموتِ والجسدِ المُسجّى، لا شيء سوى جدارٍ وعتبٍ تدورُ رحاها في المكانِ. وكلامٌ لا يسمعه أحدٌ من البشرِ، فتكتفي الجدرانُ بالتعويضِ: «الجميعُ خُلقوا في بيتٍ واحدٍ وشجرةٍ واحدةٍ ولم يتفقِ اثنانِ مع بعضهما، فكيفَ تريدُ من السماءِ أن تجعلَ العقولَ تتفقُ دون أن يحصلَ تغييرٌ في فهمِ الاتفاقِ؟» يقفزُ من الرأسِ رجاءٌ ودعاءٌ. يدورُ في الباحةِ ويصعدُ إلى الطابقِ الثاني: «يا إلهي، لا تجعلْ ماهرَ يُنفّذُ ما يجولُ في خاطرِه». يأتي الجوابُ مثل موسيقى صاخبةٍ: «ظلَّ على مكوثِك وعلى الأدعيةِ التي تعبّرُ عن نقصانِ التفكيرِ». ثم ترنُّ ضحكةٌ، تنزلُ مثل طيورٍ هائجةٍ إلى الباحةِ وتضربُ بابَ الغرفةِ. تصرخُ الأمُّ من داخلِ غرفتها بتكبيرتها الوحيدةِ: «الله أكبر!» ترتفعُ الأجسادُ طائرةً على بساطِ الريحِ. خفتُ أن أهوي إلى الأسفلِ بلا معينٍ، وثمةَ خلعٌ في كتفي وجسدي يُدقُّ على الأرضِ. جاء سؤالٌ مع ألمِ الظهرِ: «هل هو انتقامٌ لأني أحدّثُ السماءَ مباشرةً وأريدُ منها النزولَ لسماعِ صوتي؟ ألا تُقبلُ السماءُ بالحوارِ، أم هناك من يمنعُ وصولَ صوتي؟»

شعرتُ بضرباتٍ قويةٍ على البابِ، تتبعها أصواتُ نعيقِ الغربانِ وصَريرِ الخفافيشِ، ونهيقٍ مخنوقٍ لمن يستغيثُ بأمرٍ تفعله الغربانُ. أشياءٌ موحشةٌ تتداخلُ وتتصارعُ، مصحوبةٌ بكلماتِ التخديرِ وعقوباتِ جهنمَ وتعليقٍ بالكلاباتِ. الأصواتُ تدخلُ من ثقبِ البابِ: «إنك لا تحترمُ السماءَ ولا تصلي، وتتحدثُ بالدينِ والصلاحِ وتبحثُ عن إجاباتٍ لا يعرفها أحدٌ سوى السماء».

جلستُ مذعورًا أُردِّدُ الحوقلةَ لأنزعَ من داخلي الخوفَ الذي بدأ يترسَّب. خوفٌ من نوعٍ لم أألفه من قبل. لذا شعرتُ أني بحاجةٍ إلى قلبِ أمّي الحنون وصدرِ أبي، الذي كان كلما انزعجتُ سرتُ إليه محمَّلًا بالعطشِ الأبوي. فينكثُ عني ثيابَ الخوف ويمدّ ذراعَيهِ كأيِّ كاهنٍ محترفٍ بالدعاء، يطبطبُ على ظهري ويوصيني بالدعاء وأداةِ صلاةِ الخوف. لكن لا أبَ الآن، والعمرُ صارَ له جناحانِ من الرجولةِ التي يُرادُ لها أن تُعلِّمَني الطيران. وأمي مشغولةٌ بترديدِ الأدعيةِ نيابةً

عنا، وصدرُها ما عاد يتحمَّلُ إرضاعَ رجلين، كلٌّ له مآربُهُ وبَلواهُ في الحياة. لذا أعودُ إلى أن أكثرَ الأفكارِ المخزنةِ في رأسي كانت من أمّي. فهي التي علّمتني أن أصبرَ وأن الصبر مفتاح الحلول، وأن التأمّل يشبه صناعةً بطيئةً لكنه يعطي العمرَ قوةً ومتانة. هي من جعلتني أبصرُ الطرقَ وكانت تحميني من مشاكل النقاشِ مع ساجد. يأخذني المشهد، يومَ وقفَ في بابِ هذه الغرفة ووجهه إلى النافذة. كانت إحدى ظلفَتَيها مفتوحةً فيأتي الهواءُ محمَّلًا ببرودةٍ عذبةٍ من جوف الزقاقِ ويحرِّكُ الستارة. قال: «ماذا بك؟ سمعتك تتحدث بعصبيةٍ مع أمي؟ وأنك تذكر السماءَ التي لم تمنحك سوى الكدر». كنتُ أتحدث معها عن العمل، وأن واحدًا مثلي أنهى الجامعةَ ولا عمل وسط كل هذا الواقعِ السياسي الذي نعيشه. واقعٌ قلتُ له إنه قذرٌ، وأن السلطةَ تستغلُّ كلَّ الأشياءِ سلاحًا من أجل ألا تكون هناك حركةٌ مناهضة، بل إن الحكومةَ أجهضتِ المظاهراتِ العديدةَ من قبل الشرطة. كانت أمي تتوسل ألا أُشاركَ بالتظاهرات، تعبر عن خوفها من اعتقالي. كنتُ أضحكُ.. قبلتُ رأسَها ومضيت إلى غرفتي الصغيرة. كرّر أخي ساجد السؤالَ بطريقةٍ أخرى: «هل حقًّا تريدُ المشاركةَ في التظاهرات ضد هذه الحكومة؟» لم يجد مني الكلام. كنت صامتًا لأني أعرف أن لا فائدة من الكلامِ والنتيجةَ أعرفها؛ عدمَ قبولِه بأي شيءٍ يتعارضُ مع الواقع. نظر لي نظرةَ أسًى، وخرج بلا كلام، يحرك رأسَه متأففًا.

أشحتُ بوجهي عن تذكّري البائسِ لهذا الحوار، لندمي على مشاركتي التظاهرة، فلم نحصد سوى خراطيشِ الماء الساخن والعودة بثيابٍ ممزّقة. باحثًا عن شيءٍ يقيني من التفكير، أغلقت الباب كي لا أتركَ كمساحةٍ لرؤيتي من قبل أمي أو حتى أخي ماهر. هبدَ صدىً قويٌّ، يشبه سقوطَ حجرٍ أو نيزكٍ، لم أسمع سوى ترددات، ترتجُّ في الأعماق، جعلتني أتيبسُ في مكاني. لأجدني على السرير، مُسجًّى إلّا من عينيّ.

المشهد السادس

استيقظت على صوت أُمِّي فزعًا، صوت يُغالبه الخوف بشكلٍ مفرط. وجدت رأسي تحت النافذة وقدماي في الزاوية الثانية المقابلة للسرير. نومة تبدو أنها دامت لساعات قليلة تسبَّبت بآلام في الظهر والرقبة. شعرت بدبيب يسري بين ساقيَّ، أشبه بحركة دود تصعد من أخمص قدمي إلى أعلى رأسي. لم أكن أرى ما حولي من أشياء، ظلام رهيب استمر لثوانٍ، ثم بدا شبه ضوءٍ يتغلغل من حافة النافذة، ويسقط كشعاعٍ بلوري على جزء من السرير، لأدرك أني لم أزل في غرفتي. وثمة صوت يعنيني أسمعه من خلف رقبتي: «أنا خائف من فزع أُمِّي». لملمت جسدي لأستدير نحو الخلف كان أحد يُحدِّثني، فلم أجد إلا نصف جدار. فوجدتني أحتضن رأسي، ليُعاد الصوت من جديد: «لا تقف مكتوف الأيدي. كُن مؤيِّدًا لما أنت فيه وَلِداخلك الذي يرعى أغنام أفكارك». أعجبتني الجملة، ثمة شخص آخر يُحدِّثني. محاورة مع الذات، يجلب لي كلمات رائعة كأني لم أزل أقرأ كتب الأديان والحضارات والصراع بين العلم والدين.

لحظة مسحت عيني لأتذكّر فزع أُمِّي، عاد الصوت من جديد ملهوب الفزع، صرخة تحوَّلت إلى ولولة هائجة استمرَّت بندب وضرب على الخدود، تلك الحالة ذكَّرتني بما فعلته يوم مصرع أخي ساجد. المشهد الذي يتكرَّر في ذاكرتي، الجثة توضع أمامها. يُدخلونها إلى باحة البيت لإلقاء نظرة الوداع، لا شيء في التابوت غير كومة من لحمٍ وعظام، لُفَّت بكفن أبيض، ستذهب إلى المقبرة. صاحت وناحت، زوجها يُمسكها بضعف ووهن وهو يبكي. والجيران تجمهروا

وهم يذرفون الدموع على مشهد الأم التي شقَّت ثوبها من صدرها، فغطَّاها أبي، ثم نفَّشت شعرها وهي تَشْتِم بكلام مسموع جميع من هو مسؤول. كادت تُطلق العنان للسانها أن الأمهات يفقدن الفلذات تحت مرأى ومسمع الذين جاءوا على دبابة أمريكية. يُسارع الأب إلى لجم لسانها، يُدخلها الغرفة ويغلق الباب ويأمر بالمجتمعين برفع التابوت والذهاب إلى المقبرة «الشهداء لا يُغسَلون قبل الدفن»، لكن الأم تكسر الباب وتخرج مهرولةً خلف التشييع وهي ترفع يديْها في حالة أبكت الناس كلهم في الزقاق، قبل أن يرفعوا التابوت فوق سيارة أجرة للذهاب إلى المقبرة.

الصوت ذاته أسمعه مصحوبًا بضربٍ على الخدود، لكنه أخفُّ حدّة. أخرجُ من الغرفة حاملاً خوفًا ما بعده خوف، أجرّ نعاسي وقلقي بنصف عينين وقلبٍ يخفق، وساقين تضربان بعضهما ببعض. وجدتُ أمّي في منتصف الباحة، شعرها منفوش، وثوبها الأسود قد مُزِّق من جيدها. قلتُ إن أخي ماهر مات، أخي الذي لم أره منذ أكثر من أسبوعين، فالثوب لا يُشَقُّ إلّا على ميّتٍ ليكون العذر مقبولًا في الكشف عن جزءٍ من بياض جسدها المحرَّم. وقفتُ أمام باب الغرفة. المسافة بيني وبينها تزيد على ثلاثة أمتار، فتحتُ عينيَّ على اتساعهما. كانت تنظر إليَّ بضعفٍ لم أره في نظراتها منذ أن مات أبي، كأن الحياة توقفت عندها، وصارت ذاكرتها تواريخَ حزن. لم أفهم بعد لماذا تولول بهذه الطريقة. جلست على الأرض أمام باب غرفتها وفتحة السلّم. خرج السؤال من فمي بلا إرادة: «ماذا حصل؟ من مات؟» سحبتْ نفسها وابتلعت مخاطها المخلوطَ بدموعها. خرجتْ حروفُها متقطعة: «أخوك». رفعتُ رأسي إلى السلّم باتجاه غرفته، صعدت روحي إلى هناك لتعرف إن كان موجودًا، وأنه نام ليلةَ أمس في البيت. وجدتني أسألها: «ما به؟» لم تجبني مباشرة، بل ظلّت تندب حظَّها العاثر وتناجي ربَّ السماء: «يا ربي ماذا فعلت لتعاقبني هكذا؟ إن المؤمنة الصالحة رزقتني بثلاثة أولاد، كل

واحدٍ يختلف عن الثاني، ويشهد الله أني أنجبتهم من ظهرٍ واحد». قاطعتها قبل اكتمال الولولة النسائية: «ما به ماهر... مات؟» بالكاد سمعت كلمتها، من خلف دموعها، وشحوب لون وجهها وبحة حنجرتها: «أخذ حقيبته وغادر».

سقطتُ على الأرض بلا حيلةٍ. لا أنوِي على فعل شيءٍ، وليس بمقدوري التفكير بفعل شيءٍ، وأنا الذي لم يطرد النعاس بعدُ من عينيه المسبلتين. صرتُ آبهًا بما يحصل في البيتِ، لكن لا حلولَ أمامي، بانَ الضعفُ على مخيلتي وضاعت الأسئلةُ. أين ذهبَ ماهر؟ وقفزت صورةُ عناده وتهديده ووعيده بأنه سيرحل ذات يومٍ. ولكن إلى أين؟

شيءٌ ما أمسكني أنا وأمي كان أكثر اهتمامًا في تلك اللحظة، فقد زادَ ارتجافها وهي تنظر إليَّ بلا حلولٍ، ربما تخيلت أني سأقوم بمقامِ رجل البيتِ الوحيد وأخرج من فوري لأبحثَ عن أخٍ ولدته أمي وضيّعته الحياة وأخافه الموت.

كشف المشهد عن تفاصيله بدهشةٍ مريبة. الأمُّ في الجهة الأخرى من باحةِ البيت، ثمة صوتٌ يأتي منها إلى الجهةِ الثانية القريبةِ من بابِ الغرفة، يدورُ مثل زوبعةِ هواءٍ دارت لتقتربَ من يدِ الأمِّ وتأخذَ منها ورقةً سكنت في يدها اليمنى. الورقةُ تطيرُ بحركةٍ طائرةٍ ورقيةٍ وتتحولُ إلى شاشةٍ عريضةٍ تفرشُ طولها وعرضها على جدارِ السلم. تتحولُ الورقةُ إلى شاشةٍ عريضةٍ بيضاء، يخرجُ ماهر من وسطِ الشاشة ويبدأُ بقراءةِ ما دونه على الورقة: «أعذريني يا أمّي، واعذرني يا أخي الصغير الذي لم يسعفني الوقتُ لأكون له الأب. فقد ولدنا في زمنِ الموت والرعب والتناقضِ العجيب في الحياة. لم يعد الفكرُ مفيدًا ولا الحياةُ مفيدة. كل شيءٍ صارَ إلى الاختناق أقرب وإلى التناقضِ الذي احتوى المجتمعَ كله. الذين ينادون بالموت هم أكثرُ الناس حبًا بالحياة، لكنهم يجعلون أمثالنا مشاريعَ موتٍ نيابةً عنهم. حتى أخي ساجد اقتنعَ أن موته هو هدفُ الآخرة، فماتَ تاركًا عائلةً وزوجةً وطفلين لم نعد نعرف أين هم الآن لأن الحياة أكثرُ

نذالة. اعذروني وليعذرني حتى أبي. لم تعد تعليماته تنفع، فقد وُلِدنا في زمنٍ غير زمانه، ولم يعد أخي ساجد بعد موته مقنعًا أن الموت هو الحياة، كلاهما مات تاركاً إيّانا نلوك العوز في واقعٍ أكثرَ قسوةً علينا. لذا نتعذب في الحياة وتأخذنا الأفكارُ في مشارق مبتغاها ومغاربها». يتوقفُ ماهر عن الكلام. وتظهرُ الأمُّ تنظرُ بألمٍ إلى جدارِ السلم، تظهرُ عيناها مكلّلتين بالدموعِ المالحة، تسبحُ في احمرارٍ يختلطُ بدمٍ مسفوحٍ في الروح. يعودُ ماهر إلى الكلام بعد أن أخذَ وقتًا لترتاحَ الأمُّ من البكاء: «لم أعد أجد نفعًا من الأفكار، لا أخي الكبير نفعني بتناقضاته، ولا أخي الصغير نفعني بصبره وأسئلته وتأمّلاته، ولا أصحابي نفعوني بخيباتهم ودسائسهم، وهم انعكاس لمجتمع يعشق الهتافات للآخرين».

كانت الورقةُ، الشاشةُ تتحركُ مع كلّ شطرٍ يقرأه ماهر. يظهرُ في خلفيةِ الورقة وجهُه، وهوٌ يقرأُ بحزنٍ كبير، ويرسلُ نظراته إلى أمّه. تظهرُ الحقيبةُ شبهَ فارغةٍ، تقتربُ الصورةُ منها ويتضحُ ما فيها من ملابسَ قليلةٍ، وجوازِ سفرٍ وبضعةِ دولارات. يتحركُ ماهر باتجاه مطارِ بغداد، ثم يأخذُ بالتلويح بمنديلٍ قاتمِ الخضرة. ثم يكتبُ على الشاشة: «لقد حصلتُ على لجوءٍ في أمريكا». يقفُ ماهر في منتصفِ المسافةِ البعيدةِ بين المطار والسماء. ويقرأُ: «أريدُ العيشَ حرًّا حتى لو كان في دولةٍ عدوّة، هناك لا أحد يقول لك لماذا لا تصلّي، ولماذا لا تهتف، ولماذا تتعصّب ولماذا تفكّر. ولا احد يضربك إن خرجت بمظاهرة، سأعيشُ كيفما أريد، فلا تتعبوا أنفسكم وتتابعوا خطواتي».

تغافلَت الورقةُ جدارَ السلّم، تصعدُ إلى الأعلى باتجاه باب السلّم المطلِّ على سطحٍ مغبر. يرسلُ ماهرُ صوته من هناك: «لا أحتاجُ أدعيتكم أبدًا، فهي لم تنفعني في حياتي ولم تنقذ أخي من القتل، وأبي من الموت، وأمّي من الحزن، وأخي الصغير من الضياع، لذا لن تنفعني في حرّيتي، فقط حافظوا على حياتكم». تحوّل باب السلّم إلى بقايا الورقة، الجزء الأخير منها قبل كتابة اسمه،

للتأكيد على أنه كتبها: «لا أريدُ لأخي أن يكره أمّي. أمّي تحمّلت الكثير، علّمها الحزن أن تكون صابرةً صامتة، ابنكم ماهر».

خرجَ صوتٌ مع اختفاء آخر جزءٍ من الورقة، يبيّن انغلاق باب السطح المطلّ على الفضاء.

هربتُ إلى داخل الغرفة وأغلقتُ الباب، تاركًا أمي تتابع بنظراتها الكلمات التي قُرئت، وهي تسبحُ في فضاء الباحة، ثم تخرج من باب البيت الخشبي. سمعتها تئنّ ثم تولول كامرأة تقيمُ مأتمًا لميّتٍ، تردّد أقوالَ المآتم النسائية: «ضاع العمرُ يا فلان من صاغوا الحرية». كان ألمَ صدرها يأتيني ويجرحني بأشواكه اللعينة، جعلني ألوذُ بزاوية الغرفة التي ساد فيها الظلام. لتخرج لي أشكالٌ غريبة تمثّل رسوماتٍ ومنحوتاتٍ وأوراقٍ ومطوياتٍ وكتبٍ تتحرّك أمامي بعبثيةٍ لا أستطيع السيطرة عليها. لذا هرعتُ إلى السرير، مددتُ جسدي. ثمّة تأمّلٌ عليَّ ممارستُه، لترتيبِ الأشياءِ والأولويات. قلتُ لنفسي لأفتح دفاتر الأسئلة، فأيُّ تأخيرٍ يعني النسيانَ، وأيُّ نسيانٍ يعني الخساراتِ الكبرى.

تركتُ جسدي مسجّى إلّا من عينيَّ، أتنفّسُ ببطءٍ، لرفعِ نسبةِ الأوكسجينِ في الدم. مخيّلتي اختلفت، خطفَ لُبّي شيءٌ جعل الدبيبَ يسري كدمٍ جديدٍ سُكِبَ في الشرايين ليعيد الدورةَ الدموية. نزل شيءٌ أبيضُ من السقف. وضربني ضوءٌ اخترقَ الستارة. لونٌ أبيضُ ملائكي. انتهت دقيقةٌ في تأمّلِ الحال، أدركتُ أن الأمرَ فيه غلبةٌ لما أريد وما خططتُ له. ولا أعبأُ بما كان يقوله أخي ماهر من أني أتقمّص دورَ الناسكِ والمتعبّدِ والصوفيِّ والعرفاني. أنا لستُ كلَّ هؤلاء، بل أقتفي أثرَ السؤال، والسؤالُ تأمّلٌ، والتأمّلُ يحتاجُ إلى خلوةٍ لا إلى فوضى. لذا عليَّ الاستمرارُ بما أنزلَ إليَّ من البياضِ الذي حملَ الأشكالَ الغريبة.

سمعتُ صوتًا يأتي من جهاتٍ عديدة: «ما الَّذي تُريده؟ أَلا تُؤمِنُ بما آمنَ به

الَّذي قبلك؟ أَلا تُريدُ السَّيرَ مع السَّائرين، على أَنَّ الحال هو كذلك، وهو أَمرٌ يجبُ طاعَتُه؟». لم يخرجِ الصَّوتُ منِّي. هذهِ أَسئلةٌ تزيدُ قلقي، أَنا من طرَحَ الأَسئلةَ وأنتظرُ الإِجابات، لكنِّي طاوعتهُ لأعرف ماذا بعدَ الأَسئلة. لم أَزَلْ مسجّى أَبحثُ عنِ اتّساعِ الغرفةِ، وعن رهافَةِ المكانِ واستحسانِ المُكوث.

سمعتُ صوتًا بذاتِ النبرات: «لكِنَّك لنْ تستطيعَ صبرًا، فكلُّ ما تَملكهُ شهادةٌ جامعيةٌ، وأَسئلةٌ جاءَتكَ من تضارُبِ الواقعِ وصراعه». لم أُجبْ أيضًا. تركتُ جسدي مسجّى، وروحي ترفرفُ كفراشةٍ تحومُ حول وردةٍ ناضجةٍ. تكرَّر الصوتُ بنغمةٍ لا مثيل لها في الأَصوات: «أَلَمْ تَقرَأْ قصَّةَ الخضر؟» شعرتُ أنَّ لونَ وجهي تغيَّر بعدَ لحظة استمكانٍ وتحليلٍ لقولهِ مِن أَنِّي لن أَستطيعَ صبرًا.

حضَرَ صوتُ أَخي ساجِدٍ عنِ القصصِ القرآنيةِ العجيبةِ التي تقدِّمُ دلائلَ حياتيةً على التَّفكيرِ المنطقيِّ بالأشياء. همستُ أو دلقتُ الكلامَ ليصلَ إلى من يجلس على حافَّة السَّرير: «أَنا أَسألُ عنِ القدرِ الَّذي ساقَ أَخي الكبيرَ إلى الموت، وأَخي الثَّاني الذي ساقه إلى الهجرةَ، وأَنا إلى التِّيه. أَسألُ عنِ القدرِ الَّذي جعلَنا منذ بدءِ الخليقة ونحن نعيشُ مع طغاةٍ يُخطِّطون للحروبِ منذُ أَوَّلِ يومٍ لاستلامهِمِ السُّلطة».

كان صوتي يدورُ في الغرفةِ. أَراهُ بحروفِه يتلاصف، يجعلني أَتشجَّعُ وأُواصِلُ الحوار: «أُؤمنُ بالموتِ الحتميِّ والحياةِ الأُخرى والأَرواحِ الَّتي تتناسخُ داخلَ الأَجساد. لكن لماذا كلُّ هذا، ونحنُ نعيشُ ازدواجيةَ الإِيمانِ وعدمَ القناعة، والإِيمان يحتاج إلى قناعةٍ بأنَّ الموت مصيرٌ؟»

تحرَّكَتِ الكتلةُ البيضاءُ لتطوفَ فوقَ وجهي. صعدتْ إلى السَّقف، أراها كأنَّها بعيدةٌ وقريبةٌ، تلوِّح لي بإشاراتِ الأسئلة. أَحلِّقُ بمشهدٍ غرائبيٍّ من الاندماجِ مع الرُّوحانياتِ بشكلٍ لا يُقاوَم، وقبل أن أشعرَ أنَّ روحي تصعد، سمعتُ ترتيلَ

القرآنِ يأتيني من جامعِ المدينةِ على شكلِ تردُّداتٍ لم أكن أسمعها من قبل، نغَمٌ يُطرِب الرُّوح: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾. ثمة ارتجافةٌ لحقتني من هذا الصوت الذي كان يتقرَّب بفعلِ ريحٍ تأتي به إلى النافذة ليخترقها والستارةَ وتصل أذني. ثم جاءني صوتٌ من ثقبِ البابِ يحمل صوت أمّي وهي تُكبِّر: «اللهُ أكبر». اهتزَّ ما بداخلي متخيِّلًا أني في عالمٍ آخر. أغمضتُ عيني فتغيَّر الحال حين دخلتْ أذني أصواتٌ غريبةٌ تتصارعُ وتضربُ البابَ الذي يهتزُّ كما يهتزُّ جسدي.

المشهد ينقل حركةَ دُودٍ أسودَ يمشي بشكلٍ منسَّق، سير عسكريٍّ، يأتي من داخلِ البيت ومن النافذة، يتحرّكان على شكلِ كراديسَ إلى الغرفة. يلتقيان عند الزاويةِ الثانية أعلى النافذة، مقابلَ الزاويةِ العليا للسرير. يتَّحدان وينزلّ الخطُّ الأسود متَّخذًا من زاويةِ الجدارين سبيلًا للوصول إلى أرضيةِ الغرفة، ليتجمع هناك، ثم يمشي ليتخذَ من موضعٍ أسفل السرير، يتحوَّل إلى دوائر. تتداخل أصواتٌ غريبةٌ للحظة تعذيب، أو كأنَّ أمرًا يشبهُ حفرَ قبر. تكبر صورة المشهد إلى أسفلِ السرير، ثقوبٌ عديدةٌ في بلاطات أرضية الغرفة، تخرجُ من الثقوب أجنحةٌ سودٌ، تحلّق تحت السرير، ثم تختفي بطريقةٍ غريبة، لا تظهر في الصورة، لكنَّ رذاذًا تسبِّبه حركةُ الطيران، يثيرُ أكوام التراب التي تسبَّبتْ بها ثقوبُ الدود. يتحرَّك الجسدُ المسجَّى ويرتفع إلى الأعلى وحده، بلا مساند، يُسمع صوتٌ جديدٌ يردّد عباراتٍ مثل: القدَر... الأيمان... الحتميّة... المُسيَّر والمُخيَّر. يفتح الجسدُ المسجَّى عينيه فيسقطُ على السرير، دون أن يُحدِثَ ضجّة.

أُصبتُ بالخيبة. المشهد غيَّر الحال، وأبعد الإمساك بالمآل. وأودع في داخلي الخوف حتى القدر، الذي جعل من أُمّي لا تكلّمني، حتى وإن كنتُ أنا من طلب منها ذلك. لذا، عدتُ إلى عدم تصديق العالم. رؤية الدود تحمل دلالاتٍ متعدّدة، كان أخي ساجد يقول وهو يرى مشهد الدود إنه الحسد، وكان يُحدِّثني أنه يرتبط

بالموت والفساد والضعف البشري. قد يظهر في التفسيرات القرآنية والحديثية والكتب الدينية الأخرى كرمزٍ لزوال الدنيا والعودة إلى الأرض بعد الموت. في حين ينتهزها ماهر ليقول قوله إن الدود يرمز إلى تحلُّل الجسد بعد الموت، وإنه يرمز إلى فساد الدنيا وزوالها، وأن الدنيا لا تدوم، وأن كل مخلوقٍ سيفنى، وأن الدنيا مجرّد محطةٍ مؤقّتة. لكن ساجد يقول، دون اعتراضٍ على قول ماهر، إن الدود رمزٌ للابتلاءات والامتحانات التي يتعرّض لها الإنسان في الحياة، وهو رمزٌ للخطيئة التي تحطُّ من قدر الإنسان. كان الحوار الذي جعل أبي يصرخ: «تتصارعان على شيءٍ خلقه الله ليكون عنوانًا آخر للحياة. كأنكما تتصارعان على فكرةٍ تنجب أفكارًا تُفيد الحياة».

تدور الحالة في رأسي ويتجمع «دود الأفكار» من جديد عن تلك الصراعات التي جعلت من حامد يصرخ في المقهى الذي تحوّل إلى ساحةِ سجالٍ عن الدين والصلاة بين موظَّفين اثنين يرتشيان بصورةٍ علنية: «كلما زاد الحديث في الدين، زاد الفساد». ليصمت الموظفان وقد أدركا مغزى كلام حامد.

رَنَّ الهاتف على نغمةٍ من الواتساب. كانت أُمّي قد كتبت في رسالتها: «أنا مريضة، سأذهب إلى الطبيب مع صفيّة ابنة الجيران». وجدتني أضحك، كانت الضحكة حزينة، لم تخرج من جوفٍ، ولم تغيّر ملامحي. تخيّلتُ أن أمّي تعتبرني الآن ولدًا عاقًّا، وأنها ستحدّث صفيّة الجميلة، التي كنت أسبقها بعامٍ في الجامعة وتأخذ ملازم الكليّة مني، ربما ستكرهني. أردت أن أكتب لها ردًا ألّا تكلّم البنت عنّي، ولا تصفني أمامها بالمجنون أو المخبول كما يحلو لها. فمشاكلنا بيننا.

ذهبت إلى مرآتي التي تطلُّ على عالم البيت الداخلي، وضعتُ عيني في ثقب الباب، ورحتُ أُصيخ السمع. كانت أمّي تقف أمام المرآة، تنظر بإمعانٍ إلى الملامح التي غيّرها الزمن، تمسح خدّيها لتُزيل عنها تجاعيد العزلة، وتُعيد بعض أنوثتها المفقودة. كنتُ أراها حائرةً لا تلوي على شيءٍ، متحاملةً على

وجعٍ أسكنها الصمت على البوح به. شعرتُ بتعبٍ يسري في ظهري، لذا قرّرت المغامرة بالانتظار خلف الباب، لعلّي أرى وجه صفيّة الذي لم أره منذ تخرجّها، ربما تدخل البيت وأستطيع معها التمييز.

لكنّي سمعت أمّي تُكبّر من جديد: «الله أكبر». شيء ما أزعجها بكلّ تأكيد، ربما لأنّي قرأتُ الرسالة ولم أخرج وأُبدي استعدادي لأخذها إلى الطبيب، أو حتى سؤالها عن مرضها. عدتُ أنظر من ثقب الباب، وجدتها تفترش سجّادتها وسط الباحة، تحت السماء، ثم تجلس في وضع التهيّؤ للسجود، وتفتح راحتيها للدعاء. هالني منظر الضوء الذي سُلّط على رأسها بشكلٍ عموديّ. حزمةٌ من شمس الظهيرة. انتابني شُرود الذهن، لم أعُد أستطيع تلقّف كلمةً واحدةً لأقنع نفسي بالإجابة على حالي المتسائلة.

أثنيت ركبتي اليمنى من التعب، أصابني الارتباك من دعاءٍ وصل أُذني: «يا إلهي لم يَعُد إلّا هو معي، فلا تُخيّب ظنّي به، أن تساعده في التخلّص مما هو فيه. أعرف أنه طيّب، لكن الحال تسبّب بإصابته بلوثة القراءة والنقاشات العديدة». داهمني خوفٌ من الدعاء. أخذت نفسًا عميقًا لأُريح بلعومي من اللهاث السريع، فيما يُلاحقني استمرار دعاء أُمّي، الذي تخلّله اسم صفيّة. قلتُ ربما هي تدعو لها لأنها تبرّعت بأخذها إلى الطبيب نيابةً عن ابنها.

نهضتُ من جديدٍ لأتابع المشهدَ. وجدتها في حالة دعاءٍ. مسحت براحتيها وجهها، سجدت لتؤدي ركعتها الأخيرة، ورفعت رأسَها إلى السماءِ، واغرورقت عيناها بالدموعِ.

كان المشهدُ مملوءًا بالفزعِ، يتحوّل الدمعُ إلى طيورٍ صافاّتٍ، وهي تحومُ في المنزلِ، تأتي من فتحةِ الباحةِ وتحلّقُ فوق سجادةِ الصلاةِ، تضربُ بأجنحتِها الطويلةِ ما ترسّب من وساوسِ الشيطانِ. الأُمُّ تنظرُ إلى بابِ الغرفةِ وترسلُ مناداةَ

الحاجةِ إلى ابنِها، تسكبُ الحنينَ دفعةً واحدةً فيخرجُ الحليبُ من ثديِها. يتحوّلُ إلى نهرٍ أبيضَ يرسمُ طريقَه من مكانِ السجودِ، وينحدرُ إلى بابِ الغرفةِ الموصدةِ. تتشكّلُ لوحةٌ من غضبٍ يخرجُ من بينِ شفاهٍ أيبسَها القنوتُ. الحليبُ يصلُ إلى بابِ الغرفةِ، ثم يُخالفُ مجراه باتجاهِ وسطِ الباحةِ. تنزلُ غيمةٌ على جناحِ طيرِ الصافاّتِ، تحملُ الحليبَ إلى الأعلى. يغمرُ اللونُ الأبيضُ المكانَ، تتوزّعُ ابتسامةٌ لها ضوءٌ يسقطُ فقط على رأسِ الأُمِّ، وهي ترفعُ راحتيها للدعاءِ من جديد.

شعرتُ بغرابةٍ مؤلمةٍ وبشيءٍ يُخالجني من الشعورِ بالعقوقِ، وليتُ وجهي صوبَ النافذةِ والسريرِ. أردتُ أن تُعادَ الحالةُ التي مررتُ بها. انهالتْ عليَّ الأفكارُ بضرورةِ التشبُّثِ بما أنا فيهِ، ورمي الشعورِ السابقِ بالعقوقِ. ثمةَ ما ينتظرُكَ. كان الكلامُ في داخلي يتمرَّغُ في المُخيّلةِ. التفتُّ يمينًا، فتأتيني صفعةٌ تخرجُ من الجدارِ، وتُنبّهني إلى أنَّ التفكيرَ الآخرَ يُعدُّ معصيةً. سمعتُ: «رُدّ عليَّ إن استطعتَ». صوتي خافتٌ لا يُعطي السؤالَ وضوحَه. لكني تمكَّنتُ من نطقِ المعاني: «لماذا تكرهني أُمّي؟ وتُعاملني بهذه الطريقةِ كما لو أني لم أخرجْ من رحمِها؟»

يأتيني الصدى مُكثَّفًا من حنجرتِها، يرتسمُ أمامي على الجدارِ: « ين ولدتكَ، كان مخاضُ الاحتلال يسيرُ إلى حتميّته. كنتُ أطلبُ من أبيكَ ألّا يتحدّث عمّا سيحصل؛ فالحربُ ليستْ لعبة. كنتُ أقولُ له: إنه المخاضُ المزعج، فلا تجعلْ مخاضي مؤلمًا بالحديث عن هذه الأشياء. كان يردُّ عليَّ: إنه المخاضُ المنتظر. لن تطولَ الفترة حتى ينتهي كلُّ شيءٍ، ويتغيّرَ كلُّ شيءٍ. لكن، ما حصلَ بعدها من تفجيراتٍ، وكنتَ طفلًا، جعله يقول: إنّه الموتُ المجّانيّ، المتعصّب، الكاره لكلِّ شيءٍ». تضحك أمي بشيءٍ من اللامبالاة: «تصوّر البعض أن ولادتك فألٌ، لكن أحدًا لا يعرف إن كان شيئًا حسنًا أم لا».

وقفتُ مستنفرًا قواي لأردَّ على القدرِ: «أرجو ألّا تكونَ مواجهاتُ السودانِ

بسببي، وحربُ روسيا وأوكرانيا، وفيروسُ كورونا وما يجري في فلسطين، والفسادُ في العراقِ. وحتى سقوط القذافي وحسني مبارك، هل هذه كلُّها بسببِ ولادتي؟» ولأني غاضبٌ، قلتُ بحدّةٍ: «كان عليكِ أنتِ وأبي أن تختارا الليلةَ التي تُلقّحان فيها بويضتَكِ كي أكونَ فألًا حسنًا».

عدتُ إلى البابِ، أو بالأحرى إلى ثقبِ البابِ، لم أجد الرغبةَ الكاملةَ لأكونَ مُسجًّى، لأعرفَ متغيّراتِ الواقعِ. وضعتُ عيني في الثقبِ، انحنيتُ وظهري مقوّسٌ ومؤخّرتي تُقابلُ النافذةَ المُسدلةَ. بحثتُ عن أُمّي، لم أجدها، ولم أسمعْ لها حركةً، ولم أسمعْ حتى إن كانت صفيّةُ قد دخلتْ واصطحبتْها إلى الطبيبِ. لكني وبزاويةِ نظرٍ مائلةٍ من ثقبِ البابِ، رأيتُها تجلسُ على درجةِ السلّمِ الثانيةِ، تبكي. رميتُ نفسي على السريرِ، متألّمًا من المشهدِ، تُلاحقني دموعُها التي ذكّرتني حين كانت تعودُ من المقبرةِ وقد ذرفتْ دموعَها كلَّها هناك.

المشهد السابع

المشهد ينقل صورة الزقاق من الاعلى، ثم ينقله وهو يتلوّى، فلا تكون هناك استقامة. زقاقٌ فارغٌ، ثمة هتافاتٌ تأتي من بعيد. تقترب مع اقتراب الحركة إلى النافذة، الأصواتُ هادرةٌ تتسلل من النافذة، تدخل الرغبةَ بالخروج للمشاركة مع الهاتفين المحتجّين. المظاهرات التي تكرّرت في المدينة، يتردّد الصدى أن الحربَ تتصاعد وفلسطين وحدها دون نصرةٍ من الدول العربية. يتبدّى في الصورة حالةٌ من الغضب التي تتركّز في محاولةِ الصوت أن ينتشر في السماء ويتصاعد إلى آفاقٍ أخرى، لكنه

يصطدم بخطوطٍ من الظلام، فتظلُّ الأصواتُ وصداها حبيسةَ حدود الشوارع نفسها. يكبت الكلامُ نغمةً في الصدور، ويجرّب كيف يفلت من قبضة اليد الموضوعة على اللسان.

تتجددُ التظاهرات، شبابٌ وشاباتٌ ورجالٌ كبارٌ ونساءٌ من مختلفِ الأعمار، يحملون راياتٍ وصورًا لأطفالٍ قُتلوا في المخيماتِ والمدن. صورٌ لعوائلَ كُفّنت بالأبيض أو بالبطانيات، تخرج كلماتُ الموت من التظاهرات لترتفعَ إلى السماء. يستمرُّ الصوتُ لأكثرَ من عشرِ دقائق، وهو يوزّعُ احتجاجاته على الأزقةِ والأفرعِ والبيوتِ والدوائرِ الحكومية، ويدخلُ أبنيةَ المدارسِ الفارغةِ من الطلبة. الوجوهُ التي تهتف، بعضها منفعلٌ إلى حدّ اللعنة، والبعضُ الآخر وجدها فرصةً ليتخلّصَ من الدوام. وبعضُهم وهم يهمسون مع بعضهم أنهم لا يريدون للنارِ أن تقتربَ

منهم. تتحوّل الهمسات إلى نقاشٍ ومجادلاتٍ، ترتفعُ الأصواتُ في الفضاء وتأخذُ الأحجياتُ دورها في الطريق.

يقطعُ المشهدَ ليركزَ على صورِ الراياتِ الكثيرةِ، سودٍ وحمرٍ وصفرٍ لعشائرَ وأحزابٍ مختلفة، بينهم علمٌ عراقيٌ واحدٌ يرفعه شابٌ مفتولُ العضلات. ينسحبُ الصوتُ من النافذة، تتحركُ الستارةُ قليلًا لتعودَ إلى ذاتِ جمودها.

وجدتُ نفسي في الزاوية، لا ضوء على السرير، فيما تتناثر أسئلتي في كلّ مكان، منتظرًا ما يأتي من البياض ليجيب. ظلامٌ ما حولي، لا بصيصَ ضوءٍ يتسرّب من ثقبِ الباب، ثمة دبيبٌ لصمتٍ رهيبٍ يأكل أطرافَ الهدوء. أصابني شعورُ بالدونية فجأة، لأنّي لم أسأل أمّي ماذا قال الطبيب عن مرضها، ومن أيّ شيء تشتكي. لم أخرج على الأقل لأشكر صفية عمّا فعلته نيابةً عني، لكن قرارَ عدم الاختلاط بالناس والعيش في التأمّل جعلني أصرُّ على عدم الكلام بشؤون الآخرين حتى لو كانت أمي.

أمي المثقّفة الواعية بالقياس إلى نساء المنطقة، متعلّمة وتقرأ القرآن، بل تعرف أجزاءً كبيرةً من التفاسير. لها أبٌ ميسور الحال، علّمها أن تكون فاهمةً ومتعلّمةً، لذا تركها تكمل دراستها. لكن أبي حين تزوّجها أقعدها في البيت. أمّي التي تناقش في كلّ المسائل، ولها القدرةُ على المطاولة والمجادلة، لكنها حين تصل إلى فقه الدين، تقطع الحديث وتقول: «لا جدال فيما ليس فيه اتفاق، لأنه سيؤدّي إلى التعصّب والتناحر». كانت توصينا ألّا نصل إلى نقطة الخلاف، وتؤكّد بشكلٍ قاطع أن الاختلاف بين الناس حالة صحية وليس الجمود لكنه معنا يتحول الى مشاكل لا أوّل لها ولا آخر.

لكن الحقيقة، كان ماهر يردّ عليها، بعدِّه كثيرًا من الأقوال مجرد أكاذيب تاريخية، وضعها الفقهاء والمؤرّخون لكي يمارسوا الخديعة في تغيير المفاهيم.

ويرد ساجدٌ أن المفاهيم التي وضعها الأوائل هي مفاهيم العقل والأخلاق. تقطع أمّي الحديث أو الجدال وتقول: «لا عليكم بالماضي، عليكم بالحاضر، فكونوا بأفكاركم واعين. هناك من يريدكم أن تقتتلوا فيما بينكم ليربح». وتشير إلى إسرائيل التي منذ أن كان هناك صراع، نجحت في تغيير الكثير من الأفكار لصالحها، وتكون مهمة الصراع مستمرة.

كنتُ أمامها قبل تخرّجي من الجامعة أبدو مثل طفلٍ تائهٍ لا يرى من الأشياء إلّا سطوحها وقشورها. لكني قلت لها بما يبدو أني أفهم ما حولي، وجعلتها تفغر فاهها: «أمّي، ليس لنا مشكلة مع الخالق، بل مع من يستغل الخالق. وليس لدينا مشكلة مع الدين، بل لدينا مشكلة مع فقه الدين». وضعت يدها على قلبها وأشاحت بوجهها عني، والتفتت إلى أخوي: «هذا ما أريد قوله، وقاله لكم أخوكم الصغير، فافهموا اللعبة!»

مددتُ ساقي لأرتّبَ نومتي على محاولتي ترتيب أصوات الهتافات في رأسي. هو الموت واحدة، والقتل واحد.

مرّ علينا مَن يمشي على أربعين رجلًا، ويتحدّث من أربعين فمًا، محاولين إقناع الآخرين بضرورة الموت. وسرعان ما وجدوا أربعة ملايين يدٍ تنفِّذ بلا تردّد. يَآاااه... كم من فمٍ يخدعنا حتى في أمريكا! هل هي دولة تحريرٍ أم دولة احتلال؟ لكنني كنت ألتزم الصمت حين يتطوّر الجدال، خاصة بعد أوّل اتهامٍ جاءني من أخي ساجد بأني من أزلام النظام. وعندما قلت إنه احتلال، جاءني اتهامٌ آخر من أخي ماهر بأني ذيلٌ لإيران. وهما يعرفان أنني كنت أتعلّم المشي حين سقط النظام وحين احتلَّ العِراق، لذا قرّرت ألّا أدخل في نقاشات الآخرين المتّصلة بالنظام الجديد وأمريكا، فكلاهما يؤدّي إلى نتيجةٍ واحدة: أن الربح الوحيد لإسرائيل. انعزلتُ فترة طويلة دون كلام، وأضعتُ الوقت بالبحث عن وظيفةٍ بين الدوائر وتقديم استمارات الطلب عبر مواقع الوزارات، لكنها كلها باءت بالفشل. قلتُ لأخي ساجد: «نظامكم

الجديد التعيين فيه بالواسطة». وقلتُ لأخي ماهر: «إن واقعكم الماضوي والتفكير العقلاني والاهتمام بالحياة لم يجلب لنا سوى المهانة، لأن العقل يحتاج مجتمعًا قادرًا على التفكير، لا على الطاعة. وأنتم لا تختلفون في الطاعة لأفكار آخرين، حتى لو كانوا من بيئة أخرى». لذا تخلّصتُ من أفكار اليوم لأبرهن أن الطريق هو أن نكون كما نريد، بشرط أن نفكّر بطريقةٍ لا تقتل تفكير الآخرين. أضحك طبعًا وأنا أستعيد الحوارات؛ فأنا أيضًا أستخدم لغة القتل، لذا أسرع نحو محو الكلمة من رأسي، لكنها تبقى متمسّكةً بما نحمله من ذكرياتٍ وأفكارٍ وتأثيرات.

أغمضتُ عيني لعلّي أجد شيئًا أو يأتي شيءٌ للحوار وطرح الأسئلة. أن أرى مشاهد جديدة تجعلني أذهب إلى المكان الصحيح من هذه الحياة. مررتُ لساني على ريقي ومسحتُ به لَهاتي لأرطّب جزءًا من أسفل الرأس. قلت له: «تعال إلى حيث أريد، لا إلى حيث الذاكرة. الرأس عقل، والعقل تفكير، والتفكير تحفيز، فلا تكن خاملًا». أردتُ أن أفهم المغزى من الانتظار، لا شيء سوى تفكير فوضوي. أغمضتُ عيني. شعرتُ بشيءٍ يجلس على حافّة السرير. الفراش ينخفض من جانبي الأيمن هذه المرّة، إذن هو جسد. لم أزل مغمض العينين، أعلم أنه ليس الضوء أو البياض. أتخيّل الكثير من الأجساد والمعارف؛ أساتذتي في الجامعة الذين أثروا بي في درس الفلسفة واللغة والعلوم والحياة وأهمية التفكير، الأصدقاء الذين هاجروا لأنهم لا يريدون أن يكونوا مثقّفين على الهامش في مكانٍ لا يهتم بالثقافة كما يقولون. أردتُ أن أفتح نصفًا من عيني اليمنى، خفتُ أن يتسرّب الجالس، لكن من يخترق السكون والمكوث والتأمّل؟ تمتد يدٌ إلى رأسي، تمسح على شعري. دبيبٌ خارقٌ له لذّة الحياة والحبّ المخفي. راحة اليد تقترب من جبهتي، فأشمُّ عطرًا أعرف صاحبه. فرحتُ كثيرًا. قلتُ هامسًا بين متسائلٍ ومتيقّن: «أخي ساجد!» تخيّلته أنهى صلاته وطوى سجادته وجاء ليحضر لي حاملًا إجابات التأمّل.

يومئ جسد الرجل برأسه، يتحرّك على حافّة السرير بشيء من الفرح. له وجهٌ قد انتفخ قليلًا من جهة اليمين أكثر منه من جهة اليسار. يمدّ يديه إلى الجسد المسجّى. يده تغطس في مياه نهرٍ بالكاد يجري. يرفع بصره إلى السقف، فهاله مشهد البياض الذي ينهمر ببطء، كأنه نهاية سقوط قطرات الماء. كان الوجه واضحًا، وثمة كلامٌ مخنوق في فمه، يريد إظهار اللوم والعتاب والتقريع. تتفرّع المسالك، وتمتد اليد مرّة أخرى، وتخرج من بين أصابعها حروفٌ سائلة، يسمع صوتها بشكل متسارع، بعضها يشبه الأذان، وبعضها يشبه تلاوة قرآنٍ بصورةٍ هامسةٍ لرجل لا يملك صوت قارئ. تتحرّك اليد باتجاه النافذة، تزيل الستارة، فيتجمّع الضوء على زجاج النافذة الذي لم تمتد لها يدٌ تزيل الأوساخ والغبار عنه. يدخل الضوء إلى الغرفة، ترتسم على أرضية الغرفة أشكالٌ مختلفة أوحاها غبار الزجاج. الجسد المسجّى يتلوّى ويتحرّك، كمن يريد الدخول في أحزمة الضوء. والجسد الذي كان جالسًا على حافّة السرير ينهض ليصلّي. يؤذّن لنفسه، يستقبل القبلة على الزاوية الأخرى، ويكبّر: «الله أكبر». يتحرّك الجسد يمينًا وشمالًا، يريد القبض على التكبير قبل أن يصعد إلى السقف، وقبل أن يرتدّ الصدى إلى أذنيه. يركع الجسد في صلاته ويردّد بصوتٍ أعلى: «سبحان ربّي العظيم وبحمده». الجسد المسجّى يرتجف، يحاول فتح عينيه فيتحرّك الجفنان بشكلٍ سريع. تلحقهما سرعةٌ أخرى حين يسجد الجسد لركعة الصلاة: «سبحان ربّي الأعلى وبحمده». يتلوّى الجسد المسجّى، تتلوّى الذراعان من الجانبين، تتصارعان مع بعضهما، فيما تتعالى أصواتٌ تأتي من خلف باب الغرفة. أراد أن يفتح فمه ليصرخ، لكنه لم يجد شيئًا.

جلستُ مذعورًا. لا شيء في الغرفة سوى شبهِ ظلامٍ وشبهِ إضاءةٍ متسرّبةٍ من ستارةِ النافذة. رحتُ أن أنظرَ إلى الجدرانِ، ساحبًا نفسًا عميقًا لأهدّئ من روعي وما رأيته من مشهد. أحاولُ أن ألّا يتسرّبَ إلى شقوقِ التفكير ويؤثّر على القناعةِ

بعاطفةٍ قد تكون مؤقّتة. سمعتُ صوتَ البابِ الخارجيِّ ووقعَ خطواتٍ. أعرف أن أمّي جاءت من التسوّق، وأنها دخلت المطبخَ وستبدأ بإعدادِ الطعام لشخصين. لا أدري، تمنّيتُ لو أن صفية حضرت معها. ليس لعاطفةٍ قد يشعر بها قلبي، بل لتزيلَ عنها وحشةَ المكان، وتسهمَ في ترتيبِ حالها والكلام معها، بدلاً من الكلامِ مع النفس، وتسعدها في الطبخ. فأمّي تعبى ومريضة. لم أكمل الجملة حتى سمعتُ صوتَ أخي ساجد بصورةٍ اخترق معها كلَّ الجدران. وبسرعة حضوره، أوقفته قبل أن يبدأ بالكلام. قلتُ له: «اليوم كان أكثرَ حضورًا لك. هل أنت ضدّ تأمّلاتي وانتظاري للأجوبة؟» ضحك، وفتحت الجدران فمها لتضحك معه. وقبل أن يفتحَ فمه، عجّلته: «أعرفُ أن علاقتي مع أمّي متأزمة، لكني مشغولٌ بأمرٍ آخر، منك ومن أمثالك وأمثالِ ماهر. جعلتموني أفكّر بكلّ ما حولي. لذا أريد أن أسألك سؤالًا جادًّا وبقوّةٍ وبشجاعة». وجدته يتململ ويتحرّك ببطءٍ ليجلس على طرفِ السريرِ القريبِ من النافذة. فتح عينيه وأغلق فمه عن الكلام، مستجيبًا لندائي بضرورةِ الإصغاء وعدم جعل كلماتي مليئةً بالأشواك. تقمّصتُ دورَ المرشدِ أو الأخ الأكبر. «أريد أن آخذَ دورك كأخٍ أكبر، فعمرك توقّف، وعمري تقدّم». لم يتململ رغمَ وجودِ السخرية في كلامي، وكذلك جلستي أمامه. كان ينتظر سؤالي، ربما دار في خلده أنني سأسأله عن زوجته وطفليه، لكني عاجلته قبل أن يسألَ السؤال: «كيف رأيتَ عالمك السفلي؟ هل رأيتَ قاتلك معك في ذات المكان، أم كلّ منكما في مكان؟ هل تعرف ما حلَّ بطفليك؟» رأيتُ وجهه وقد أكفهرَّ وغضبَ، وأشار لي أن أصمت. أخرج جملةً واحدةً سحبها من جوفه ليكون صوتُها مسموعًا: «اتّق الله». كأن لا كلامَ في جوفه، ولم يستطع الصمتَ أمام لحظةٍ وجد نفسه فيها غاضبًا من السؤال. قلتُ له: «كلّ سؤالٍ جريءٍ لا يعجب من يفكّر بتعصّب، لذا توجهتُ إلى السماء لأنها لا تغضب مثلنا». مرّت غيمةٌ، شعرتُ بها وهي تقطع ضوءَ نهارِ الزقاق وتجعل سمك الستارة يبدو شبه شفّاف. تعبرُ

بحركة جناحِ طائرٍ كبير. استجاب لرغبتي بالإنصات. «لماذا تنظرون لنا نحن الذين نتفكر بكل شيءٍ على أننا مخالفون وخارجون عن الملّة وكفّار؟» امتدَّ الصمتُ على وجهه، أرى أن لسانه صار ثقيلاً، أخذت عيناه تلوذان بالنافذة، كمن يريد أن يلحقَ الغيمةَ التي مرّت، فيما ظلّت أسئلةٌ أخرى معلّقةً على لهاتي، أنظر له بتفحّص الملهاةَ على وجهي. متخيّلًا أنه يرى كل شيءٍ من عالمه وفيه. لا أدري، ربما هو هكذا. وسوسَ شيءٌ غريبٌ في رأسي، الوسواس الذي يراه ساجد أنه أقرب إلينا من الإيمان. فكلُّ وسواسٍ شيطان. ولأني لم أجد جوابًا، شعرت بالفخر من تنامي أفكاري. قلتُ لأبادله المكان. وضعته على السرير ممدّدًا مسجّى لا يتحرّك منه إلّا عينيه. قلتُ له: «هل تراني، أم أنا أتخيّلك تراني؟ لا تقل لي إنه الشيطان وإن التفكير يفعله الشيطان!» لم أجد إلّا حركةَ العينين، فيما تحوّلت الرموش إلى أشواكٍ ناتئة. جعلتُ وجهي أمام وجهه وأعدتُ السؤال: «هل وجدتَ قاتلك منعّمًا بالاستبرق، أم يتلظّى نارًا؟» جحظت عيناها وتورّم جفناه وانتفخ حاجباه. أعجبتني اللعبة. تحاملتُ على أسئلتي مستجيبًا لرغبةٍ طارئةٍ بتبادل الأدوار. لكن الأمر لم يستمر. فتح عينيه، ووجدت أنهما تقولان لي أن أهدأ. لا حاجة للنقاش أو اللعب على حبل الأفكار. من جديد تتراخى عيناه وتضعف وجنتاه وينحدر حاجباه. خرجت دمعة من كل عين، ففي داخل كل دمعة وجه ابنه وابنته، تسقط الدمعتان على خافة السرير.

سمعتُ صوته يسألني عنهما، سقطت يدي على صدره، تراخى جسمي تمامًا، لم يعد هناك جوابٌ في فمي يشفي غليل السؤال. كنتُ حائرًا، تائهًا بين معتركِ التفكير الكثير وبين الصراع. فأنا لم أعد أهتم بعائلته منذ أن قرّرتِ الزوجةُ أن تذهب لبيت أبيها. خرجت كلماتٌ متقطّعةٌ اتحدت بجملةٍ كان يقولها كثيرًا كلما مرَّ أمرٌ صعبٌ عليه: «لهم ربٌّ يرعاهم». وبدلًا من إطلاقِ حسرةٍ حارّةٍ كندمٍ على غياب الفعل، وجدتني أضحك أو لأقل ابتسم، لكنها ابتسامةٌ كانت مخلفةً دموعًا

لم تخرج من عيني. كانت لحظةَ ضعفٍ لهروبِ الإجابة المقنعة أو التي تريح الأعصابَ وتشدُّ العلاقات وتبيّن أهميةَ صلةِ الرحم. لذا بحثتُ عن إجابةٍ غير صادقة. فالصدقُ مؤذٍ ويؤدّي إلى كلامٍ يصعبُ القبولُ به. وإلّا ماذا أقول له؟ هل كبرا وابنه دخل المدرسة، وابنته دخلت الروضة مثلاً، وأنا لا أعرف أيةَ معلومة؟ أدرك أنه لولا راتبُه لكان حال أهلِ بيته صعبًا جدًا، ربما يكون الجميع في حالة تشرّد، لكنَّ الراتبَ جعل لهم المسكنَ والمأوى والقبولَ في الحياة.

هزّني منتظرًا الإجابة، فوجدتني أضحك، وأحول حبل الكلام إلى جهة أخرى وإن كانت بلا ضوء. كان الكلام يدور في رأسي دون أن أنطقه وكأني أخاطبه. ألم تقل لي إن المصائر لا نحددها وإن الله يرعى من لا يرعاه أحد، وأن القدر يرسم لنا ونحن لا قبل لنا برده إلا بالإيمان؟ وجهت نظري إليه. متناسيا أن بإمكانه قراءة أفكاري. تفحصت عينيه، لم أجد فيها الدمعتين، بل وجدت علامة التعجب التي تأكل مني حراكم الحوار. سارعت إلى إكمال الجملة بصوت مسموع: «لا تهتم يا أخي، إن الله معهم جميعًا. لا تخف أبدًا.. اهتم بموتك وجسدك الذي جمعه لك القبر ويوم حسابك حيث لا ينفع مال ولا بنون».

تحاملَ على إجاباتي، وتلفتَ حولي ثم إلى السقف، يلوذ بما ألوذُ به. تمنّيتُ ألّا يكون بيننا جدال حول سؤالٍ ما، إجاباته أن يكون رسول الطريق الذي أبحثُ عنه، كل شيءٍ غائب.

نهضَ واتجهَ إلى النافذة، أزاحَ السيارة قليلاً، فتحرّكت غيمة جديدة لتقطّعَ ضوء النهار. كان يتحدّثُ مع نفسه، ثم راحَ يتحدّثُ مع أبيه الذي أمضى عمره يلوك ذات الكلمات، ويزيدُ عليها بأهمية الانتماء القبلي، وحين مات لم تسألْ عنه القبيلة. كانت علاماتُ الأسئلة تتحرّك أمام عينه، لماذا تقطّعت السبلُ بالناس، لماذا يتم تحشيدهم إذا ما أرادت السياسةُ وإذا ما أرادت الحركاتُ الدينية. تتراقصُ الصور في محيط حركة الغيمة، مستجيبا لرغباتٍ محكومةٍ بالغياب، راسمًا

ابتسامةً طفيفةً فيها ألمٌ واضح. يخرجُ المشهد ليسلّط الضوءَ على تجمعٍّ في مأتمٍ وضعت له ثلاث خيمٍ كبيرة، وأكثر من يافطة وزّعت على أماكن متفرّقةٍ من الحي والمنطقة والزاوية، وأمام مدخل المأتم. «تنعي عشيرةُ الحبيب عائلةَ السيد محمد باستشهاد ولدها ساجد إثر عمل إجرامي جبان بتفجير سيارةٍ مفخّخة قامت به العصاباتُ الإرهابية. الشهيد أخ كل من ماهر وسامر إنا لله وإنا إليه راجعون» كان شيخُ العشيرة يتقدّم الواقفين باستقبال المعزّين وإلى جانبه يقف الأب وولديه. ماهر يقرّب فمه من أذن أبيه ويسأله «هؤلاء كلّهم أقاربنا؟» يضربه الأب بمرفقه ويطالبه بالصمت والانتباه إلى المعزّين والترحيب بهم. ينظر ماهر بشيءٍ من الإمعان. يفرشُ سجادةً حمراء في اليوم الثاني للمأتم. همسَ في أذن أخيه وهو يسأله عن سبب السجادة. يطلبُ ماهر من أخيه سامر أن يهدأ. وسيرى أمرًا. يبتعدُ ماهر قليلًا ويشير إلى بعض المعزّين: ماهر.. انظر إلى الأسفل سترى من يكون منافقًا سيسقط منه الرياء، السجّادة تكشف الزيف. أكانت كميةُ الرياء كبيرةً تلك التي تجمعت على شكل خطواتٍ من لؤمٍ على السجادة؟. في البيت تتلوّى الحقيقة مثل أفعى. يقولُ ماهر لأخيه: «حين مات أبي لم يأتِ حتى شيخ العشيرة لأنّ لا مسؤول جاء للتعزية. مات موت الله».

آه.. أين ذهبت بي الذاكرة. كلّ شيءٍ يتراكم وكان السجادة الحمراء لم تزل ممدودةً في الطرقات.. التظاهرات التي تقيمها جهاتٌ مختلفةٌ، ماذا لو فرشت سجادةَ ماهر ونظرتُ إلى ما يتكوّم عليها. أضحكُ بصوتٍ أشعر به يرتجّ داخلي ويخيفني أيضًا، فربما أتهمُ بالردّة. أتمددُّ على السرير، أجعلني مسجّىً بانتظار البياض لأسأله «أين أنا من كل هذا؟»

المشهد الثامن

البيتُ مَلِيءٌ بالنساءِ، والأصوات تتقاطع وتتعالى وتنخفض في الباحةِ المربَّعةِ الشكل. جميع النّسوةِ بأفواهٍ مفتوحةٍ للكلام. الأمهات والبنات، الملاعقُ تدور في (استكانات) أو أقداح الشاي، والكعك يُغمَّس في الشاي، والشايُ الساخن جَمعَ النّسوةَ على مائدة ثوابٍ اقترحتها أُمُّ ساجد، لتناول كعكِ العباسِ بعد أن ظهرت نتيجةُ فحصِها أنها لا تُعاني إلّا من مرضِ القولونِ الذي لا أحد غيرُ مُصابٍ به، من كثرةِ الحزنِ وحرقةِ الأعصاب. وهو ما تقوله أُمُّ صفية: «ماكو عراقي ما مُصاب بالقولونِ العصبي وغيرِ العصبي... من كثرةِ الأعصابِ المُنفلتةِ والموتِ الذي دخل كل بيتٍ من كثرةِ الحروبِ والانفجارات». تنفرد صفية وهي تجلس على درجةِ السُّلَّمِ بالفخر وتقول: «أنا من أخذَها للطبيبِ وأقنعتُها بإجراء الفحوصاتِ الطبية». ترد أُمُّ ساجد بفرحٍ وبلهجةِ من تريدُ تبيانَ الاهتمام: «صحيح. أنتِ حبيبةٌ وحبابةٌ وحنونة». وتزيد عليها بقولٍ يجعل النِّسوةَ الأخرياتِ ينظرن لبعضهن: «وين أكو مثلچ؟» تنحني أُمُّ صفية وتُقرّب رأسَها من رأسِ أُمِّ ساجد وتقول: «شوفي النِّسوان تغار». وتضحك، ويتعالى الضحك فتبرز امرأةٌ أخرى من الجيران وتقول: «خلونا نضحك وياكم». النساء، وهن يخلعن العَبِيَّ وينزعن الحجاب، فيبرز الشعرُ الناعمُ والخشنُ والأسودُ والمصبوغُ لإخفاءِ الشيب، لم يعلمن بوجودِ أحدٍ في البيت ولم تُخبرهن أُمُّ ساجد بذلك. يتعالى الضحك، وتدور النغماتُ مثل حفلٍ موسيقيٍّ يتردّدُ في الباحة. يصعد الصوتُ وينخفض، فتأتي مع الارتفاعِ طيورُ الفواخت، ومع الانخفاضِ تحضر زرازيرُ أغنيةِ ياس خضر. تنحني ابنةُ الجيرانِ الجالسةُ على

الدرجةِ الثانية من السُّلَّمِ على ظهرِ صفيّة وتهمسُ في أذنِها: «أُمّ ساجد حاطَّة عينها. خطوبة علنية». تضحك صفيّة وتضربها بكفِّها على وجهِها ضربةَ محبةٍ فرِحة. تنظر صفية إلى السماءِ، وتحلق مع الطيور ومع نسماتٍ عليلةٍ مرَّت على وجوهِ الجميع، سحبت بعضَ قطراتِ العرقِ المتصبّب من رقابٍ بلورية. وبغنجٍ تمسك صفيةُ شعرَ صاحبتِها من أعلاه وتسحب الرأسَ إلى فمِها، وتهمس لها بشيءٍ غير صحيح: «إذا تردينه اخْذيه. خل أمّچ تخطب.»

كنتُ مُسَجّىً في حينها. أتأمّلُ دُنيايَ وحالي، ثم استغرقتُ في موتي، أو هكذا خُيِّلَ لي. ثمةَ أصواتٌ أخذت تدخل أذني. بدأت ترتفع في رأسي شيئًا فشيئًا، وبدأت يدٌ تسحبني وتزيل عني مكوثَ الصمتِ الذي استغرق طويلًا. لا أعرف كم مرَّ من الزمن، لكني وجدتُ نفسي على ذات الحال. أخذتني إلى الباب، طرق سمعي خطوطُ الأصوات المتقاطعة. تحرّكت عيناي واتجهتا إلى ثقبِ الباب، تدفعني اليد بشكلٍ أسطوريٍّ لأدخل عيني كلها في الثقب، فتحوّلت الباحة إلى شاشاتٍ عديدة. رأيتُ نساءً كُثرًا في البيت وأمي بوجهٍ آخر فيه من الفرحِ ما يقلل من كمية الحُزنِ التي أثقلت كتفيها. كانت الوحيدة بلا عباءة، والأخريات رمينها على أكتافهن أو وضعنها في الحِجر. كان الحوارُ شبقًا بين نساءٍ كنَّ حتى وقتٍ قريبٍ يدخلنَ في كل البيوت في حالة تسامر. لكن أمّي ومنذ وفاة أبي لم تخرج إلى أيّ بيت، برز السؤال في خاطري. لماذا جمعت أمّي النساء وهي التي تتألّم من هجرة أخي ماهر؟ وهي قبل أيامٍ ذهبت إلى الطبيب بصحبة صفية؟ لم أستطع أن أحسب عددهن لكن على جدار من الباحة، ثمة نساءٌ وصوانٍ فيها استكانات شاي وكعك. رحت أفكر إن كانت لدينا مناسبةٌ مثل الذكرى السنوية لأخي أو لأبي. لم يكن التاريخُ مطابقًا مع المناسبة. كانت عيني تتحرّك داخل ثقبِ الباب، ومع كل حركةٍ تقف عند شاشاتٍ من شاشاتِ تجمعِ الباحة. التقطتُ جلسةَ بناتٍ جميلاتٍ يجلسنَ على درجاتِ السُّلّمِ الأولى. عرفتُ من بينهن صفية،

وأخرى كانت تتردّد على أمّي حين يكون أخي ماهر موجودًا قبل أن يتمرّد على البيت ولا يدخله إلّا قبل النوم ومن ثم يغادره إلى أمريكا. كان هناك استعراضُ جمالٍ بين الفتيات. أنا أعرف ماذا يحصل في مثل هذه التجمّعات في الأفراحِ والأحزان، لعلّ امرأةً تخطب لابنها أو حتى لقريبٍ ولو في منطقةٍ أخرى أو حتى مدينة ثانية، واحدةً من البنات. لقد تغيّر الحال. لم يعد هناك حبٌّ يجمع بين اثنين ويمكن لهما أن يتلقيا في حديقةٍ عامةٍ ـ أو حتى في زيارةٍ إلى أحد الأسواق. بناتُ الزقاق لا يُسمحُ لهن بالخروج وحدهن. حتى في الجامعة كنَّ أكثر خوفًا من أية منطقةٍ أخرى.

كان المشهدُ يأتي كلَّه إلى ثقب البابِ. الأُمُّ تجلس القرفصاءَ في المسافة الفاصلةِ ما بينَ المطبخِ وبابِ غرفتِها، فيما تجلسُ البناتُ على درجاتِ السُلَّمِ وقد بانَ بياضُ سيقانِهنَّ، بينما كانت أثوابُهُنَّ حدائقَ ملوَّنةً مُطرَّزةً بالفراشاتِ. ينظرُ من ثقبِ البابِ بشكلٍ مائلٍ، ويطيرُ السؤالُ من البابِ إلى الباحةِ. لماذا يتجمعنَ بهذه الروحِ الفَرِحةِ إلا أُمَّ ساجدٍ وهي تغمسُ الفرحَ بالحزنِ كلما أرادت أن تضحكَ؟ تنظرُ الأُمُّ إلى الباب المغلَقِ فترتجف العين المُستطلِعةُ. يصدرُ صوتٌ من عينيها: «عيبٌ تنظرُ إلى النسوانِ. ابق في مكانِكَ ميتًا ولا تتحركْ حتى يأتيَك المصيرُ». لكنَّ العينَ تبقى مُلتصِقةً. تنهضُ صَفيةُ وتمشي بشكلٍ راقصٍ، ويبدو ثوبُها المُزركشُ بالزهورِ قصيرًا نازلًا عن ركبتيها، وقد رمت العباءةَ في مكانِها على درجةِ السُلَّمِ. «أنا خالة، أجيب جاي بعد. الخالاتُ فرحاناتٌ بالخبرِ». يطيرُ الكلامُ إلى الغرفةِ ويدخل الأذنينِ، لكن لم يُفسرْه أحدٌ ولا علمَ في الغرفةِ عن أي شيءٍ. كلُّ ما هنالكَ تصوُّرٌ واحدٌ هو الذي ظهرَ على المشهدِ، وهو أنَّ البناتَ يبحثنَ عن أزواجٍ. ينتقلُ المشهدُ إلى الأُمِّ وهي تُغيِّرُ لهجةَ كلامها وتقطع وصل الفرحِ بعد أن تضعَ صفيةُ استكاناتِ الشاي أمام كلّ واحدةٍ منهنَّ، بمساعدةِ الفتاةِ الثانية التي كانَ لها شعرٌ طويلٌ يضربُ أسفلَ ظهرِها حيثُ تضعُ أوَّلَ استكانٍ أمامَ أُمِّ ساجدٍ

وتبتسمُ لها. وتقولُ لها ذائعةَ اسمِها: «شكرًا خالةَ منيرة.. قدِّمي للضيوفِ أولًا». تبتسمُ منيرةُ وتُعيدُ الاستقامةَ إلى جسدِها بعدَ انحناءةٍ مُغريةٍ لوضعِ الاستكانِ. أُمُّ ساجدٍ تُطلقُ حسرةً تجعلُ الجميعَ يتوقَّفْنَ عن الكلام وينتظرنَ ماذا ستقول لهنَّ. وبلا تأخيرٍ تقول: «ابني ماهر هاجر إلى أمريكا، تركني وراح».

يدورُ اصطدامٌ في الباحةِ بينَ الوجوهِ.. وصينيةُ الشاي كادت تسقطُ من يدِ منيرة. تقف بشكلٍ يكشفُ صدمتها، تسابقت في داخلها الكلماتُ وتجمَّعت على شكلِ تأوُّهٍ أطلقتْه مثل ريحٍ سريعةٍ لم تنتبهْ لها إلّا صفيةُ التي تسارعُ إلى أخذِ الصينيةِ منها، وتمازحُها وتسحبُها إلى المطبخِ، حتى لا تنتبهَ النسوةُ إلى حالِها وتأثُّرِها، فتكونَ لُقمَةً للكلامِ عن عشقٍ مدفونٍ. صَفيةُ تُمسكُ منيرةَ من كتفِها، تحاول تهدئتها: «ماذا بكِ.. تريدينَ أن تفضحي نفسَكِ أمام نسوانِ المنطقة؟» تضع منيرةُ رأسَها على كتف صَفيةَ وتهمس لها: «أنا مجنونة. كنتُ أُراسلُهُ ولم يقل لي إنه سيغادر أو يهاجر». ترفع صَفيةُ رأسَ منيرة، تنظرُ بعينيها نظرةً استفهاميةً تعجبيةً: «سودة مَصخّمة! بس رسائل لو صار شيء بينَكُم؟» تستقيم منيرةُ مُستفَزةً من كلام صَفيةَ وتحلف لها: «وروح ابوي لا شيء قد حصل، مجردُ رسائلِ» تأخذ نفسًا ثم تواصل: «كان لا يُجيب على أغلبِها.. كنتُ وحدي مَن تعلّق». تجرُّ صَفيةُ نفسًا عميقًا: «يعني تُحبينَه وما تَعرفين إذا كان يحبّك أو لا؟» تهزُّ منيرة رأسَها، وهي تمسحُ بعضًا من الدموعِ التي تترقرقُ في العينين. تطلبُ منها صَفيةُ أن تغسل وجهَها من حوضِ الماءِ. تحمل صَفيةُ كيسًا من عُلبِ الماءِ، فيما تبدأُ منيرةُ بتوزيعِ العُلبِ على النساء، اللواتي رَحنَ يُخففنَ الأمرَ على أُمّ ساجدٍ. تقولُ أُمُّ منيرةَ: «الله يهنّيهِ.. أغلب الشبابِ هاجروا.. ما عدْهم صبر». تنبزُ واحدةٌ من النسوةِ وكأنَّها تلقفتْ حسرةَ منيرة فنبزتْ: «بس لا يزوِّجُ أمريكيةً دايحةً بالشوارعِ!!.». تصمتُ المرأة ثم تنبزُ بكلامِها وهي توجّهه إلى منيرةَ: «إن شاءَ الله يخطب عراقية ومن بنات المحلةِ». ترتسمُ على وجهِ صَفية ابتسامةٌ

تنقلُها إلى وجهِ منيرة، التي سارعتْ إلى رفعِ ثوبِها بدلالٍ وتلمُّ الأطرافَ داخل فخذيها، فبان جزءٌ من البياض. فيما تركتْ عينها اليمنى تُطارِد وجه أُمّ ساجدٍ لعلَّها تحصل على إشارة. تنبزُ امرأةٌ صاحبةُ شفتينِ كبيرتينِ من اللواتي يُولولن كثيرًا، ويتدخّلنَ في الأمورِ بطريقةِ المزاحِ: «لا خيّة، هذا ما راح ينظر للعراقيات. تريدينَ بأمريكا والنسوانِ عريانَة ما يصير وكيح. وتريدينه يصير حباب؟» ضحكتِ النسوةُ على الكلام، وطارت الأصوات في جوف الباحةِ، ورحنَ يتغامزن بكثيرٍ من المرحِ. أُمُّ ساجدٍ تردُّ بفخرٍ مغموسٍ بالكدرِ: «واللهِ خيّة، أولادي ما عدهم قارش وارش.. بس سوء حظّي. واحد أخذه الإرهاب، والثاني هاجر، والثالث يتأمّل يبحث عن نفسه». تتحرّك صَفية بلا إرادة، تضربُ وتقرصُ منيرة لتعرفها وترشدها أنَّها تُحبُّ سامر. أم منيرة تتحرّك قليلا في جلستها وتسأل: «هل أرسل رسالة تخبركم إن كان قد استقرّ في أيّة مدينة؟» تفركُ أُمُّ ساجدٍ يديها وتتأفّف: «رسالة واحدة على الواتسابِ يخبرني أنَّه وصل واستقر، ولا يبقى بالي عليه»، ثم تطلق تأفّفًا أكبر: «ما أريد منه شي سوى سلامته». لكنَّ كلماتِ المرأةِ لم تزُلْ تضربُ أذني منيرةَ. تهمس إلى صفيةَ، وعلى وجهها علاماتُ استفهامٍ. تُقرّبُ رأسَها من وجهِ منيرةَ: «بس لا صِدق يعملُها ويتزوّج أمريكيةً دايحة!» تنهضُ أُمُّ صَفيةَ: «استأذن حبايب.. أبو صَفيةَ على رجعة من المسجد ويراد أحضر له العشاء». تنهضُ النسوةُ جميعًا.. يتقدّمنَ واحدةً تلوَ الأخرى باتجاهِ البابِ. تتأخّر صَفية ومنيرة، تبقيان بحجّة تقبيلِ أُمِّ ساجدٍ بطريقة من يُظهرن المحبّةَ والوِئامَ. تفهمُ أُمُّ ساجدٍ النظراتِ وطريقةَ التقبيلِ.. تضعُ يدًا على كتفِ كلِّ واحدةٍ وتقولُ بصوتٍ منخفضٍ: «ادعوا من اللهِ تصير القسمة».

أُمسِكُ شعر رأسي، تتكوَّم الأسئلةُ في قبضة يدي، لا شيء غير أشرارٍ مفضوحةٍ تتدرَّب على المشي بين البيوت وتدخلُ آذان الناسِ لتكون مدارَ حديثٍ، كلُّ شيءٍ يهرولُ من أجلِ ألّا يبقى سرٌّ مطروحٌ كما يقولون. يبدو أن الزقاقَ كلَّه يعرفُ

كلَّ شيءٍ عنا. وربما تكون أمّي تعرفُ كلَّ شيءٍ عن أهلِ الزقاقِ.. الأمرُ لا يتعلّقُ بالسوشيال ميديا والتطوّرات التكنولوجية، بل بالألسنِ التي لم تزلْ تذرفُ ما تريد في أيِّ مكانٍ، أو أُذُنٍ مستعدّةٍ لأن تكون مفتوحةً للاستماعِ إلى الأشرارِ. لذا تبقى الاخبار تسري ليس مثل النار بل الألسن تحوّلت إلى شبكة أخبار. امرأةٌ طلّقتْ زوجها لأنَّها وجدتهُ مع امرأةٍ أخرى هي ابنةُ خالتِها أو صديقتُها. رجلٌ يطلقُ زوجتَهُ لأنَّها كانت على علاقةٍ مع أخيهِ لتنجب منه طفلًا بدلًا من أخيهِ المصابِ بالعقمِ. لا شيء يبقى مدفونًا. نحنُ في عصرِ السرعةِ ومنها سرعةُ فيضانِ الأسرارِ التي لا تبقى حتى في رأسِ رجلِ دينٍ، يريدُ أن يكونَ محطَّ نظرِ العالم، فيتهمُ أعراضَ الناسِ دون أن يكونَ للسِّترِ مجالٌ للمكوثِ في دهاليزِ رأسِه.

لذا ارتبكتُ كثيرًا وأنا أهربُ من ثقبِ البابِ إلى السريرِ، فربما لا يأتي النتاجُ من التأملِ لأنَّ الوضع العامَّ أكثرُ رعونة من الحلّ. ربما لأنَّ لا حبَّ ولا جمالَ يستكين أمام المهارةِ الفائقةِ في صنعِ الرذيلةِ والتهكُّم والصراعِ.

صرتُ في حالة قطعٍ مبرمجٍ بينَ التعجّبِ للحالةِ والغضبِ منها. لكنَّ الأسئلةَ برزتْ في جوِّ الغرفةِ الخانقِ هذا اليوم. لماذا هنَّ هنا، وكيف تُدارُ الأمورُ ومتى كانت صفيةُ يدقُّ قلبُها من أجلِ رؤيتي دونَ أن أشعرَ بها؟ وهل كانت منيرةُ تُبادلُ أخي ماهرَ الحبَّ من طرفٍ واحدٍ أم أنَّ ماهرًا كان على علاقةٍ معها بطريقتهِ الخاصةِ لأنه ليس من النوعِ الذي يحرمُ العشق؟ أَنَّ منيرةَ تريدُ استغلالَ هجرةِ ماهرٍ وتفكرُ بالزواجِ منه من أجلِ السفرِ بعد الحصولِ على الجنسيةِ الأمريكية؟ الأسئلةُ تظلُّ تدورُ وترتفعُ وتنزل إلى الأرضِ وتفترشُ حروفَها وتنبت علاماتِ الاستفهامِ. أسمعُ أمّي ترفع صوتَها: «من في الباب؟» تجري بخطواتِها وهي تُوجهُ الكلامَ نحوي: «ظلّ أنت بالغرفة خاتل لأنَّ فقط أنت بالعراق بلا تعيينٍ وتفكر بالموت والحروب ولماذا تُقام؟». غابَ صوتُها للحظاتٍ، كنتُ فيها أُصغي السمعَ لأسمعَ امرأةً عرفتها، إنها أمُّ منيرة. ما الذي أعادها؟ سمعتُ أُمَّي: «هلة وميّة هلا..

ها.. هل نسيت شي؟» تردُّ عليها أمُّ منيرة: «لا واللهِ خيّة.. عندي كلام أريده سر، وأنا أختك وجيران صارلنا خمسين سنة بنفس المنطقة والدربونة» يأخذني سرُّ الكلامِ إلى ثقبِ البابِ، ليس للنظرِ بل لسماعِ السرِّ. وضعتُ أذني اليمنى على البابِ فجاءني الكلامُ واضحًا بلا ريبٍ. لم تقبلْ أن تجلسَ، سمعتُ اعتذارَها من أنَّ الوقتَ ليس للجلوسِ، ولكن هي كلمةٌ: «خيّة، بنيْتي تحبّ ماهر.. إذا أجت القسمة وراد وحدة من العراق، فمنيرة أولى.»

المشهد: أُمُّ ساجدٍ بينَ فرحةٍ ومستغربةٍ. يتورّدُ وجهُها ويتلعثمُ لسانُها: «خيّة.. ما صار كم أسبوعٍ من سافر إلى أمريكا.. خلِّ يستقرّ ويحصل الجنسية.. هاي يرادلها أكثر من خمس سنين». أُمُّ منيرةَ تشعرُ بالخجل. تلفُّ رأسَها بالعباءة لتُخفي احمرارَ وجنتيها وارتباكَ عينيها وتلعثمَ شفتيها. وفي داخلها يدورُ الكلام بالشتيمةِ على ابنتِها التي أصرّتْ على أن تذهب إلى أُمِّ ساجد قبلَ أن تتفّق فتاةٌ أُخرى من فتياتِ الزقاقِ مع أُمّ ساجد. تقولُ لها: «أنا لا أبقى في العراق. أصبح فقط للحربِ والموت والقتل والمظاهرات واستعراض القوّة. أنا فتاة دارسة ولا يحقّ لي أن أتكلم لأن العادات والتقاليد تحوّلتْ إلى تعاليم دينية». تقولُ لها أُمُّها متعجّبةً: «أخاف يسمع أبوك وأخوك ويقْلبون الدنيا علينا». تردُّ منيرة بشيءٍ من الحدّةِ: «لا عليكِ، أنا وأنتِ فقط.. من أسافر لأمريكا يعني أُغيّر حالَكم. هناك فلوس وعمل وحرية».

الأُمُّ تحاول أن تمنعَ ابنتَها من إكمال الحديثِ، تُعاجلها فتقول: «همسّة راح تقولين بعد خمس سنين.. مو مهم.. المهم ما يزوّج هناك على مود يحصل على الجنسية».

الأُمُّ تُصاب بحالةِ استغرابٍ عجيبةٍ، تدفعُها صفيةُ إلى البابِ، ترفعُ عباءةَ الأُمِّ المعلّقة على مسمارٍ في الكليدور، تُساعدُها على وضعِها على رأسِها: «قنعيها تُعطيكِ رقمَ هاتفه حتى أشوف مايَة بِيا نهر؟»

الأُمُّ تخرجُ من بيتِ أُمِّ ساجد، تسحبُ خطواتِها بخجلٍ. تنظرُ إلى الزقاقِ بريبةٍ، مخافةً أن تراها إحدى النساء عائدةً إلى أُمِّ ساجد، فيظلُّ الشيطانُ يدور في رؤوسِ النسوةِ في افتضاحِ السرِّ في الزمنِ الجديد.

تُصيبني صعقةٌ من التي تنزلُ من مكانٍ عالٍ دون أن نراها. أُصابُ بدوارِ الغرفة، على حركةِ دولابِ الهواء الذي فلتتْ أحزمتُه من أسنانِ الحديد. فيما دخلتِ الأوهامُ مخيّلتي إلى كلِّ جزءٍ من المخِّ. يتسرّب سؤالٌ يدورُ أمامي بتعجّبٍ لم أتوقعْه. هل كان ماهرٌ يحبُّ هذه الفتاة؟ أم أنَّ الأمر مثل صفيةَ، مُعجبةٌ وتريد الاقترابَ مني؟ هل كان يتلاعب بها؟ أعرفه، واحدٌ من الذين لا يهتمّون بهذه الأمورِ، ويقول: «الفتاةُ التي تعرضُ نفسها، لستُ مسؤولًا عن افتضاحِ أمرها أو نهايتها. فهي التي تُقدمُ نفسها بحجةِ الحب وتُصدّق ما يقولُه الشاب».

كان أبي يردُّ عليه بزعلٍ غيرِ مسبوقٍ: «إياكَ وهذا الكلام.. الضعفُ لدى الفتاةِ كبير، والرجل الذي هو الرجل عليه ألّا يلعب على عواطف الضعيفات». كان يجمعُنا نحن الثلاثةَ ويوصينا ألّا نكونَ نزقينَ تتابعينَ لغرائزِنا، لأنَّ الأمرَ ليس فقط فضحَ المرأةِ وإيقاعَها، بل إنها مسؤوليةُ عائلةٍ كاملةٍ تُدمر، وربما تكونُ هناك عملياتُ غسلِ العارِ وقتلِ الشابِ ومشاكلُ العشائرِ». يا ملعون ماهر، يقولُ شيئًا ويفعلُ شيئًا. لا تأتي أُمُّ منيرة إذا لم يكن قد فعلَ فعلًا معها..

ضحكتُ بشكلٍ سريعٍ دون أن يخرجَ صوتٌ من فمي. سحبتُ نفسي من الباب، وتركتُ أمي تلوكُ حيرتَها من زيارةِ أُمِّ منيرةَ وما سمعته من صفية. أعرف هذا الأمر. أمي رغم ثقافتِها وعنادِها معي، لكنها رهيفةُ الإحساس. لكنَّ الخوفَ بدأ يطاردني. ماذا لو أنه تَمكَّن منها؟ يا للسؤالِ القاتل.. ستكون هناك خيمٌ تُنصب للعشائر، ويبرز شيخهم الذي سيأتي ومن معه راكبين أحدثَ سيارات (جكسارة والمونيكا) ليُقابل شيخَ العشيرةِ الأخرى ومن معه من أجل تلافي المشاكلِ، وربما يكونُ التهديدُ قويًا.

وجدتني أُحدثُ نفسي وكأنَّ الشيخين حاضرانِ أمامي: «أسمعا.. كان في السابق مثل هذه الأمور لا يكون عليها جلسة عشائرية، لأنها فضيحةٌ، وكان فيها غسل العار هو الحل، لكن يبدو أنَّ الأمر تطور، وصار الفصْل ومئات الملايين، وربما المليارات، هو الأفضل!»

تعبتُ حقًّا، من المراقبة والمتابعة والتأمّل. فتلك مسايرة تلهيني عمّا أسعى إليه، لكن الأمر خارج الإرادة والتوقّع. سمعتُ صوت أمّي من جديد يرحّب بصوت امرأةٍ وهي تدخل إلى الباحة على وقع صوت نعالها. أصختُ السمع دون أن أنظر من ثقب الباب، ثمة قلقٌ انتابني في تلك اللحظة. سمعتُ أمّي تقول: «أهلاً خيّة.. تفضّلي». أسمع نغم صوتٍ خجول، جاء برجاءٍ مختلف. عرفتُ أنه صوت أمِّ صَفِيَّة. ما الذي جاءت به هذه المرأة؟ ماذا ستقول لأمي؟ هل تعرض ابنتها على الزواج مني؟ هل انقلبت الدنيا؟ لاحت لي أفكارٌ غريبة من تلك التي تأتي لقلقٍ منعزل، يعيش وحدته بلا معرفة النهاية. سمعتُ أمَّ صَفِيَّة تقول: «أحنه أخوات وصارلنا عمر بالمنطقة». انحنيتُ على ثقب الباب، لا أستطيع البقاء فقط للاستماع. وجدتُ أمّي في حالة خجلٍ وترقّبٍ وعينها على أمِّ صَفِيَّة وأخرى على باب غرفتي: «أكيد خيّة. ليس بيننا إلّا المحبّة والمودة». خرجت كلمة (بالقربى) من فمي كأني أكمل جملة أمّي. قالت أمُّ صَفِيَّة: «ابنتي شابّة وتعرفين مرّات حتى لو عمرها فوق العشرين لكنها عقلها زغير.. فأخاف نوّهت لك بكلمة هنا أو هناك فلا تأخذين كلامها إلّا بطيب خاطر». تتردّد أمّي وتتنفّس بعمقٍ مثلما تنفّست: «يا خيّة، ابنتك صَفِيَّة مثل بنتي. هي التي أخذتني للطبيب». ابتسمت أمُّ صَفِيَّة بهدوءٍ وخجلٍ طاغٍ: «صدقتِ.. هي مثل ما تقولين وأحنه أهل». لم تترك أمّي المرأة تغادر، وهي تلفّ جسدها باتجاه باب البيت إلّا واردفتها بالقول بصورةٍ رفعت معها نبرتها ليصل الكلام لي: «تريدين الصدق.. إذا فكّر سامر بالزواج ما راح أجد أحسن من صَفِيَّة زوجة له». لم أَرَ وجه أمِّ صَفِيَّة، ولم أسمع

كلّ الكلام إلّا جملةً وصلتني من نهايتها قبل أن يُغلق الباب: «كل شيء قسمة ونصيب.»

وضعتُ ظهري على جدار النافذة قرب الزاوية البعيدة. ورحتُ أضحك.. شعرتُ بشيءٍ يدغدغني، ويؤكّد لي صدقَ حدسي من أن الجميع يعلم بما حلّ بنا، وأن لا سرَّ يبقى بين أفواه العائلة الواحدة. وربما وردَ ذلك في نشرات الأخبار ومواقع الفيسبوك. ربما أخي ماهر نشر على صفحته أنه في أمريكا، وأنه غادر العراق غير متأسّف.. أعرف ماذا سيقول أخي. وأستدرك معاني الكلمات. تلك قدرتي على الفراسة. أضحك على فراستي. ربما هو شعورٌ بالراحة استمر لبضعة ثوانٍ.. حيث بدأ شيءٌ ينغز في داخلي، وتحوّل إلى شاشةٍ أرى فيها الألسنَ وهي تلوك الكلمات وتنهش لحمي. رأيتُ لسانَ أمّي وهي تصفني بالمجنون والمخبّل. ربما تتحدّث حتى مع بائعة الخضرة وتخبرها أن ابنها سامر فقد عقله. وتمرّدَ على السماء، وأنا متمرّدٌ على الواقع. المفهوم الخاطئ لكلّ سؤالٍ أو محاولةٍ للحصول على إجابة. أتخيّل بائعة الخضرة تسألها: «هل عرفتِ الأسباب؟ ماهرٌ سافر، عرفنا.. شاردٌ من السياسة. سامر ما به منعزل». أمّي طبعًا لا تجيب لأنها لا تريد فضح كمل الأمور. ولكني تخيلتُ أني أنا من يقف أمام بائعة الخضرة وأقول لها: «هل فهمتُ أنا الأسباب حتى أنتِ تفهمين الحُجّة؟»

المشهد التاسع

الزقاقُ مظلمٌ. انقطعَ التيارُ الكهربائيُّ، والمولِّدةُ التي تنتج الكهرباءَ، والتي تقعُ على بُعد 100 مترٍ من البيتِ في الساحةِ التي كانت في مخططِ البلديةِ ملعبًا أو حديقةً للأطفالِ، تم نصبُ مولِّدةٍ فيها، وتفرَّعتْ من خلالها عشرات الأسلاكِ الكهربائية، التي صارتْ أكثر فوضىً من بيوت العناكب العملاقة، التي تنتجُها السينما الهوليوودية. صمتٌ يرافق الظلام ريثما يتمُّ تشغيل المولّدة. أمٌّ ساجدٍ تشغّل مصباحَ هاتفِها النقالِ وراحتْ تتابعُ الصمتَ في الباحة. تنظر إلى السماءِ فلا تجد النجومَ. حدّثتْ نفسها بشكلٍ مسموعٍ: «حتى النجوم اختفتْ.. لا غيم، لا شتا، ولا مطر، والنجوم ضاعتْ». تمسكُ باليد الأخرى ورقةً مطويةً جعلتها مروحةً تجلبُ الهواءَ، فيتحول مع قطرات عرقٍ نزلتْ على رقبتها إلى نسمةٍ شبه منعشةٍ. تبرق صورٌ على الجدرانِ متقاطعةً مع ضوءِ الهاتفِ. تنبهتْ إلى أنْ لا ضوء يتسرّب من غرفةِ المحبس. سواءٌ من ثقبِ الباب، أو من الناحية السفلية ما بين الباب والأرضية. تهزّ رأسها وتفرك أصابعها وتعودُ لتشاهدَ ما يعرضهُ الهاتفُ النقال. تخاطبه: «صرت أنتَ سلوتي وفرحتي بهذه الدنيا الفانية.. أنتَ أحسن من الولدِ الذي حتى ما يكلّم أمه. ما أدري ينتظر الوحي؟» قالتها بشيءٍ من السخرية. فعادتْ إليها صورٌ تتقاطعُ خلفها على الجدارِ، ولكنْ هذه المرّة صارت على شكلِ ظلٍّ لأشياءٍ أصابتها بالخوف. توقفتْ قليلًا عن التنفس لتشيّعَ خوفها: «أنا أمُّك يا ساجد». تلتفتُ يمينًا وشمالًا لتعرفَ مصدرَ الضوءِ والظلالِ وهما يمرّانِ لمرتين، تحاول إزالةَ

التشويش.. تنهضُ من مكانها، على ضوء المصباح إلى المغسلةِ تتوضأُ لتصلي وهي تعوذُ باللهِ من الشيطان.

في الظلامِ وقبل تشغيل المولِّدة الذي يتأخّرُ فيها مشغّلُها عمدًا، ليحصل على كميةٍ من الوقود غير المحروقة، كنتُ أسمعُ أمّي تعوّذُ بالشيطان، قلتُ ربما هي وحدها وهذا الظلام طالَ هذه المرّة. لذا أخذتِ الرؤيا تصارعها.. لم أهتمّ للأمر. فأنا أريدُ الظلام كي أتبيّن الضياء أو البياض أو أيّ شيءٍ لامعٍ قد يبرقُ مرّةً أخرى، لذا رحتُ أمارسُ الرياضة، أغمضُ عينيَّ لأزيد كميةَ الظلام، أتعايشُ معه، أتدرّبُ على ظلمة الموتى والتفاعل مع الحالة. حقيقةً أعجبتني الفكرة. أمارسُ دور الميّتِ في مكانٍ مظلمٍ، فالغرفةُ بدأت تضيق كلّما مرّتِ الساعاتُ دون أن أصلَ إلى مبتغاي. ولم تزلِ الأسئلةُ تتناسل وتملأ الجدران ولا تُفتحُ السقف، ولا شيءٍ في الطريقِ إلى السماء، غيرَ أكْداسٍ من كلماتٍ خرجتْ من كتبٍ أو منابر ليس لي معها تفاهمٌ لتناقضها. أنا أبحثُ عن الوضوحِ والصدقِ بلا صراعٍ.

أطفأتُ المصباحَ حتى لا يضيءَ إذا ما أُعيدتْ الطاقةُ الكهربائية، لم أتلّمس الخطواتِ لأصلَ إلى السرير، وعلى مهلٍ مددتُ جسدي على الفراش، بلا وسادة. كان رأسي باتجاهِ السقف، ويداي إلى جانبي، وأنفي أعلى ما في جسدي. أغمضتُ عينيَّ، وقطعتُ نفسي، مكتفيًا بتنفّسٍ بطيءٍ كلما اختنقتُ، لأساعدني على تحملِ الزمن. خاطبتُ نفسي على قدرتي على هذا التحمّل وعدم وجودِ رقةٍ، ولا إحساسَ بالوجود، ولا استطاعةً على مغادرة الأفكار، كلّما مرَّ الوقت صارَ الأمرُ أكثر عنادًا. وكلّما حاولتُ أن أغافلَ العناد لأخرجَ تأتيني فكرةُ العناد ذاتها وتخاطبني: «لا فائدةَ ولا معنى من الخروج.. لأنك ستعودُ ربما أكثر قسوةً على نفسك». وجدتُ نفسي تحدّثني بنبرةٍ ساخنة، سرعان ما تحوّلت إلى نبرةِ الجليدِ الذي يجعلُ كلَّ الأشياءِ ترتجفُ من البرد، ثم إلى جلدِ الذات. تأتيني فكرةٌ ليست طارئةً، لكنها تزيدُ من العنادِ والاستمرار. أن أتابعَ وأنا مغمضُ العينين إلى مشهدِ الموتى.

رفعت صوتي باتجاه السقف، فانفتح بياض سماوي، هطل على حافة السرير، وبان مثل منطقة يانعة، فيها هبوب نسائم منعشة. في اللحظة التي هبّت فيها ريحٌ قوية آتية من الزقاق، تحوّلت إلى زوبعة، خلعت مسامير النافذة، وطارت الستارة، ثم دخلت الريح محاولة سحب كل شيء وقذفه إلى الخارج. تشبثت بحافة السرير بكل شدة، معاصرًا أصابعي على نتف البياض، التي تحوّلت إلى يد تمسكني كي لا أطير إلى الخارج.. الظلام يتكدّس ولا يبان شيء. وجّهت بصري إلى ما أراه ممسكًا بحافّة السرير، ثمة شعاعٌ بدأ يزداد وضوحًا، فتبدو الأشكال واضحةً أمامي. يُعاد السؤال، أقذفه من فمي إلى طرق المكان، حيث يدور في الغرفة ويستقرّ في أذني، فيما تستقرّ في عيني صور الموت والقصف والاحتجاجات التي تجوب العالم، والأدعية التي تملأ الجامع والحسينيات والمساجد. وجدتني أقول ما أريد كأنّ شيئًا أتاح لي فرصة إيصال صوتي بلا سقف: «إلى متى نموت؟ ألا يكفي الموت؟» لم أسمع حتى صداه. كانت الريح تدور في منتصف الغرفة، لا تلمس السرير، تحرّكت حتى أكرة الباب الذي بدأت أصواتٌ مختلفة تأتي من خلفه: «متى تنتهي الحروب ونعيش بسلام؟ نحن، من كان منّا من أهدانا السبيل؟» وجدت أسئلةً المشهد تتقافز أمامي بلا رحمةٍ، تتقاطع بشكلٍ ملفتٍ للنظر. أسئلةٌ بعلامات استفهامٍ لها أشكالٌ وأحجامٌ مختلفةٌ: «هل تنفع التظاهرات التي بعضها صادقٌ وبعضها متاجرةٌ من هذه الدولة أو تلك؟ حتى من سياسيينا الذين يستغلّون كلّ شيءٍ لرفع راياتهم وصورهم، لإدامة حضورهم وتغطية سيئاتهم وزيادة سمك السقوف». وجدت لساني يتحدّث بلا إرادةٍ كأنّ الجمل مكتوبة عليه: «لقد زادت المتاجرات بالآيات القرآنية التي تفرعّت منها تفاسير جديدةٌ وتعدّدت مآربها».

تحرّكت كتلةُ البياض، صعدت مثل كفٍّ كبيرةٍ إلى السقف. شعرتُ أن النهاية اقتربت، وأن الصفعة ستكون قويّةً، عقابًا لما اقترفتُ من آثامٍ لا يُحمد عقباها.

حتى تخيّلتُ العاقبةَ أكثر مرارةً. أغمضتُ عينيّ بشدّة، شعرتُ بانقباض قلبي، ووجدتُني مُسجّى، بلا تفكير، تلاحقني اضطراباتٌ عنيفة. حاولتُ الإمساك بأيِّ جوابٍ يدور بين الكلمات، مُقنِعًا حالتي بأن جوابًا سيأتي، ولو واحدًا يجمع تحت جناحيه كلّ أجوبة الأسئلة. وجّهتُ بصري إلى زوايا عديدة، فلم أَرَ شيئًا، حتى عندما عادت الكهرباء، كان المصباح يقف على مسافةٍ بعيدةٍ، فيبدو مجرّةً لا تُضيء. ظلّ الأمر يبدو شاحبًا أيضًا. وهو يؤذيني ويجعل من نفسه أنه ذنبي الوحيد أو الكبير، لذا كلّما أردتُ أن أفتشَ في الموضوع، أعودُ إلى ذات النقطة.

لم أَتخلّص من تلك التبعات، حتى سمعتُ بكاءَ طفلٍ يأتي من النافذة. بكاءٌ أخرجني من دوّامة ما كنتُ فيه لزمانٍ لا أدريه. انتبهتُ إلى أن كلَّ شيءٍ على حاله، وكلّ ما كان له حضور إلّا البياض أو ما كان على طرف السرير. رحتُ أفكّر بملاحقة اللعنات، هكذا خيّل لي. أطلقتُ العنان للتنفّس كي أرتّب أوضاعي، وأخلّص نفسي وتفكيري من الإحباط. شعورٌ غريبٌ ذلك الذي انتابني في المشهد الخاص بي. لكني رحتُ أفتّش عن الغرابة مثلما أفتّش عن القناعة. رحتُ أتلّمس الأرض كي لا تضيع الهمّة، أجمع بقايا القناعة قبل أن تفقد معناها وفق ما رأيته من تلك الرياح والأصوات التي رافقت حضور البياض. لكني حتى الآن لم أُمسك خيطًا أو طرفًا من الحقيقة التي أريدها. زمن التيه لم يزل معي.

وقفتُ في منتصف الغرفة. لا صوت يأتيني من أمي، ولا رسالة أتلقاها من الواتساب، أو حتى رنّة هاتف من صديقي حامد. رحتُ أتقمّص دور المرشد للأشياء، لكن صورة الموتى تئنّ في رأسي، الجنائز تتحدّث. أسمع صوتها وهي ترتفع، لم أستطع معرفة ما تقوله، لكني على الأقل أسمع همهماتٍ وتأفّفات، مثلما أسمع حمدًا تارةً وغضبًا تارةً أخرى. لكن حالةً غريبةً انتابتني، متداخلةً مع شعورٍ غير معروف. لحظةً أحسستُ أن يدًا سحبتني، أخذتني إلى السرير لأعود إلى حالةِ المسجَّى.

ضوء يغمر الغرفة، والهدوء يسري، تتساقط قطرات ماءٍ على عنق المكان فيرطب قطرات العرق المتصبّبة من أركان الغرفة. يحمل النسيم الماء ويبدأ بسقي الزوايا، فتنتعش الرؤية على مكانٍ واسعٍ فيه خضرةٌ وأيكةٌ وأسرّةٌ وعصافيرُ تزقزق. تخرج صورةُ الأبِ على الجدار المقابل للسرير، وصورةُ الساجدِ على الجدار الذي فيه باب الغرفة، فيما خرجت صورةُ ماهرٍ على جدار النافذة. الأب في حالة زعلٍ مما يجري، يهاجم بعَتَبٍ شديدٍ الأبناء: «كلّ شيءٍ لا ينفعكم إن لم تحافظوا على صلة الرحم». يحني الساجدُ رأسه إلى الأرض، فيما يمسك ماهرُ الستارة. الأب يواصل الكلام: «من لا يحافظ على أهل بيته لا يحافظ على الآخرين. ما نفع أن تنتصر لغيرك وأنت لا تنتصر لنفسك؟ عقوبة المقصّر ألعنُ من عقوبة شارب الخمر». ينتهز ماهرُ الفرصة ويصيح: «رحم الله والديك، هذا هو الكلام، ما نفع أن تكون مؤمنًا مؤدّيًا للفرائض وأنت لا تهتمّ بصلة الرحم؟» يستفزّ ساجد، ويخرج الكلام من جوفه بهدوء: «أنا لا أعمل على قطع الصلة، بل أريد الإيمان يعمّر القلوب.. الصلة بالله هي الصلاة. فكيف أكون مؤمنًا وأخي لا يصلّي؟» تحرّك السؤال من الباب إلى النافذة ومرّ على الأبِ الذي أوقفه، قبل أن يستلمه ماهر. الأب، وهو يشير بغضبٍ إلى شيءٍ أمامه، يقول: «الإيمان يجمع كلّ شيء، لا معنى للإيمان وسط تعصّب الآراء. أنا عشت في مجتمعٍ لم تكن فيه القطيعة بين الإخوة بسبب الصلاة». رفع ساجدُ صوته ليعيد وجه الأب إليه: « هي طريق إلى النجاح لا إلى المقاطعة.. لكن هناك من يقايض لذّة الحياة مقابلة مآثر الآخرة».». تحرّك ماهرُ فتتحرك الستارة، قبل أن يمسك الأب بكلام ساجد ويردّ عليه: «هذه غيبياتكم التي تمسكون بها أيّ شيء، وهي لا تتعدّى كونها أقوالًا وروايات». يجد ماهرُ الجوّ له، وأنّ لا أحدَ ردّ عليه، فيمضي بالقول: «نحن نعيش الموت من زمنٍ إلى زمنٍ دون أن يحلّها إلهُكم أو يتدخل لإنهائها». يصرخ الأب بشكلٍ يهتزّ معه الجدران وتهتزّ صور الإخوة، ويستغلّها ساجد ويكلّم والده

فيما أصبع صبابته يشير بتوعّدٍ كبير: «أسمعت كفره وإلحاده؟ إنه يقول إلهكم». يردّ ماهر قبل أن تغمض عيناه الأب: «نعم، إلهكم.. لأن الله الذي أعبده لا يحتاج إلى قصصٍ وروايات، بل يحتاج إلى الالتزام والسلام. وأنتم دعاة تعصّبٍ وانتقام». يصفرّ وجهُ الأب، ويداخله الغضب، وأنفاسه تتقطّع. ويبدأ بعصر أصابعه، يحاول أن يقلّل من بصره كي يكبت عصبية الكلام: «الدين لا يفرّق». يردّ ساجد: «أنا لا أخترع أو أبتكر علمًا لي وحدي، هذا ما تبثّه الكتب والتفاسير». يردّ ماهر بسرعة: «هذا ما نبّه به ربّنا الأعلى.. الله الذي أعبده بطريقتي.. أنت وغيرك تسيرون على ما تقوله الكتب وتنسون الآية: ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾. أنتم لا تفكّرون إلا من خلال الآخرين الذين لم يتفق عليهم أحد، ولستُ مجبرًا على أن آخذ ما لم يتفق عليه». يصرخ الأبُ قبل أن يتكلّم ساجد: «لم نكن إلا في الطيبة التي وجدنا عليها آباءَنا.. حتى في أداء الصلاة.. هذا جامعُنا في بداية الزقاق يصلي فيه الجميع.. والمناسبات الدينية الجميع يشارك فيها.. ما بالكم وقد اختلفتم؟»

ينهمر صوتُ الآذان من جامعٍ بعيد. يفرح ساجد ويقول: «لنصلِّ». ينبري ماهر بخباثةٍ واضحة: «اصبر حتى يؤذّن جامعُ المنطقة». يفهم الآن مقصده فيردّ بقوله: «أنت لا تفرّق بين العبادة وبين الخلاف، لذا تستغلّ هذه الأمور لتنمية آرائك». يشعر ساجد بالراحة من كلام الأب. لكن ماهر يتحرّك من جداره ليتقرّب من حافة السرير: «البدايات الأولى هي التي قادت إلى ما نحن فيه، الأساس هو الذي يتم البناء عليه، والأساس انطلق حين بدأت الخلافات والتفاسير». يبتعد ساجد عن جدار الباب ويطلق كلمةً بغضبٍ واضح: «أنتم تختمون بكلماتِ الكفَرة لا بكلمات القرآن». يصرخ الأب وهو يشير إلى ماهر ألا يسكت: «لا أعرف لماذا تفرّقتم وأنتم من بطنٍ واحدةٍ وظهرٍ واحدٍ وبيئةٍ واحدة.»

تصرخ أمي: «البيتُ مسكون يا إلهي! أسمع الكثير من الأشياء التي لا يصدّقها

العقل، بتّ أخاف». كانت تريدني أن أسمع، تعلن أنها خائفة، ولكن لا أعرف لماذا. هل سمعت الحوار داخل الغرفة؟ هل كنت حقًا أسمع أنا الحوارات؟ كنت لم أزل مسجّى، وضعت ساعدي على وجهي وأخفيت أذني التي باتجاه الباب. لكن صوتها وصلني، كأنها وقفت عند العتبة. فتحت عيني فاختفت الوجوه. سمعت بعضًا من نشيجِها، تمنّيت لو احتضنتها، أن أفتح الباب بشكلٍ يختلف عن أيّة حركةٍ سابقة. حين أفتح الباب للتبوّل، عليّ أن أتأكد ألّا أراها. هي تعرف ذلك، لذا تدخل غرفتها وتغلق الباب. تمنّيت أن أبدّل جولات بصري بتحديد رسم صدرها، لأنام هناك. أضغط ساعدي على وجهي، في معاندةٍ غريبة. ومع ذلك يصلني صوتها على شكل همهمات، حروفٌ متقطّعة، تتحوّل الغرفة إلى دورانٍ للصدى. تخيّلت أني أنظر في عينيها وأحدثها. شيء ما ينفتح من سماء الباحة، ينزل على شكل نسماتٍ هادئة، تعيد ترطيب وجهي اليابس. كنت أريد أن أعيد التفكير بأن وجودها لا يشبه وجود فزاعة في حقل عنبر. تبعد عني المخاوف، تساءلت: ماذا لو لم تكن أمي في البيت أساسًا؟ ماذا لو أنها أفرغت البيت من وجودها وذهبت إلى بيت أبيها، ماذا سيكون حالي؟ لم أفكر بهذا من قبل، لكني أرجعت سبب تقليل خوفي من الأصوات والظلام والرعب إلى وجودها. تمنيت لو سألتها: لماذا تكرهينني وأنا ابنك الذي كنتِ تقولين دومًا «بزر كعدة» وآخر العنقود و«بزر الشيب لو دللته ماهو عيب»؟ لكنه لم يكن هناك دلال، الذي لم أر منه سوى الغضب والظلم والانفصام والانطواء، والتفكير المتخبّط بين الواقع والمخيّلة. صراع الأفكار بين ما كان ويكون.

قفزت فزعًا، والكلام يخرج من فمي قبل أن أستقيم في جلستي فوق السرير: «وما علاقة أمي بذلك؟ أنا والمجتمع. أمي تريدني أن أكون جميلًا وهادئًا وأن أعيش بسلام، لكن المجتمع لا يريد ذلك، إما تابعًا أو صامتًا».

أدرك أن البيتَ شبه مهجور. فيه مصباحٌ واحدٌ يضيء زوايا الباحة، يساعده

مصباح المطبخ الذي يعطي انطباعًا أن الحياةَ شبه متوقفة، فيما مصباح ممر باب الدار انتهى مفعوله منذ زمن وفاة الأب ولم يبدله أحد. أشعر أن أمي خلف الباب، تنظر لي من ثقب الباب، تريد أن ترى ماذا يحصل في الغرفة طوال هذه الفترة الزمنية. تريد أن تكسر الروتين الذي أصبح عليه البيت. تخيلت أني أدخلها الغرفة وأجلسها بالقرب من النافذة. مسحت عن وجهها تجاعيد الحزن والألم، برمتُ على ركبتي أمامها، شعرت حينها بشيء ما يجوب صدري، وأن بياضًا بدأ ينزل بهدوءٍ مثل بخار دافئ. رحت أتمعن في وجهها. كانت حزينةً جدًا، لا تفتح عينيها، منكفئةً على صمتها. تضع يديها وسط فخذيها، حيث نمت هناك زمن الطفولة كله. كان زمنًا أطول من زمن أخويّ الاثنين. وجدتني أقول لها: «اعذريني يا أمي، فقد نشبت أظافري بالغياب، وتمسك عقلي بالأسئلة، ونما شوك الشك في داخلي، وصرت أُصارع روحي جراء هذا الواقع القبيح. واقع لا يشبه واقع أبي، فقد أخذ مني أخي الطيب ساجد، وجعل أخي ماهر يهرب منه. واقع جعلهما يتصارعان حول الحياة والممات وهما لا يعرفان سبب كل هذا القتل الذي يحصل، ونحن في الاثنين لم نحصد شيئًا». تحركت أمي متململةً من كلامي، تُخرج علامات بائسة من حركتها، مليئة بالملامة والعتاب. مسكتُ رأسها لأجعلها تنظر لي، أجهشت بالبكاء. رأيتُ الدمع ينزل قطراتٍ كبيرة. كبيرة بحجم كفي الذي سقطت فيه. رفعتُ دمعها وغسلت وجهي، شعرتُ بعطشٍ كبير، عطشٍ ليس له حدود الوصف. داخلي خشبة أحرقتها الشمس، وتيبست ساقاي على الأرض. قلت لها: «سامحيني يا أمي، ليس باستطاعتي الخروج.. تحملي حيث تقدرين. حتى يأتي الفعل، فأنا أخاف القتل الذي يأتي بطلقةٍ أو انفجارٍ أو حتى من خلال كلمةٍ تُعد كفرًا أو تهمة تُعد مصدرًا للمواجهة.»

خارج الغرفة تعالت أصوات صاخبة، مخيفة. تضرب النافذة مثلما تضرب باب الغرفة، وتجعل من حفيفها داخل الباحة كأن شيئًا سيطير. كانت الآن تدفع

بالأصوات لتبعدها عن باب الغرفة. غموض كبير يتقاسم الحالة.. الأم تكبر ولا شيء يتغير. الأصوات أخذت تضرب السطح، فيما تعالت أصوات الجيران في الزقاق الطويل. وعيون تحيط بالبيت، وثمة أسئلة تخرج من الأفواه: «ما الذي يجري في بيت أم سجاد؟»

يهزّني صوت الهاتف النقال، أتنفس بعمق.. أهز رأسي محوقلًا.. أمد يدي إلى الهاتف. كانت رسالة من أمي: «اطلع إخذ عشاك.»

المشهد العاشر

دفعتُ الباب بكلتا يديّ، كمن يدفع سيارةً عاطلة، لأمنع أحدًا من الدخول. تلقّفني الألم من جديد واحتضن قلقي. أشعر أنّ كلّ الأشياء تقف بالضدّ من مساعي، لذا لم أحصل بعد على المراد، ولم ينزل عليّ الهدوء، ولم تحضر الأجوبة. وكنتُ أُسعِر الزمن بطيئًا جدًا. القتل لم يتوقّف في بلدي، ولم يتوقّف في غزة. والخرائط يُراد لها أن تتغيّر. والماضي يحضر بقوة لنعيش فيه على وقع أصوات المنابر وما يبثّه أصحاب الأفواه المبعثرة لأوراق الحياة.

أشعر أن القلق يزداد في رأسي، وينافسه الفراغ. الأجواء حولي غير مريحة، والصور تتوالى فتغيب معها حواسّ الزمن والمكان والألم. تركت الباب، بعد أن خدّرت راحتاي من انضغاطهما على خشب الباب العتيق. تقدّمت بضع خطواتٍ باتجاه السرير. زاويتا الغرفة المقابلتان للسرير صارتا أوسع لجسدي، ألوذ بهما كلما تعبتُ من التمدّد على السرير. قرفصت في الزاوية القريبة من الباب، على خطّ مستقيمٍ لأكون في مواجهة النافذة. لا شيء يأتي منها حتى الريح أو بصيص الضوء. حضر حامد بوجه كالح، يقدّم ساقيه بتعبٍ مفضوحٍ وانعدامٍ للرؤية. قلت له: «تمنّيت أن تتّصل لتنقل لي ما يحصل، وتجيب على عدد القتلى والموتى». لا يجيب. ظلّ ساهماً أمامي. أسأله: «أمام كلّ هذا العدد الكبير من القتلى الشهداء، هل يولد آخرون؟ هل هؤلاء أشباح؟ كلّما قُتل واحدٌ منهم خرج آخر؟ وكلّما دمّروا نفقًا ظهر آخر؟» يضحك حامد، وفي ضحكته سخريةٌ على أسئلتي. يطيل النظر في عينيّ

فيصيبني الإرباك. أمدّد ساقيّ على الأرض، وأسند ظهري برهافةٍ على الجدار، كمن يستريح من تعبٍ طويل.

أجلستُ حامد بالقرب مني. قلت له: «تعال هنا، ولا تغلق فمك. أنا بحاجةٍ إلى أجوبة. أجبني عما يحصل» كنت أسمع صراخ رجالٍ وهم يتوعّدون بالنصر. أسمع بكاء أطفالٍ وهم يردّدون الغيث والاستجارة، وفي حلوقهم العطش وفي بطونهم الجوع، فيما مشهد العمارات والأسواق والمستشفيات عبارة عن انقاض ومشاهد تهديم مكدّسة. مشاهد تتكرّر يومياً أمامي، رأسي مخيّلة تلفزيونية، بلا صوت، مظاهرات في العالم كلّه، حتى في الجامعات الأمريكية، وتظاهرات يهود غير راضين عن الحرب. والسماء لا توقّف الحرب. تيبّس وجه حامد، أطلق نحوي نظراتٍ معاتبة. حامد ذو الوجه الضحوك غاب عنه المرح، ذكّرني بوجه ماهر، لكنه أسقط كلماته أمامي: «ألَم تقل لي من قبل إن الله يحاسبنا حين نموت على أفعالنا؟ هذه أفعال الشياطين، سيحاسبهم الله». أمسكته من ذراعه قبل أن يتحرّك عنّي بخطوات. قلت له: «الصور تختلف. هنا من يصرخ للنصرة وهو يجلس في الفضائيات والناس تقتل». أفلت يده من قبضتي، دفعني إلى اتجاهٍ آخر، وجدتني فيه ألمّ ساقيّ وأنهض لأمنعه من الخروج. صرخت بلا وعي: «مدد.. مدد.. مدد!» ارتدّ الصوت خليطًا من قوّةٍ تخالطها ضحكةٌ باهتة.

أردتُ أن أزيحَ الصور وأتشبَّثَ بيد حامدٍ، ليعطيني التصوّراتِ. وأزيد من عددِ أسئلتي. كانت الصورُ هي التي تتشبَّثُ في رأسي، وتزدحمُ وتتوزعُ وتأتي على شكلِ دفعاتٍ لتتكوَّمَ أمامي.. ثم تتحرَّكُ واحدةً تلو الأخرى لتستعرضَ على الجدرانِ، ثم رأيتُ ما يراه الجميعُ. أوقفتُ الحوارَ مع نفسي، وأعدتُ إمساك يدِ حامدٍ. قبل أن يخرج من بابِ الغرفة.. أخذته إلى النافذة، قلتُ له: هذا مشهدُ تدميرِ دبابةِ ميركافا بقذيفةٍ أر بي جي. كاميرا مركَّبةٌ على سبطانةٍ، تخرجُ من بينِ أنقاضِ عمارةٍ أو بيتٍ، يتحرَّكُ خلفَ ستارةٍ من قماشِ سريرٍ، ثم يكبر ويرمي،

وتظهرُ الصورةُ أن الدبابةَ تحترقُ. يهزُّ رأسه علامة أنه يعرف الأمورَ وسبق له أن شاهدَ الكثيرَ منها. أعودُ لأشيرَ إلى مشهدٍ آخرَ. وهذا مشهدُ غارةٍ بطائراتٍ حربيةٍ ومسيرةٍ على مكانٍ يدمر مستشفياتٍ.. يسألني بعينه عن مقصدي، أجيبه عن المعادلة. يفلتُ ساعدهُ من قبضتي، أخبرهُ أني لا أستجير ولا أقارن، أنا أستفسر عن معادلة الموتِ. يدفعني. أسقطُ على السريرِ. ألمٌ في ظهري. وقبل أن أتفوه بكلمة اعتذارٍ له حتى لا يخرجَ. أسمعُ صوتَ اصطفاقِ الباب. أرى البابَ يهتزُّ، يخرجُ من بيتِ تشقُّقاتهِ دودٌ أصفر، يصعد حول البابِ في حركةٍ دائريةٍ ثم يعود إلى مكانه في الشقوق. وبلحظةٍ أسمعُ صوت تفجيرٍ، لا أعرفُ إن كان من غارةٍ أو عبوةٍ أو سيارةٍ مفخخةٍ، لكن الباب ارتجَّ، جعلني أمسكُ رأسي وأدفنهُ بين يدي.

حاولتُ العودة إلى رشدي، أخرجتُ رأسي من بين ذراعي، وتنفّستُ قليلًا، فوجدتُ نفسي في حالةٍ أُخرى تُلهبني بالمزيد من القوة. وجدتُني مُسجًى. لا شيء يتحرّكُ على صدري من عمليةِ التنفّس البطيئة، لذا قلتُ إنّ عليّ إدامة الموقف وكسب الوقت. ارتحتُ لمغادرة حامد المشهد. وهجمتُ على استقراري أن يبدأ فعله ولا يذهب إلى التخلخل. لحظةً انهمر البياضُ من السقفِ، رؤيةٌ عجيبةٌ انتابتني وأنا أراهُ يأتي من أماكن عاليةٍ جدًا، يخترقُ السقف، وعلى مهلٍ يكون على السريرِ، جالسًا بصورةٍ من يعلم أين يكون. تحرّكَ ذقني إلى الأعلى، لأكون بالضبط كما المُسجّى، مُحنّطًا مُستعدًا لأيّ شيء. سمعتُ صوتًا يهزّني، بدا مثل رعشةٍ من ساقيّ الاثنتين، يأتي من بعيد، محمَّلًا على ريحٍ لا تثير الرعب: «أعرف سؤالك، أو أسئلتك فلا تتنابز بالأحجية، ولا تتدارك بالتفاسير، ولا تخلط بالمعاني. كلٌّ له مسعاه ومعناه وحُجَجه، وطريقة جهاده وحضورك».. شيءٌ غريبٌ لم أشعر به من قبل انتابني هذه المرّة. جعلني والخوف صنوان. رأيت أشياءً صالحةً تعبر من جنبي، رأيت الخوف محمَّلًا بأشكالٍ مرعبةٍ تمرُّ إلى جانبي، وبدون إرادة رفعت صوتي، كردّة فعلٍ لم أتأكد إلى أيٍّ اتجاه سيصل صوتي

العالي: «لكنّي لم أقتنع أن نبقى كما نحن نعيش في الأقوال والموت بانتظار الانتصار. في النهاية ليس لنا إلّا أن نموت».

لم أعد أرى شيئًا في الغرفة. ها أنا أعيش صراع الأصوات من جديد، مع الحرمان الذي أعاني منه، في ترتيب الأفكار والآراء، والبحث عن الحقيقة والصدق في الحقيقة. ابتلعتُ طعمَ المكوث، هكذا قلتُ لنفسي، تجيبني بهمْس: «من يذهب برجليه عليه أن يتحمّل العواقب». احتجتُ إلى قوّة أبي وحنان أمّي، أشعر وأنا في الظلام أن توسّلاتها أمّي كانت عظيمة، وأن حُجج أبي كانت قوّية، وأن كلام أخي ساجد كان في الحقيقة يتمرّد على صدقها، وفي كلام أخي ماهر، كان الصدق يتمرّد على حقيقته. فيما يكون حامد طرفًا من أطراف العيش بطريقة اللامبالاة. ترنّ في أذني جملةٌ تُعيدها أمّي بين فترةٍ وأخرى، قبل الولوج إلى علاج الوسواس بالعزلة: «يُمّة، فدوة أروح لك، لا تتخبّل. لا أحد يفيدك إذا راح عقلك. قبلك بعضهم جرّب التفكير، أما أحرّقوهم أو انتحروا أو أصبحوا مجانين، يذكرهم التاريخ ليس كمقدّمةٍ وحكمةٍ، بل كعلامةٍ من علامات الحُجّة وإعطاء المثل».

ترتفع ثلاثة أصابع إلى رأسي، أتحسّس ورمًا كبيرًا بدأ ينتفخ ويكون بحجم النافذة. ربما سيهديني الجنون أو الخيال، ربما هو دعاء أمّي قد استُجيب فورًا. مُبعدًا أن يكون الخيال هو الذي تمرّد،ووصل إلى درجة أحاط بكلّ الأسئلة، لذا تحوّل إلى هذيان متناقض. لا شيء أهرب له سوى أن أغمض عينيّ، فعالية الاختفاء والتقمّص. ثمة صوت يأتيني قريب، يخرج من تحت السرير: «لا تتمرّد. أُعيدها عليك ألف مرّة. أنت مخلوقٌ مُسيَّر. لذا عليك أن تخجل.. اخجل، لا تدع الأمر يمضي دون أن تتمسّك بالأقوال. نحن نهديك السبيل، فاسمعنا ولا تتمرّد». أصغي لمعرفة نبرة الصوت. نبرةٌ لم تأتِ من السقف، ولم تخرج من الجدار، ولم تقتحم النافذة. أتصَلب في وضعية المُسجّى، والصوت يأتيني من الأسفل: «لا تأخذ بما يأمرك به الشيطان والأعداء وأصحاب النوايا السيئة في التفسيرات. أقول

لك هناك إسرائيليات كثيرة». ضربت الكلمة قحفَة رأسي. وعادت صور الحرب تتوالى وكأن بالونًا ثُقب وخرجت تلك الأقاويل. تحرّك فمي ونبس ببضع كلمات. شيءٌ ما أتى بها ووضعها على لساني: «واحدة من أكثر علامات الخلاف هي تلك التي صنعتها الكتب». سمعتُ نهرًا حتى لا أكمل: «صه.. فأنت ليس من حقّك الكلام، وليس لك القدرة على التفريق بين هذا وذاك. نحن طريقك الوحيد». لم أدعه يكمل، فعل فمي فعل المقاطعة: «هو هذا الذي أعاني منه، من أنت؟ فأنتم كثر، وليس واحدًا ولا جهةً واحدةً ولا حتى مجموعة. أنتم ثلاث وسبعون شعبة». ساد الصمت، تغيّر المشهد إلى المخاتلة، أيّ كلامٍ سيصدر. سمعت صوت أبي يأتي من النافذة، قاطعًا مسافاتٍ طويلةٍ ليصلني: «لا تنسَ رحمة الرحمن، هي أوسع من كلّ شيء». فتحت عيني لعلّي أقابل أبي وأخبره بما أعانيه، أن الجميع يقول هذا الكلام. إذن لماذا القتل والموت المجاني؟ هل يستحق الخلاف والاختلاف أن نقتل بعضنا؟» عاد الصوت من تحت السرير، وجد فسحة حين تحركت ستارة النافذة من جديد ليغيب صوت أبي: «سيقتلك الوسواس، لأن لا طريق لك سوى ما تريده. ولن يأتيك».

أخذني الحوار إلى باب الغرفة، هناك ضربت رأسي بالخشب القديم، ارتجّ الصوت داخل جمجمتي، وتردّد الصدى في المكان. فيساقط من رأسي الكثير من الوزن، أشعر به صار خفيفًا. أخذتني دوائر الهذيان والصدى إلى إعادة الضرب من جديد. تدور بي الغرفة مثل دولاب الهواء، تحوّل الدوران إلى ما يشبه بندول ساعة جدارية رَقّاص، يمينًا وشمالًا، ومعها تتعاقب الصور. لم أستطع أن أمسك رأسي وأمنعه من الحركة. تمتدّ ما يشبه اليد، تحرّك رأسي وتضربه بخشب الباب. أسقط على الأرض، منهارًا، لا سبيل للاهتداء إلى المكان الصحيح. أسمع ضحكًا يقترب من الباب، ثم يتوارى ببطء. أفتح نصف عين، أرى بصيص ضوءٍ يأتي من النافذة. جلست مسندًا ظهري على خشب الباب، لمحت أذرعًا ورؤوسًا قُطِفَتْ،

ودموعًا هاربة، وأسمع صراخًا لم يزل مستعرًا في جهات بعيدة. أغرقَتْني الدموع الخارجة من محاجر ملئت بالدم. أتأفّف بحسرة المنكوب الذي لا يجد له سبيلًا للنصرة أو طريقًا للصمت. فيهبط سؤالٌ جديدٌ معلّقًا بأذيال البياض، وقد خرج من لساني: «لماذا نموت من أجل أن يبقى الآخرون أحياء؟»

رنّ الهاتف. أخرجني من المشهد المخيف. كانت رسالة من الواتساب، جحظت عيناي واتّسعت فتحتا أنفِي، قطعت مسافاتٍ طويلةً من اللهاث. ركضت في البراري والصحاري. كانت رسالة من أمي: «عساك بخير.. أسمع أشياء تخيفني، المهم ألّا تؤذي نفسك أو تموت وحيدًا، ها أنت تتصارع مع نوبات التخريف، أرجوك يا ابني، أخبرني قبل أن تموت، أو تجن». يا للخيبة.. ويا لأمي المثقفة التي تتغلب على عواطفها، وكأن دراستها للآداب والفلسفة تحدٌّ جعلها تقاوم العاطفة، لكي أعلم أنها تكبتها في داخلها.

وحين قال لها أخي ماهر: لماذا لم تنخرطي بالعمل الوظيفي، وصار لكم راتب تعيلين به أبي على أعباء الحياة؟ ردّ ساجد بشكلٍ قاطع: «بقاؤك في البيت وعدم الخروج منه للعمل، هو أوّل بدايات الطريق للدخول إلى الجنة». ضحك ماهر، وضرب فخذه، ونهض ليغادر الباحة، التفت وهو في الطريق إلى باب البيت: «وهذه الكلمات هي أولى تدافعنا عن البناء والمساواة والضحك على العقول». تقدّم خطوةً باتجاه الخروج ثم التفت: «المشكلة أنكم تدخلون من تشاؤون الجنّة، وتدخلون آخرين النار بناءً على آراءٍ وليس على أساس فعلٍ منافٍ للدين.»

هو الصراعُ ذاته الذي أبقاني حتى الآن، أغرفُ من التفاصيلِ وأنا غارقٌ فيها. أمدُّ أصابعي في الفراغ، أخلقُ مشهدًا أو حوارًا، لعلّ شيئًا ينبثقُ قبل أن يرتدَّ الطرفُ أو بعد أن يسيحَ الوقتُ سيحًا. أتذكّرُ الجملةَ التي أطلقتُها في ذلك الحوار، فأنا قليلًا ما أدخلُ في نقاشِ الاثنين، كنتُ أسمعُ أكثرَ مما أناقش، وإن

أردتُ النقاشَ يكونُ عبارةً عن سؤال. لكني قلتُ: «العالمُ ينقسمُ إلى قسمين أو فكرتين.. الأولى أنه أكثرُ مأساةً، لذا هو مأساويٌ لا يستحقُّ العيشَ، والثانية أنه عالمٌ يمكنُ أن يكونَ جميلًا لو استخدمنا العقلَ، واتبعنا تطبيقَ القوانين، بما فيها القوانينُ السماوية». ثم نهضتُ قبل أن أكملَ الجملةَ أو يردَّ عليَّ ساجدٌ أو حتى أمّي. لكني أعتقدُ أني جعلتهما يفغرّان فاهيهما. والحقيقةُ، لم أفهمْ الجملةَ التي قلتُها، لكنها أثّرتْ فيَّ حين قرأتها بطريقةٍ مختلفة. حيث جمعتُ الاتجاهين في مسارٍ واحد، ربما هي فلسفةٌ وربما مراهقة. من تلك الجملة أيضًا كنتُ قد اتفقتُ مع نفسي ألّا أكونَ متأثّرًا بأقوالِ المتخاصمين أو المختلفين. لكن الأمرَ أيضًا قيل لي أن لا حلولَ وسطى في نصف هذا العالمِ الذي أعيشُ فيه، الذي تسارعتْ فيه أقوالُ الحرامِ والحلال.

رميتُ الهاتفَ النقالَ على السرير، وسحبتُ جسدي إلى النافذة، لا أدري لماذا ذهبتُ إلى هناك، فأنا أخافُ النافذةَ حتى لا أسمعَ كلامَ الناس. وجدتُني أريدُ إزاحةَ الستارة، امتدّت يدي مرتعشةً، أمعنتُ النظر فيها، وجدتها عبارةً عن طبقاتٍ سميكةٍ ثقيلةٍ ومتراكمةٍ من الغبارِ والأوساخِ وخيوط العنكبوت، وأعوادٍ صغيرةٍ، كأنها جلبتها لبناءِ أعشاشِها وبيوتِها. خيّل لي أنها أيضًا حملت كلماتٍ من حواراتٍ وتوسّلاتٍ وخلافاتٍ وربما معاركَ كلاميةٍ، من داخلِ البيت وخارجه.. وقفت فاهيًا، غير متحقّقٍ من فعلٍ ما. لكن الجدران بدأت تضيقُ وبدأ قلبي يعتصر. تحوّل المكان إلى زنزانةٍ صغيرةٍ من تلك التي تُروى في حكاياتِ السجناء، أو مشاهدتها في الأفلامِ السينمائيةِ أو نقرأها في الروايات. شعرتُ بأصابع عديدةٍ تمتدُّ، شاهرةً سيوفًا ورصاصًا وحجارةً كبيرةً، تخرجُ من تحتِ الأرضِ، أسفل النافذة قريبًا من حافةِ السرير. مثلما سمعتُ كلامًا معسولًا وشفّافًا يصلني بذاتِ الوقتِ من الأعلى، هل صدقتْ نبوءة أميّ من أن الجنونَ قد بدأ؟ أم هو خيالٌ سقتهُ لنفسي، ربما سيؤكل كتفهُ.

بسرعةٍ حاولتُ أن أقترب من السرير، وأترك ذراعي إلى جانبي، وأغمض عيني. لكني كنت أحاولُ أن أوسّع من مساحةِ الاختناق، واستعدُّ للدفاعِ عن حضوري، بإبعادِ الجدرانِ عن تضييقِ مساحةِ تواجدي، لم أفلح. كانت الجدرانُ تتحرك، والمساحةُ تضيق، وذراعي لم يعد بهما القوةُ لدفعِ الظلام. صرختُ بالضياء.. بالضوء.. بالبياض. تراجعتُ عن النافذة باتجاه السرير لأُنهي الصراع، ولّيت ظهري للنافذة، وقلت: «حان الوقت لأرمي نفسي على السرير»، وجدته يبتعدُ عني، يتحركُ باتجاهٍ خارج الجدار. تحيطه الظلمة. صرختُ: «يا الله.. هل هذه إشارات؟» حضر شكل أخي ساجد، جاء من تلك النقطة البعيدة، رأيته لا يرتدي الأبيض وليس له سواد. جاء بجناحٍ واحدٍ هذه المرّة. كان وجهه يتوضّح ليجلسَ على الجدار المقابل للسرير، في زاوية جدار النافذة. سمعته: «ألم أقل لك أني أخافُ عليك من الأفكارِ الغريبة؟»

كان بلعومي يابسًا، والتنفّس سرقته لحظة خوفٍ، ورمته خلف السِتارة، فيما كان ساجدٌ يحاول أن يلملم بقايا حوارٍ مفعمٍ بالحِدّة: «ليس لك أن تقول ما تشاء، لأنّ المنطق ما أقولهُ، فهو لن يأتي من فراغٍ». كان في صوته نغمةٌ أخرى، ليست تلك التي أعرفها. هادئٌ وحادٌّ، وسرعةٌ باهِظةٌ، تخرج الحروف مثل نتفٍ مبعثرةٍ لكنها مفهومة، يرميها مثل طفلٍ من جيلٍ مغطّى بالثلجِ. ما الذي أعاده إلى المشهد، وحده دون أخي وأبي وحتى أمي؟ وقفت بلا حِراكٍ، أبحثُ عن شيءٍ خارجَ سكوني المفاجئ. اتّكأتُ على الجدار، سمعتُ نغمةً فيها رجاءٌ وترهيبٌ: «أخافُ عليك من الحسابِ العسير، أسئلتك لن تجد لها مأوى، ما ينقصك ليس الجواب، بل هو أن تجد نفسك».

أصابني شعورٌ بالقوّة. دفعتُ الجدران، ووسّعتُ المنطقة التي أقف فيها. سحبتُ شهيقًا، وبلغةٍ لم تكن من قبلُ في داخلي جعلتها ردّةَ فعلٍ فيها قسوةٌ: «كيف أجدُ نفسي وقد توزّعت الإجاباتُ والآراءُ على مساحة قرونٍ وتعدّدت

الكتبُ والتأويلاتُ والروايات؟ كيف أجد لحظةَ صفاءٍ مع الروحِ، وكلما أريدُ للبياضِ أن يهطل، خرجَ من يغلقُ أبواب السماء، ويفتحُ بابهُ المليء بأفاعي القولِ»..

كأنَّ الطيرَ وقف على حافّة رأسه، رأيتُ عينيه تتوسّعان باحتجاجٍ بائن، يسكنُ نظراته الخوفُ. تراجعتُ خطوةً باتجاه الباب، لأمدّدَ الزمن، وأمنح نفسي القدرة على إزالة التلعثم، متمنيًا لو أنَّ أمي طرقت الباب. أرسلت رسالةً عبر الواتساب، تطلبُ مني أخذ الطعامِ، أو أنَّ صديقي حامد طرق الباب حتى كسرهُ ليدخل عنوةً، لكنَّ ساجدًا جرّني بكلماتهِ لأنتبهَ له وأتركَ الباب والأمنياتِ: «ألا تخافُ الحساب؟ هل طريق الله يحتاج معرفةً؟» وقفتُ بكامل قامتي، حاملًا قدرتي وفضولي للمواجهة، تنفستُ لبرهةٍ، أخذتُها من ثقب البابِ. قلتُ له: «المشكلة ليست مع الله أو مع الدين، المشكلةُ كما أراها وأكررُها دومًا مع فقه الدين».

ظهر أخي ماهر يضحكُ. ظلُّه يتحرّكُ على الجدارِ الثاني. خلفهُ عماراتٌ شاهقةٌ وبلاجٌ ومشاهدٌ من حدائقَ ونساءٍ عارياتٍ. أخبرهُ أنَّ الدين ترتيبُ العقل، وهو مارس علينا إضاعةَ العقل وتخديرهُ».

سادَ الصمتُ واتّسع، جاءتني دفعةٌ من خلفي، أخرجت سؤالاً من تأوّهي: «كيف الحل؟» شعرتُ بيدٍ تضغط على فمي. سمعتُ ما يهمسُ في أذني أن لا أذهبَ بعيدًا. ثمة من يتربّصُ بك، لتخطئ ويُعلن ما ليس أنتَ فيه وعليه.

أطلقتُ زفيرًا وسحبتُ شهيقًا سريعًا، حالما رفعتُ كفي. حاولتُ الخروج مما أنا فيه. أن أجلب شيئًا يدفنُ هذا التفكير، وأقرأَ عليه المعوذّتين. لكن لا فائدةَ، وجدتُ ساجدًا من جديدٍ بوجهٍ مبتسمٍ، ووجهَ ماهرٍ بعلاماتٍ ضاحكةٍ، متربّصةٍ. فيما كانت الأصواتُ تأتي من بعيدٍ تحمل همهمةً وصراعاتٍ وشتائمَ ولعناتٍ وتحذيراتٍ وتشويهاتٍ. لم تستطعْ أذنايَ أن تلتقط الأشياء الواضحة، ثمةَ ما يدورُ في داخلها من كمياتٍ تفورُ وتغلي وتتجمدُ وتتحرّكُ مثل دودٍ.

كان ساجدٌ يمشي أمام الجنازة، يكبّرُ بالجميع: «الحيُّ القيُّوم يومَ لا يموتُ وتفنى الدنيا، نحن سائرون إلى يوم القيامة. يومَ لا ينفعُ فيه رأيٌ ولا جدالٌ». كان الكلامُ جديدًا، يقصده وهو ينظرُ إلى الوجوه، وخاصة وجه أخويْه. يلتفتُ لهما ويصيح: «إياكم ويوم القيامة!» كان تحذيرًا هائجًا، خرج منه سؤالٌ معلقٌ من رأسِ ماهرٍ ليدلقه في رأسه: «ماذا يجري في رأسك وما تقصده أمام الجميع؟» يعود ساجدٌ إلى الجنازة، يتقدّمهم خطواتٍ حتى يبتعد عنهم. الناسُ تبكي، وتكرّر التكبير. ولم ينتبهوا إلى أن صوتَ ساجدٍ صار بعيدًا. ماهرٌ يسحب ساجدًا ويركضُ به، يبعده عن مآلٍ لا يريدُ الوصول إليه. يُسمعُ صوت رجّةِ بابٍ خشبي. يندفع الاثنان إلى الداخل، وفتحةُ فميهما تتحرّكان بشفاهٍ غير مستقرّةٍ. في الباحةِ أمسك ماهرٌ بالزمنِ، وطوى الظلَّ الذي انحدر على جدرانِ البيت. بان عليه تفاصيل الوجوه، صاح: «من منكم رأى ما يريد لكي يقنع الآخر؟» ردَّ ساجدٌ وهو يبتعدُ عنه ويقتربُ من باب البيت: «أخبرنا أنت ما رأيت؟» يضحكُ ماهرٌ بقوّةٍ، يهتزُّ كتفاه فتطيرُ ذراتُ الغبار من تحت قدميه: «أنا وجدتُ نساءً عارياتٍ يغطين عوراتهنَّ بالعلم الأمريكي. ووجدتُ أنَّ الحياةَ يحكمُها القانون، كلٌ له سبيله. وهناكَ من ينصحُ لكنه لا يتّهم أو يكفّرُ. مثل المنصاتِ التي تصرخُ من أزمانٍ ولم تقبض سوى الريحِ والحروب». يهزُّ ساجدٌ يده علامةَ الاستهجان. يدورُ بوجهه باتجاه الباب، يسمعُ صوت أقدام المشيعين وهم يتقربون من الجامعِ في أوّل الزقاق. «حين لا تعرفُ كيف تعيش، فقط متأثرًا لما لدى الآخرين، فأنتَ لا تعرفُ كيف تموت، وكيف سيكون عليه ما بعد موتك». يلتفتُ ماهرٌ إلى الغرفة. يتحدّثُ موجّهًا الكلام بقصديةٍ واحدة: «عشْ حياتكَ كما تريد، واخرجْ من سجنكَ الفكري والمكاني، لا أحد ينفعكَ. كن مع اللهِ ومع الإنسان».

أفركُ أصابعي، أردّدُ كلامًا لا يخرجُ من صدري. أنا لا أريدُ أن أكون لقمةً سائغةً للآخرين، أن أموتَ كما يريدون ولا أعيشَ كما أريدُ. أسمعُ ضحكَ ماهر. يخاتلني

كأنه يتربصُ بي كلما توغلتُ في التفكير. أسمعُ توهانَ حامدٍ وهو ينظرني من بعيد، بوجهه الذي ينفضُ كلامًا أن أعيشَ بلا مبالاة. سمعتُ أخي ماهر: «أكيدٌ حين يأتيك ساجدٌ يتحدثُ معك عن العذابِ وحرمانِ لذةِ الحياة. أليس كذلك؟» رمى السؤالَ ليتكومَ مع الأسئلة، لكنه قبل أن يختفيَ صاحَ بي: «قل له إن يومَ القيامة لم يحن. وأيّاكَ أن تحملَ معك أقاويلَ ما لم يقلها أحدٌ من قبل.»

المشهد الحادي عشر

الضُحى حارٌّ. لا نَسائمَ تُحرّكُ قصاصةَ ورقٍ مرميّةً على طريقِ الزقاقِ الفارغ، ثمةَ أصواتٌ تأتي من بعيد. تقترب شيئًا فشيئًا، تظهر أنها أصواتٌ لمظاهراتٍ تتجدّد، هتافاتٌ دينيةٌ وشعاراتٌ بالشهادة، وهتافاتٌ ضدَّ إسرائيلَ وأمريكا، ومؤيّدةٌ للحربِ التي شنّتها الفصائل، ولعنةٌ للدولِ العربية التي لم تساند فلسطين، هتافاتٌ للتبرّعِ من أجلِ إغاثةِ أهالي غزّة. تتفرّع التظاهراتُ وتَتوضّح معالمُها. اقتربت من رأسِ الزقاق. تأتي الأصواتُ تمرُّ على الأبوابِ المُغلقة، ومنها بيتُ أبو ساجد. لكنْ لا شيء يخرجُ من البيوت، سوى الصمت.

صفيةُ تظهر في الزقاقِ وحيدةً، تنظرُ شمالًا ويمينًا، تُبعدُ الأصواتَ وتفتّشُ في تفاصيل الزقاق، وأبواب البيوت. هناك بيتٌ مفتوحٌ الباب، بابٌ خشبيٌّ كما هي الأبواب العتيقة في الزقاق. تَلفّ عباءتها، تُعطي نصف وجهها إلى بداية الزقاقِ، ونصف ظهرها إلى ما وراءها. تتقدّم بخطواتٍ مُرتبكةٍ، تتباطأ في مشيَتِها وتجعلُ خطواتها قصيرةً جدًا. يدور رأسها وتدورُ عيناها إلى الأعلى وأفق الزقاق، يتحرّكُ جذعها بارتباكٍ مع حركة عباءتها، كأنّ ريحًا هبّت فجأةً. يأتي الهواءُ ليضرب وجهها، لا تريد لأحدٍ أن يراها في هذه اللحظةِ حتى لو كان طفلًا في الثانية من عمره، ولا تريد أن ترى أحدًا عاد من التظاهرة، أو ترى امرأةً عائدةً من التسوّق. فالضُحى مُخيف. تقترب من النافذة، كما يقتربُ صدرها من ذروة الخفقان، وقلبها يزدادُ نبضه. تقف في منتصف النافذة. ارتفاعُها بارتفاعِ نصف قامتها. تعلم أن الستارةَ مُسدلة. وأن الزقاق لا يمنحُ إضاءةً كاملةً ليُرى من في داخلِ البيت

من هو في الزقاق، فبيتُهم مثل بيتِ أم ساجد. تتنفسُ وتُبسمل، وتتركُ جسدها بمواجهة الزقاقِ، تُديرُ وجهها بمواجهة النافذة، تُطلق نبرة صوتِها المرتجفة، تخرج مثل موسيقى مُدهشة، حالمة، غنِجة، مُغازلة، وقد غادرها الوقارُ للحظةٍ لا تتعدى لهاث ثوانٍ، «سامر شلونك؟» تُطلقُ لساقيها الريح باتجاه العودة، تُعدّلُ من وضعِ عباءتها على رأسِها، يمرُّ الهواءُ على صوتها ويُدخله إلى الداخل، فيما هي تختفي في انحناءة الزقاقِ في منتصفِه.

دخل الصوت إلى أذني، تخيّلته صوتًا هبط عليَّ من السقف، لكنه كان صوتًا أنثويًا، أخرجني من حالة الركود والتفكير الجامد، التفكيرِ بدوامته التي لا تنتهي دائرتها ليكتمل المحيط، أُخطّط لأمسك بيومٍ جديدٍ لكني لا أجدُ شيئًا بين يديَّ من إجابةٍ أو بعضًا من الجنون. أنهضتُ جسدي المُسَجّى، أو الصوتُ الأنثوي الذي ردّد اسمي جعلني أغادرُ نومتي. الاسم أو النغمة جاءت بلغاتٍ مختلفة: «سامر وينك». كأن سؤال الأين إبحار في التيه. حروفٌ ثمانيةٌ خرجت من أسنانٍ طُعِّمت بعطرٍ من رارنجٍ مخلوطٍ بالزنبقِ وماء الورد. سمعتُ نغمةَ تراتيلًا اسطوريةً من زمن عشتار، أو تراتيلًا دينية، أو حتى أنغامًا تُطلَق في زفاف العُرس. أنغامٌ متتاليةٌ غابت عنّي منذ مراهقتي الأولى، التي أحسستها مع انتهاء الجامعة. يااه... لم أنتبه لدقّات قلبي، ربما لم يكن يدقّ أو يضرب أو له نبضٌ كما هو الآن. ما الذي غاب عني كي يأتي بهذه الحميّةِ التي حرّكت الستارة من الداخل. ليأتي عطرُ الصوت إلى أنفي، وأفزّ ملدوغًا من حرارةِ الصوت. لأوّل مرّةٍ أسمعُ صوتًا دون خوف، لكن الارتباك موجود. شيءٌ يُعاشرنا ويجتمع بنا منذ أن وُلدنا. الارتباكُ تربيةٌ معيشيّة. أحاولُ الإمساك بالشجرة التي تفرّعت على شكل أغصانٍ ثمانيةٍ شكّلت اسمي مع أبي، مخافةَ أن تخرج من ثقبِ الباب إلى الباحة فتذوبَ في سخونة الظلمة والصمتِ والهيبة. ربما يذهب إلى أذنِ أمّي مرحًا، فتمنعها من دخول البيت، حتى لا يلِجَ اسمي على لسانها. أمّي تخافُ من هذه الأشياء، رغم

ثقافتها، لكنها أسيرةُ عاداتٍ مجتمعية. تقول لي: «علينا ألّا ننسى عاداتنا وما يريده مجتمعنا، لأننا لسنا إلّا مقادين من قبل مَن يتزعّم التنفيذ».

أرفع راحة يدي، وأضرب جبهتي تعجّبًا. مشهد تركّب فجأةً دون تحضير، أو أنه يدخل في معترك ما أريده وما أتمنّاه. يقتحم التصوّرات وحتى الأمنيات والتأمّلات. هل سؤالها مخرجٌ أم اطمئنانٌ أم رسالةٌ من نوع آخر لم أتعوّده؟ يا لها من جرأة في زمن الخوف والممنوع والحرام. هي لم تقلها من قبل، يوم كانت طالبة وتأتي لتأخذ الملازم الدراسية مني، تجلس إلى جانب أمي ومعها أمها والحياء يغطّي كيانها. كنت قبلها بعامٍ دراسي واحد، وكلما نجحتُ إلى الصف التالي تأخذ كتبي لتقرأ في العطلة، لم أفكّر يومًا بأن أترك قلبي يدقّ. ابنة الجيران التي يجب أن أحافظ عليها. هكذا علّمني أبي وأوصتني أمي. كانت تقول لي أمي: «الجيران أجنحة الملائكة التي ترفرف علينا، لنعيش بوئام وثقة، وهي أولى الخطوات للدخول إلى الجنّة». في زمننا، زمن الكلام في الدين والفقه، لم يعد الحب موجودًا حتى في الجامعات، إلّا لمن كان من بيئاتٍ مختلفة. أما نحن أهل الزقاق القديم، فالذهاب إلى الجامعة من أجل الدراسة. حتى أن أخي ماهر رفض الزواج بهذه الطريقة التي ترتئيها أمي، من أن تخطب له فتاة من عائلةٍ شريفةٍ متدينة. كان يقول ذلك بشكلٍ متمرّد: «إنها عبودية، نحن نعود إلى الوراء في عالمٍ يختار فيه المرء كل شيء بإرادته، لا بإرادة الآخرين». فيما كان ساجد يرد عليه بقوة: «ها أنا تزوجت بطريقة أمي ونحن على وئام. الحب يأتي بعد العشرة». ماهر لا يرد، ويستثمر ساجد الأمر فيرمي كلامًا لا يحبّذه ماهر: «النساء يدخلنّك جهنم، إن تكلمت معها دون وجود رابط، والدين يحرّم الكلام مع امرأة أجنبية كما يرددون دوما عبر صفحاتهم ومنابرهم».

ماهر يغادر البيت كلما اشتدّ الحوار. ودائمًا، وقبل خروجه، يرمي كلامًا يريح به أعصابه، ويحمل الكثير من السخرية: «يا أخي، لا أدري كيف أكملتَ دراستك

الجامعية، كنت تقرأ كثيرًا، لكن هذه القراءة أعطتك تعصّبًا وتبعياتٍ غيّبت العقل». أنفض رأسي، صراعي مع الرأس في المكان الضيّق. أعاتبه ويتحمّل مني الكثير من الحركات. سحبني صوت الصدى إلى النافذة. مددت أصابع مرتعشةً لأحرّك الستارة، ربما لم تزل واقفةً في الزقاق. ربما تنتظر إشارةً أو ردًّا أو حتى تعليقًا، أو أناديها باسمها كما نادتني. لكنها لم تذكر اسمي للمحبة، بل سألت أين أنا وهو للاستفسار. هل كان صوت صَفيّة أم صوتًا يشبه صوتها؟ هل كانت هي أم صدى الانتظارات؟ لكني سمعت وقع أقدامٍ أيضًا، قوّتها قرب النافذة حتى اختفى. لي قوّة سماعٍ جيدة. أبعدتُ صورة السوء في التفكير عني، لأعود إلى الخواء، وممارسة الرياضة. القفز على البقعة، ومدّ الذراعين، والانحناء إلى الأسفل، وفتح الساقين، والاتكاء على الجدار، وضغط الظهر. تمارين علّمني إياها ساجد، يقول إنها للمحافظة على العقل والذاكرة وعدم النسيان، فضلًا عن صحّة الجسد، وأن تحافظ على نفسك من الرذيلة والأفكار الغريبة.

لم تكن لي رغبةٌ في الممارسة، أشعر بفقدانِ التوازن، واختلالٍ في الأذن الوسطى، أو انخفاضِ الضغط، وربما هي بدءُ ارتفاع درجات الحرارة. شعرتُ بهلوسةٍ تغزو تفكيري. وقفتُ أمام الستارة وبدأتُ أكلّمها، أستفسر عن نبرتها إن كانت قد علقت بها. قربتُ فمي من النافذة، شممتُ رائحةَ الرارنج تغطّي الغبار المتراكم. لم أجد تلك الحشرات التي كانت تتجمّع على شكل هياكلَ لا نظامية. لمست أصابعي أطراف الستارة، هفهفَ الهواء قليلًا، وتحرّك صوتُ اسمي مثل رنينٍ موسيقيّ يخرج من فمٍ لم أُنتبه لصوته من قبل، ثم سمعتُ ترتيلًا وأدعيةً تنسكب مثل ماءٍ رقراق يتاخم أذني فتنتعش الروح. حركتُ جسدي في اتجاهٍ آخر من النافذة، ولم تزل أصابعي تلامسُ الستارة، سمعتُ غناءً لموّالاتٍ عذبةٍ من تلك التي تعذّب الروح وتدخل الكلمات على جرحٍ لم يندمل. لتتعشق أغنيةً أحبها وأردّدها كلما خلوتُ إلى اللحن: «يم داركم.. صدفة وأخذني الدرب من يم

داركم. والتمّت بروحي المحبة واشتهيت أخباركم». كأني أنا من مرّ على نافذةِ بيت صَفيّة التي هيّجت ما كان شبه ميتٍ في داخلي، أو لأقلْها بصراحةٍ ما كان غائبًا عن قلبي وتفكيري.

يختفي البصرُ عن الستارة، وتذهب الرؤيةُ إلى عالمٍ آخر.. يبرز جسدُها، وهي تدخلُ إلى البيت راميةً العباءة على محجّر السلّم الطابوقي، يخرجُ جسد حوريةٍ ممتلئة. تجعل العينينِ تغمضان لاكتشاف ما لم يفكّر به من قبل. صورٌ تتراكم من ثقب الباب، فتتحرّك عيونُ الأم إلى جسد صَفية، وهي تتقدّمُ إلى الأمام، إلى وسيطِ الباحة. الباحةُ تضاءُ مع كلّ خطوةٍ من صَفية، فيترقرقُ ثوبُها من حوض ماءٍ فيه سمكٌ ملون. فيما شعرُها يهتفُ بتعالٍ وغنجٍ قبل أن يغطي نصفَ وجهها. تزيحُ الخصلةَ بأصابعَ من بلورٍ ولونه الذي لا يشبه لونَ ظلمة المدينة حين ينقطعُ التيار الكهربائي، ولا ظلمة الزقاق حين يبرحُ الليل إلى سمتِ السماء. الأمُ تفتحُ ذراعيها وتحضنُ صَفية، فيذهبُ العناقُ إلى ثقب الباب، يسقطُ ضوءٌ على المكان، ينبعثُ دخان بخورٍ يتلوّى مثل راقصةٍ يردّدُ جسدُها رباعياتِ الصوفية، فتدقُّ القلوبُ على وجعِ الدفوف. صَفية تلهبُ المكان حرارةً وهي تسألُ الأم عن حالها وإن كانت تحتاجُ إلى أمرٍ ما: «الجيران لبعضها ونحن أهل». تتحولُ الكلمات إلى نشيجٍ في عيني الأم. تحضنها، تقبلها، وتمسحُ من تجاعيد وجهها ما تراكم من الحزن. تغوصُ العقولُ بالكلمات المخفية لعلّها تستطيعُ إخراجها تلافيًا للإحراج. فلا الأمُ بمقدورها أن تعبّر عن رغبتها وابنها معتكفٌ بجنونه، ولا البنتُ قادرةٌ على إسكاتِ صراخِ قلبها وتبوحُ بما عندها من وجعِ الليالي.

أفتحُ ذراعيّ مثل أمّي، أمثلُ دور الهائم الذي لم يكن يبحثُ عن نقصانه من قبل، ربما هو تعويضٌ وجدته مهمًّا في هذه المرحلة، تعويضٌ عن الاعتكاف الذي طال، ربما شيءٌ ما جعلني أعيد فتحَ ما انغلق من حساباتٍ كثيرة، ربما هو إضافةٌ إلى الأسئلة التي تتراكم بلا أجوبةٍ عن الحب وما يسوّره من بدائل. كان الخجلُ

يحاصرُ كياني في هذه التقلبّات التي أعيشها أو التناقضاتِ غير المتّفقِ عليها. لكنها جزءٌ من حياتنا أن نكونَ متناقضين، أن نفعل أمرًا نؤيّده، ثم نندمُ عليه، ثم نخالفه في مكانٍ آخر أو نقاشٍ جديد. أجلسُ على حافّة السرير. أمدّدُ ساقي على الأرضِ، إلى الأمام كمن يريحُ جسده من مارثونٍ قطعه خلال ليالٍ طويلات. أرفعُ رأسي إلى السقف لعلّي أجد حلًّا لما أنا فيه. لكن ضحكةَ أخي ماهر أفزعتني، أخرجتني من لحظة ركوب سيارةٍ مسرعةٍ إلى قارعةِ الطريق، لأفتح عيني على سرابٍ وظلامٍ يطوّقُ الغرفة ويحولها إلى سبورةٍ لم يكتبْ عليها طالبٌ من قبل. كانت ضحكته مجلجلة. أخرجتني من مراهقةٍ كنت بحاجةٍ لها في خضمِّ البحث عما هو إرشادي. حتى حبستُ فيه تنفّسي من أجلِ التأمّل. أخي ماهر هدّأ من روعي، كان يقفُ عند الباب يغطي ثقبه. قال لي: «لا عليك، الحبّ هو أقوى الوجود، الحب هو الله. هو الذي يبقى فيما تذهبُ الأفكارُ الأخرى إلى الزوال». تحرّك عن الباب، فدخل بصيصُ ضوءٍ من الثقب، لم أكن قد انتبهتُ إلى قوله، كنت مشغولًا بما أتاه من حضورٍ مفاجئ. وكنتُ أشعر بالتقصيرِ تجاهه، لأني لم أسأل عنه أو أرسل له رسالةً على الواتساب. لذا لم يزل قلقي حاضرًا، ولم تغازل حروفُه الأجوبةَ التي انتظرها، مرّت الكلماتُ مسحةَ ضوءٍ سريعةً واختفت في الدهاليز الكثيرة. وهو ما جعل من صورته أن تختفي، جاء ليضحكَ على خيبتي أو يشير إلى أني أعيشُ في خيبة.

عدتُ إلى الظلام، لأعيدَ ترتيبَ التنفّس على وقع ما يحصلُ لي، لأجلب الأريحية لقلبي هذه المرّة. كنتُ أريد ألّا أفكر بالستارة وما علق بها من نغم صوتٍ حلّقَ بي لدقائق وأهداني مشهدًا كبيرًا من التعالق، لكن حقيقةِ في هذه اللحظة داهمني شعورُ الرغبة بالخروج إلى العالم. أو الزقاق والمشي على أسفلته القيري القديم، هو ذاته يوم كنّا نلعبُ كرة القدم. أو أجلسُ في الباحة في حضن أمي على الأريكة. الأفكار لا تخرج عن طور الحنان، لكن المشكلة

أنها أكثرُ قسوةً على عقولنا. لذا كنتُ أبحثُ عمّن يدلّني على أولى الخطوات. تجربةٌ أخرى من التأمّل. لكي أضعُ قدمي. لا أريد مثل خطوات ساجد أو ماهر أو حتى حامد. حتى أبي لا أريد لخطواته أن تكونَ مثالًا، فقط كان يهب ما عنده لغيره، ويشعر بالراحة ونحن نشعر بالندم. رغم أن أبي كانت لديه أقوالٌ أشبهُ بالحِكمِ المرصوفة بقناعات زمنهم: «لا ظلامَ دامس، إلّا ظلام الروح والعقل، دائمًا هناك ضوءٌ ولو بصيص، لكنه سيتوسّع ويتّسع سطوعه كلما آمنتَ بداخلك». لكن المشكلة أن هذا الكلام وأنا أحاول الإمساكَ به، يخرج لي صوتُ ساجد أو ماهر أو حتى حامد. وربما يستحضرُ أصوات الأستاذة في الجامعة وهم يتوسّعون بالفلسفة وحياتهم بلا معنى. يشتكون لنا في الممرّات من وضعٍ غير آمن وخوفٍ ليس له حدود في واقعٍ أكثر مرارةٍ من قبل. لكن صوت أخي ساجد جهوري، له نبرةُ أصوات المنابر، طريقةٌ جاذبةٌ تجعل الآخرين ينتبهون له. حضر بكامل قوى جسده أمامي. كأنه كان ينتظرُ اختفاء حضور ماهر، وقبل أن أمسك بتفاصيل أقوال أبي. جلس على حافّة السرير بطريقة من يجلسُ على منبرٍ عالٍ، مغطّى بقطعةِ قماشٍ سوداء مطرّزةٍ بقماشٍ أخضر، ممسكًا بعروتي المنبر على الجانبين، كانتا على شكل كرتين من خشب. بسمل أوّلًا ثم حوقل، ورفع رأسه قليلًا مصوّبًا نظراته نحوي. أنا المنزوي في الزاوية البعيدة عن الباب. استغرق الأمر نحو ثلاث دقائق. كان يتكلّم مثل الذي يتكلّم في مجلس عزاءٍ لا أحد ينتبه له. أشعرُ أني وحدي من يخطب له. لا أحد في العزاء سواي. فجأةً قفز من المنبر نحوي، بخطواتٍ قليلةٍ كان أمامي في الزاوية. انتفضَ قلبي. شعرتُ بذوبانٍ من أسفل ساقيّ إلى ركبتيّ. اعتدلتُ في جلستي وسألتُ سؤالًا. لماذا أخافه؟ عليَّ مناقشته بدلًا من الابتعاد عنه. اعتدلتُ في جلستي. سمعته: « الله. هو وحده الباقي وهو الأسمى. هو الآداب والصلاة، هو الرحمن والميزان، هو الفاعل والعادل، هو الغاية والمران». لم أفهم منه شيئًا. هذه الكلمات أعرفها وحفظتُ أسماءَ الله الحسنى.

لا شيء جديد في قوله. لم أشأ إخباره. فمثله لا يقبل النقد أو الاعتراض، لحقيقةٍ واحدة هي أني في هذه اللحظة كنتُ مسلوب الإرادة بفخامة صوته وفرحي بحضوره الكامل، هو يريدني أن لا أؤمن بأن الحب الموجودٌ بأية طريقة، بين شابٍ وشاب مثلا، إلّا بما هو مرتبطٌ بأفكاره ومعتقداته.

أخرجتُ جسدي من الزاوية وجعلته يتكئُ على الجدار، لعلّي أعيدُ ضبط الكلماتِ في حنجرتي قبل نطقِها. وضبط كلماته التي تدخلُ مثل سهامٍ سريعة، وإن كنتُ لا أخافُ من الإصابة، كونه يريدني أن أنتبه له. لذا يجعل من رؤوسِ سهامه تحملُ وردًا، لكني كنتُ أرى الكلمات كما كلمات ماهر تحملُ نارًا، لكن لا يخرج منها دخان. كنتُ أخافُ من لسعةِ الأفكارِ، والكلامِ الذي لا أريدُ سماعه لأني أعرفه، وهو محفوظٌ في عقولِ الملايين. قلتُ له وأنا أقفُ ببطءٍ لأكونَ أمامه: «أنا أؤمنُ بالحبّ من أيّ نوعٍ، والحبُّ الصادقُ لأن الله هو الحبُّ. ولا شيءَ في الحبّ الصادق حرامٌ».

رأيتُه قد فَهِم قلقي، مدّ يده نحوي، أمسكني من ذراعي، وحرّكني باتجاه الباب. تسمرتُ في منتصف الغرفة، قال لي: «أما زلتَ تُنصِت لأقوال الكُفّارِ والملحدين؟ إني أدعو لكَ بالاستقامة، فأنت شابٌّ طيبٌ». أفلتُّ ذراعِي من قبضتِه، فعادت لي بعضُ قوّتي لأتنفّس، لكني لم أجد الكلمات في الدفاعِ عن حرّيتي في التفكيرِ واستخدام عقلي. مندّدًا بكلماتٍ نثرتُها في فضاء الغرفة، بأن أتنفّس في دائرةٍ ضيّقةٍ، أخبرتُه بصمتي: «حين تُحبّ اللهَ تُحبّ خلقَه ولا تبقى تلتفتُ إلى الماضي».

تقدّمتُ نحوه بثقةٍ مشوبةٍ بالحذرِ، عدّلتُ من غطاءِ رأسِه، حيثُ كان دائمًا يتعممُ، لا يتركُ رأسه بلا غطاءٍ حتى لو كان كوفيةً أو يشماغًا أو حتى غطاءً عسكريًا من النوعِ الذي نسمّيه (كاسكيتة). ابتسمَ في وجهي، نكثَ ردنه العريضة، فتحرّكت ذرّاتٌ متكوّمةٌ في الغرفة. سمعته يقول: «هذه أقوالُ الكُفّارِ

والمرتدّين، وأنت مؤمنٌ». وقفتُ أمامه بفارعِ طولي، تحاملتُ على صمتي الذي يسحبني نحوه، طاردًا وساوس الخوف، مادام يدرِكُ ما أريدُ قوله: «أنا لا أفكّرُ بما يُفكرون، ولا أنا أُنفذُ ما يريدون، ولا أنا بقادرٍ على استيعاب ما يتحدّثون. لي أفكاري، ولهم أفكارهم، ولي رأيي ولكم آراؤكم». سمعتُ صرخةً أو نهرًا أو عتبًا، كان صوتًا عاليًا، لشخصٍ لُدِغَ فجأةً أو لم يتوقّعِ اللدغة: «أنا أريدُ لك الجنّة، وأنتَ تسحبُ نفسك للنارِ. أنتَ أخي ولا أريدُك أن تهوى إلى ما لا يُحمد عُقباه. فلا تكن من الكافرين»..

لم أكن قد أكملتُ كلامي، ولم أُكمِل شهيقي، حتى لفحني باتهامٍ قاسٍ له شُعبٌ من نارٍ أحرقت ملامحي. مسحتُ بكفّي دائرة وجهي، وضحكتُ من وضعي الذي تشوبه البلاهة. قلتُ له: «هل تعرف أنَّ هذا الصراع هو سبب عزلتي؟ أنتم، رغم كلّ الكلام الذي تُنمّقونه وتحفظونه بنبرةٍ صارخةٍ منبِّهة، أو محذّرةٍ أو مُخدّرة، تأخذون دور الله في تحقيقِ العقوبة قبل يوم الحساب، وتمنحون من يكون مع أفكاركم جنّات النعيم وحور العين، وتُعاقبون مَن يخالفون آراؤكم بما تريدون وتشاؤون».

وجدتُه يصغي بانتباهٍ وقد أراح لسانه وتفكيره، تفتحت أساريره متلقّفًا الكلام بشيءٍ من رغبةٍ في صناعة ردّة فعلٍ قادمة. قلت: «أما كلامُ من تسميهم الكفرة، فهؤلاء لا شغل لهم سوى الطعن في كل شيء، وأيضًا يمنحون الصفات لمن يشاؤون بحسب الاقتراب من أفكارهم وآرائهم. هم يصنعون المادّة ولا يتابعون هلاكها، فتكون ردّة فعلهم أنَّ الحياة أصبحت عبودية، دون أن يفكّروا في معنى العبودية التي تعني العبادة، لكنهم حرّفوها عن مواقعها.. أنتم الاثنان سبب كل الخراب».

صفّق ساجد ثم ضرب كفًا بكفّ، وعلى ملامحه آثار استفزازٍ لكلامي، وقد بيّن ذلك بردّة فعله القوية: «هذا كلام ماهر! هو ماهرٌ في إيجاد الأعذار والنقاشات

الوجودية. ماهر الذي لا ينظر إلى الجوامع والمساجد على أنها مصدرُ إيمانٍ، بل ينظر إلى الملاهي والبارات على أنها أماكنُ حرية، ويذكرون الله بسوء!»

بيّنتُ له استغرابي الكبير من هذه الإجابة، ووقفت أمامه حادَّ التقاسيم، باثًّا المعاني: «هل تعلم أنَّ ماهر هو أخوك؟ وأن ما وصلتَ إليه جعلك حتى ضدَّ أخيك، كارهًا له، متهمًا إياه بما تريد؟»

عاد يُمسك ذراعي وهو يردّد: «اتقِ الله يا أخي، أخاف عليك أن تكون كافرًا ومصيرك جهنّم». ابتسمتُ ببلاهةٍ، قلتُ بصمتٍ لداخلي: «حتى وأنت لم تُحاسب بعد، تُدخلني الجنة والنار!» ثم سألته بطريقةٍ ماكرةٍ لم يتوقّعها: «قل لي، في أيّة منطقة أنت من الآخرة؟»

أفلتَ أصابعه من ذراعي، وساد الصمت بيننا لثوانٍ كثيرة. كنت أتحرّك فيها لألوذ بالزاوية البعيدة، وجدت أمامي فراغًا واسعًا يمتدُّ الى ما لا اراه من الرؤية، تُسوّره أصواتٌ مخيفةٌ من تلك التي أتصارع معها بين الحين والآخر. لكن لا شيء انكشف وتوضّح. حتى ساجد لم أعد أراه. كانت الستارة قد تحرّكت، ثمّة شيء مثل ذيل دخانٍ يخرج من النافذة. شممتُ رائحة التراب والغبار، وكانت هناك أشكالٌ تتجمّع حول مصباح الغرفة، ثم تتلاشى في الفراغ.

تظهر الصورةُ شخصًا فاقدَ الوعي خائرَ القوى، واضعًا رأسَه في الزاوية بين جدارين. يُمدِّدُ ساقَيْه، ويُهَدِّئُ من خوفه، فيما تتحرَّكُ الأفكار بشكلٍ متخاصم، يخرج منها صوتٌ له صدى يرتدُّ من الجدران: «إياك والفشل، إنه يُحيقُ بك». الحروفُ تتحرَّك، والأسئلة تحملُ ألسنةً من نار، تخرج من كلِّ مكان، تحملُ علاماتها معها بصورةٍ من يُعَلِّقُها بكَلَّاباتٍ من حديد، تفلت منها كلماتٌ على شكل قطرات دم، تنزل عبر ميسمٍ يرسم طريقه على ظهر الأشياء، تتقوَّس على كلِّ هلالٍ، مثلما تتقوَّس على شكل راياتٍ ملْهومة الأطراف. الجسدُ يرتفع إلى

الأعلى ثم يدور مع دوران محتويات الغرفة: السرير، الفراش الذي على السرير، الستارة، بعض الملابس المعلَّقة على الجدار القريب من الباب. كلماتُ الأسئلة وعلاماتها الكلَّابية تمسكُ بقبضةٍ رهيبةٍ معصمَ الجسد، وتجعله بشكلٍ أفقيٍّ ليَدورَ به. فيحدث دوارٌ رهيبٌ. الجسدُ أثناء دورانه يضربُ كتبًا حديثةً، وملفَّاتٍ ومخطوطاتٍ، ورسائلَ وكتبًا متشابهةً مطبوعةً في بلدانٍ عديدةٍ سُوِّرَت بعضُ مخالفاتها لتحدث الفرقة، منابرُ من خشبٍ وحديدٍ وسوادٍ أعظم على شكل راياتٍ عليها كلماتٌ لا تتوضَّح معالمها. أوراقٌ صغيرةٌ وكبيرةٌ، رواياتٌ وأحاديثٌ مدوَّنةٌ منسوبةٌ لشخصياتٍ تخرج وجوهُها بلا ملامح تُنَكِّرُ ما قالته. كتبٌ بأجلدةٍ عتيقةٍ، خرجت من مكتباتٍ أسطوريةٍ تاريخيةٍ وحوزويةٍ وأزهريةٍ وأم القرى وبوذيةٍ وكهنوتية. يخرج مشهد خيولٍ صاهلةٍ تركضُ في البراري، لها وقعٌ من خبب الحرب، تحاول اللحاق بكلِّ هذه الكلمات التي تجمَّعت لتتَّخذ اتجاهًا واحدًا، يفتح لها بابٌ واحدٌ واسعٌ جدًا في بناياتٍ عليها. يظهر في المشهد كلمةٌ غير واضحةٍ لكنها تدلُّ على مكانٍ أمني خطير ومخيف.

وجدتني ارتطم بالأرض، أفلُّ معصمي من قبضةٍ لم تزل تشدِّد قوتها في محاولةٍ للقبض على قوتي وردة فعلي، لكن الأمر اختلف. كنتُ أسمع أصواتًا مخيفةً، لا تنفكُّ تتكرَّرُ معي، أصواتٌ تعدُّد مصدرها هذه المرة، فيما كان البياض ينزل عليَّ من فوق، من سقفٍ عالٍ جدًا، يأتي على شكل غيمةٍ ويتكور أعلى السرير. أومأ لي فكري أن أهدأ، أن أترك كلَّ هذا جانبًا، فالجواب لا يأتي إلّا في حالة استرخاء. غصتُ في الصمت، وأنا أرى كلَّ شيءٍ في الطريق إلى الزوال، إلّا الغيمة البيضاء، كانت صافيةً، فيها صورةٌ على شكل قلبٍ كبير، لم أستطع تبيُّن المحتوى والمغزى، وجدتني أضع وجهي داخلها، وأرمي كلامي بهدوء: «لماذا كلُّ هذا الصراع، وبإمكانك أن تمطري على كلِّ العقول؟»

المشهد الثاني عشر

مشهدٌ عامٌ لمدينةٍ مكتظّةٍ بالناس والسيارات والبائعين المتجوّلين وعربات التكتك، الشمس لم يبقَ لها إلّا ساعةٌ وتكون في سمتِ السماء، ويتحرّك الظل تحت أقدامِ المارّة وقاطعي السبيل، فيضطرّ العمّال والكسبة إلى حمل قطعٍ من كارتون علب الأشياء المُفرغة في الأسواق والمحالّ التجارية لتكون مظلّاتٍ فوق الرؤوس. الوجوه تترقّب ما لا تُريده أو تنتظر حدوثَ ما تريده في خضمِّ الصراعِ اليومي مع الحياة وارتفاعِ الأسعار بسبب ارتفاع الدولار، نتيجة الحرب على غزّة، وإطلاق الصواريخ من قِبَل فصائل المقاومة باتجاه قواعد الكيان.

البعض يتابع نشراتِ الأخبار في المقاهي والكوفيهات والكازينوهات التي تعدّدت أسماؤها والمقهى واحد، يحدث نقاشٌ بين اثنين أو أكثر عما يحصل من تأثيرات الحرب. فالمضاربون بالدولار يناقشون ضعفَ الحكومة العراقية في محاربة الفاسدين في هذا المجال، والذين يرومون السفر حين سمعوا بتوقّف الرحلات الجوية للعديد من الخطوط الجوية للدول إلى العراق حتى إشعارٍ آخر، تبادلوا الشتائم وعدّوا الأمر خسارةً للعراق، لكنّ الكلام كان في اتجاهٍ آخر. فيما يناقش قسمٌ مُنزوٍ في عُمق الأماكن أو الذين يجلسون على أرصفة فتحات الأزقّة، وهم يتحدّثون عن السرقات وزِنى المحارم والطلاق الذي زادت نسبته وأسبابه، ويهمسون لبعضهم خوفًا من الجدران في القضايا السياسية التي تتعلّق بالأحزاب الإسلامية.

الباعة يصرخون عبر مكبّرات صوتٍ يضعونها فوق مركباتِ البيع أو (عَمّاريّاتهم) أو وضعوها على حافة الرصيف لتكون أكثرَ قوّةً وجذبًا للمشترين. فيبدو الشارع والباعة وكأنهم منصّاتٌ للمزادات العلنيّة، صخبٌ كاملٌ وفوضى أكبر. يبدو هناك شرطيُّ مرورٍ يمسك هاتفه النقّال ويصوّر سيارات المخالفين، لينظم بعد ذلك غراماتٍ ماليةً لا يعلم بها صاحبُ المركبات. فيما يبدو الشرطي الآخر يتابع صورًا في هاتفه النقّال، وربما يلعب لعبة (البوبجي) لقتل الوقت الممل، لكن لا أثر للشرطي الذي كان يتلو القرآن، ولا للصبي الذي كان الناس يرمون عليه الطابوق.

المشهد يبيّن تغيّرًا في الأعلام والرايات الملوّنة بالأخضر والأسود والأحمر وحتى الأصفر، التي كانت تملأ الشوارع. حيث بدت الأعلام الفلسطينية ترفرف معلّقة على أعمدة الكهرباء وفوق المحالّ، كما رفعها أصحاب السيارات مشدودةً بقطع قماش على المرآة الجانبية، في إعلانٍ واضحٍ لنصرة القضية الفلسطينية».

يظهر حامد وحيدًا، وجهه لا يحمل ملامحَ الراحة أو الهدوء أو الفرح، كلُّ شيءٍ متجهّم على وجهه وما يحصل أمامه. يده تمسك بالهاتف، يهتز بين يديه، وإبهامه يوضّح قلقه وإرباكه وهو يضغط على الشاشة. لحظةً يظهر اسم (سامر) على الشاشة. يتعثّر حامد بحجرٍ مرميٍّ على حافّة الرصيف، كاد أن يسقط، تمرّ عجلة تكتكٍ مسرعة كادت تصطدم به، يبدأ زعيق منبّهات السيارات فتتوقّف الحركة بسبب إشارة المرور. والصبي يشتم ويسبّ حامد لأنه لم ينتبه، وأخّره عن اللحاق قبل الإشارة الحمراء، يصرخ الصبيّ صاحب التكتك، الذي يظهر بموديل شعر جديد من النوع الذي ينزل على الجبهة، حيث كانت النساء سابقًا يقمن بهذه التسريحة لزيادة جمال وجوههن أو لتغطية خللٍ في الخلقة: «عميان ما تشوفون؟ ما تتخلّصون من الموبايل حتى وإنتو تمشون تلعبون!»

يبتسم حامد للصبي، الذي أشار إلى أصحاب السيارات خلفه بإشارةٍ قاذعة.

فيخرج رجلٌ رأسه من الزجاجة الجانبية ويخاطب جمعًا من أصحاب السيارات التي اصطفت أمامه: «شوف الله شيْسَوّي بينا بعد، ماكو رحمة».

حامد يعود إلى الشاشة، حيث يُتابع اتصاله الذي ينقطع دون حصول الاستجابة. يقف متأفّفًا، ضجرًا، يخرج الكلام من حنجرته لكنه يضيع وسط الفوضى فيبدو همسًا: «لولا أمّك وإلحاحها لما اتّصلتُ بك. أتّصل بك حتى أقنعك أن تخرج من العزلة، لكنّك لا تحترمني ولا تردّ عليّ حتى بكلمة ‹ألو›».

يخرج علبة سجائره، يستلّ واحدةً، يوقدها وينفث الدخان. يتصاعد الدخان أمام وجهه، يظهر وجهه وقد تصبّب عرقًا، فيما تحمرّ عيناه وتدمع اليمنى، فيحكّها بطرف كفّه ويسحب مخاطه. يعود ليحدّث نفسه، بصوتٍ لا يسمعه إلّا هو، تبدو شفتاه تتحرّكان: «تدخل نفسك في معترك لا يحتاج إلى تفكير، بل يحتاج إلى صبر وصناعة اللامبالاة». يحرّك رأسه علامة الضجر: «تبًّا لك وللساعة التي عرّفتني بك».

يهزّ رأسه، تظهر على وجهه ابتسامةٌ فاترة، يسحب نفسًا من السيجارة وينفثه، فيُعاد المشهد السابق في احمرار العينين: «لكنّك صديقٌ مهذّب، وأمّك تشبه أمّي، صابرة». يلتفت يمينًا ويسارًا، باحثًا عن سبيلٍ للتخلّص من عهده لأمّ سامر. يعبر الشارع بطريقة الأفعى من وسط السيارات، ويظهر المشهد من بعيد وهو يتحرّك باتجاه الأسواق».

زدتُ تعاسةً، وأنا لا أجيبُ على اتصالِ حامد.. الصديقِ الوفيِّ والصاحبِ والخِلّ. كنتُ أنظرُ إلى شاشةِ الهاتفِ النقّال وأعتصرُ ألمًا، لأنّه لا يوجدُ شيءٌ جديدٌ في الجهةِ الأخرى، وما يريدهُ منّي وما تريدهُ أمي. لو اتصلتُ به، سيقولُ ذاتَ الكلام الذي ناقشناهُ في آخرِ خروجٍ معًا وفي آخرِ اتصال. كما أنّه يلحُّ عليَّ أن أكونَ لا أباليًا.

قلتُ له: «لو أجبتني على السؤالِ لفعلتُ ما تريد». قال لي: «تفضّل». قالها بترقّبٍ مثيرٍ للشفقةِ، لأنّه يعلمُ أنَّ أسئلتي لا إجاباتَ لها: «لماذا نقتلُ بعضنا، ولماذا نقتلُ في الحروبِ، ولماذا نقتلُ من قبلِ الطغاة؟» صاحَ بوجهي بانفعالٍ لم يكن عاديًا من قبل: «على مهلك! أينَ نحنُ؟ نحنُ في العراقِ وليس في أمريكا كي تتكلّمَ بصوتٍ عالٍ أمامَ الناس!» ضحكتُ في حينها وقلتُ له: «الخوفُ جزءٌ من القتل».

أعرفُ أنَّ أمي هي التي تطلبُ منه وتلحُّ عليه. أمسِ سمعتها وهي تهذي كما هي عادتها مع كلّ صلاةٍ للمغرب: «حتى حامد ما نفع بالإقناع»، لكنها لا تعلم ولا يعلم حامد أنَّ جعبتي من الحلول فارغة. رميتُ الهاتف على السرير، فنام على وجهه، رحتُ أنظر إلى المروحة السقفية لأوّل مرّة، كانت أجنحتها الثلاث أو كما تسمّيها أمي (ريشاتها) لأنها تشبه ريشةَ الطيور، تدور بلا انقطاع. لم أشعر أن فيها هواءً، ولم أشعر أن الجوّ خانقٌ، متوقّفٌ في داخلي الإحساسُ بالأشياء. لكن المروحة أعادتني إلى حامد وخوفي من زعله. فهو الذي يجب أن أُحافظ عليه، لأنه على الأقل بوصلتي واتصالي في الدنيا التي أبحثُ عن مستقرٍّ لها. هو المصدر الذي يجعلني ثابتًا في الحديث عن كلّ شيءٍ وعن كلّ ما أريده، والانقطاع عنه يعني انقطاعي عن العالم المحيط.

راحت كلماته تدور مع حركة (ريشات) المروحة وأنا مستلقٍ على الأرض، رافعًا رأسي نحوها، كلامه الذي يتركك هائمًا على ذاته، لأن لا شيء في ذاكرته غير الكلمات ذاتها، ويدرك أنه يفعل هذا لأن الحياة تكرِّر معاناتها: «كن طبيعيًا ولا تفكّر بالأسئلة ولا بالأجوبة، الأجوبة أنت من تجدها لأنك من يختار الأسئلة». يتأمّل في وجهي الصامت ثم يردف القول: «دع الأجوبة غائبةً أفضل وأحسن، لأن حضورها ربما يكون أكثر إيلامًا».

لم أقتنع بما يقول وما يريد. وجدته عاجزًا عن الإتيان بفعلٍ واحدٍ يرضي

ثقافته ووعيه وحتى إيمانه. هو ذاته لن يتغيّر منذ أن كنّا في الجامعة وبعد التخرج، كان يعيش يومه ويدخل، وأنا منغمسٌ في النقاش بين الطلبة عن الحياة وما نلاقيه من عذاب، الحياة والواقع والسياسة والدين. قلت لمجموعة من الطلبة وكان بيننا أستاذٌ جامعي من الذين أطالوا لحيتهم ووضعوا محابسَ في أصابع يديهم اليمنى واليسرى: «من المسؤول عن احتلال داعش لثلث العراق؟»

كان السؤال قد نزل يحمل جناحين من عاطفةٍ مسحوقة، جناحٌ مؤيّدٌ حدّ التخمة والاستعداد بالتضحية والاستجابة للفتوى، وجناحٌ بدا مثل هتافٍ غير مرغوبٍ به، صراعٌ في النقاش، كلٌّ يرمي التهم إلى الجناح الآخر، فيما كنت أستمع إلى ارتفاع الأصوات أكثر منه إلى فهم الحقيقة. إجاباتٌ لا ترتقي إلى مستوى السؤال وحديثه. كان صراعا مصغرًا يوضح صراعًا بين المذاهب والسياسات، كلٌّ يكفّر الآخر، والقتل علامةٌ من علامات التهديد والوعيد، فيما كانت عيونهم على أيّة طالبةٍ متبرّجة. أوقفتُ الجدال بسؤالٍ آخر: «أين الحقيقة فيما تقولون؟ ثم أين الله من كل هذا الذي يحدث إذا كان كلّ فريقٍ يقول إنه معنا؟» انفضّ الطلبة من حولي ولم يبقَ إلّا حامد وطالبةٌ تعبر عن رفضها لكلّ القيود التي تمنعنا من الحرية، وكلّ من يتحدّث معها بأمورِها الشخصية كما تقول. حامد سحبني من المكان مستأذنًا من الطالبة معتذرًا عن الانسحاب.

قالت بشيءٍ من القوة واللامبالاة بالخوف: «ستتعب نفسك من كلّ هذا. لديّ في العشيرة هم ألعن من هؤلاء»

غادرنا الجامعة بناءً على إلحاح حامد: «ربما سيكتب أحد الحضور تقريرًا إلى المخابرات، حينها إما يستمر اعتقالك أو يُحرمك من التخرّج وأنت في السنة الدراسية الأخيرة». هناك عسسٌ دائمًا في أيّ نظامٍ سياسي في العالم. يخبرني حامد بأن هناك أحزابًا تستغلُّ كل شيءٍ لتتخلّص من ليس معها، عليك أن تعلم

كيف يكون النهر بقصد الخوف والغضب بقصد التحذير. عتبهم من نوعٍ آخر يا صديقي».

كلّمتُ مع نفسي، مؤيّدًا وخائفًا وحذرًا، أحمل سؤالي معي مثل سكّين خاصرةٍ رخوة. لا أستطيع أن أُجوبَ البراري مثل متابعٍ لأقوال الأوّلين، لأكتب كتابي الصحيح، فلا ثقة بالرواة، ولا حصان لأطارد عليه، ولا مراميَ مفتوحة لتجوال والتنقيح، ثم لنا حدودٌ من نار، حيث ينقسمون إلى أتباع، وكلّ أتباعٍ لهم عسسهم، حيث يدونون الأحجية ويعلّقونها في رقابِ من يريدون الإشارةَ له.

كان أبي يحدّثنا بخوفٍ في غرفةٍ مغلقة، عن عسسٍ في زمن ما قبل الاحتلال. وأخي ساجد يتحدّث عن عسسٍ من نوعٍ آخر، الذين يتظاهرون ضدّ الدين والعلمانية، وإفشال المشروع الديني. وأخي ماهر يتحدّث عن عسسٍ الأحزاب التي لا تريد للحرية أن تكون هي المقياس للدولة، وحتى لا يحارب أحدٌ الفاسدين والمرتشين.

شعرتُ بورمٍ في رأسي تتكدّس فيه الأقوال، ليحشر قول حامد فوقها: «في واحدةٍ من ساحات التظاهر، رُفع شعار لم يزل مكتوبًا على أعلى بنايةٍ في الحبّوبي (الخائفون لا يصنعون الحرية). قلتُ له: «هذا شعار عام يجب أن يفرح به الجميع». ضحك حامد، والتفت إلى خلفه ليتأكّد من أن لا أحد يسمع، أو يقف خلفنا حتى لو كانت طالبة في طريقها إلى كافتيريا الجامعة: «الذين كانوا ينتقدون النظام لأفعاله هم يمارسون نفس الدور في الإقصاء».

كنت اريد الاحتجاج بصوت عال، وقبل أن أقول كلمتي، وضع راحة يده على فمي، خرجت الكلمات مسرعةً ملتهبةً من فمه: «بروح أبوك لا تعقّب. أعرف ماذا تريد قوله.. الزم الصمت أو أنا من يترك المكان». وكان ماهر يؤكّد غير ذلك على الشعار من أن: «الحرية أن تفعل ما تريد شريطة أن لا تؤثّر على الآخر. فالسفر

والتغرّب حرية حتى لو كان هروبًا من واقع قاتل. «يا الله.. ها نحن في كلّ نقاشٍ نعود إلى القتل. لا زمن بلا قتل، ولا حرب بلا قتل». قلتُ جملةً لم تزل ترنّ في أذني: «الخوف لا يجعل أحدًا يفكّر بالحرية.

غادرتُ الكلية وحدي، بعد أن عاد حامد إلى قاعة الدراسة.. أنا من طلب منه ذلك. قلتُ له: «عُدْ إلى الدراسة.. ما ذنبك أنت؟ أنا من يبحث عن الحرية في طرح السؤال، حتى لو كان ما يعتقده الآخرون كفرًا». كنت أشبه بالهارب، حاملًا معي زجاج أسئلتي الأولى التي أخاف عليها من التهشيم، أعدّل من خصلات شعري النازل على أذني، مغادرًا بناية الكلية والجامعة، كمن يهرب من وضعٍ غير مريح، طالبًا الراحة حتى أعود في اليوم التالي، محاولًا الالتزام بوعدٍ قطعته لأبي ألّا أتدخّل في النقاشات، ووعدتُ حامدًا أن لا أكون جزءًا من جدال.

قال لي في اليوم التالي: «لا عليك بالناس يا صديقي. ستتعب». حين رآني أنصت له، بدا يُمَوْسِقُ الكلام بطريقة من يمتلك الحجّة بالإقناع: «متّع ناظريك بالجمال؛ الجمال هنا يمطر وردًا من روحٍ وريحانٍ وزنبقٍ ورمان، وجنةٍ وجِنان.. اخلط ما تريد من الأقوال».

بدأ يضحك كَمَن تمكّن من إقناعي، واستمر بالكلام: «هنّ يتعالين ويتمردن على كلّ شيء، حتى مَن تُخفي جمالها بالحجاب، فهنّ أسيرات عاداتٍ وتقاليد، للأغلب منهنّ. فمتعْ ناظريك، كما يقول الفلاسفة: الجمال موضوعي ونسبي، فخذ النسبة التي تعتقد أنها تريحك على الأقل من التفكير المُقيت».

طلبَ مني أن أبتسم، أو حتى أتظاهر بالابتسام، أن أتغزّل بمن أريد من الطالبات.: «من ترضى تبتسم، ومن لا ترضى ستتركك حيث أنت، فلا جناح عليك في الكلام، حتى لا تعطي الحجّة لمن كان يشكّك في النقاشات والآراء التي يعتقدها مضادة أنك تتبنّى تلك الأفكار». أنا أعلم أنه يريد سكوتي. لكن لساني

لم يكفّ عن الثرثرة، بحسب قوله. قلت له: «وماذا بعد الغزل؟ هل يعصمنا من الموت؟»

ضرب رأسه وهو يَصُكُّ على أسنانه. كنّا نمشي وحدنا في الحديقة الخلفية لقاعات الدراسة، المكان الذي لا يلجه إلّا العشّاق، والذين غدرت بهم الحبيبات، كما يُسمّيه الطلبة. صاح بصوتٍ لم يكن عاليًا، مُتقَمّصًا دور العاشق المغدور: «ها أنت تريد أن تؤسّس لنا مدينة فاضلة، وتعلم أنها لم تتحقّق إلّا في رأس فيلسوف لم يقرأ التاريخ جيّدًا ولم يفهم الحياة جيّدًا. أراد أن يُغالب حتى الأنبياء في إصلاحه الكوني».

جلس على مِصطَبةٍ إسمنتية، خلفها صورةٌ لفيلسوفٍ لم تتوضّح معالمه: «أنت تريد حياةً لا عدوانية فيها ولا كراهية، تريد أن تجد الإجابات قبل طرح الأسئلة، متناسيًا أن أوّل جريمة كانت قتل قابيل لهابيل، قبل أن يبلغ عمر الحياة حوْلَيْن من العقود!»

حقيقة، في حينها أعجبني حامد، فقد كان حقًّا يفهم معنى كلية الآداب، ويقرأ، لكنه يتظاهر بالغباء واللامبالاة. كنتُ أُصغي له، نهض من المِصْطَبة وأجلسني بدلًا عنه، معطيًا ظهره للقاعات الدراسية، قال: «أيها العالم، هذا صديقي، رغم أن اسمه سامر، لكنه لا يعرف كيف يُسامر أفكاره وروحه ونفسه. إنه قاتمٌ، ناقمٌ، ساهم.. تعال واسمع أيها العالم، الذي لا أحد يعرف كيف سيكون مستقبلًا ولا نحن نعرف كيف سنكون. هذا الشاب مهووسٌ ومسكونٌ بالجدل والأسئلة، يعيش في منطقة الرماد».

كنت أنظر له بريبةٍ وراحةٍ في الوقت نفسه، وقد مددتُ ذراعيّ على مِسند المِصطَبة، ووضعتُ ساقًا على ساق، ورحتُ أُومئ برأسي كأني أستمع لخطيب. وسّعت من ابتسامتي له. وجدها حامد لعبةً فتمادى بالقول، ورفع صوته أعلى:

«تعالن يا بنات العراق، تعالن وأَخرِجنَ هذا السامر من حزنه وكآبته وجنونه، وأعطينه درسًا في اللامبالاة!»

لم أتكلّم ولم أناقش ولم أردّ عليه. كنت أنظر إلى الطلبة وهم يسمعون صوت حامد، اقترب بعضهم منّا. كان بينهم طالبان من مرحلتنا يمرّان بفترة عشقٍ رهيبة. قال الطالب: «عِش حياتك بصدقٍ ولا عليك بالكاذبين». بينما قالت الطالبة: «بلا حبٍّ لا معنى للحياة ولا معنى للأجوبة». كان كلامها قد ضَرَب حينها على يافوخي. نظرتُ إليها نظرةً ذات معنى، نظرةً فيها ثقوبٌ لأسئلةٍ لم أكن أعرف أنها مستقبلية: لماذا لا نعيش في جمهورية الحب؟ أفلاطونية كانت أو أيّ تسميةٍ أخرى؟

يظهر حامد وهو يقف أمام صفوفٍ من الطلبة، رصّوا أنفسهم على شكل خطوطٍ مستقيمة، كما يظهرون وهم يقفون طوابير على شُرفات أبنية الكلية ذات الطابقين. ينتقل المشهد إلى طابور الأساتذة والعمادة والموظّفين والعمّال وأصحاب كافتيريا الكلية، وسُوّاق الكلية وحتى سائقي العجلات التي تشكّل خطوطًا لنقل الطلبة من بيوتهم إلى الكلية والعودة بهم بعد انتهاء ساعات الدراسة. الجميع يقف في الخطوط كما يقف المصلّون خلف الإمام. مشهدٌ أصاب حامد بالخوف، فالرقاب المنتصبة على أجسادٍ متصلّبة تقف باتجاهه. يرفع رأسه إلى السماء، يوجد الطيور تصطفّ بطوابير ومحلّقةً بثباتٍ دون حَراك. والمشهد إلى يمينه تصطف فيه الكلاب السائبة والقطط الضالّة التي غالبًا ما تكون قرب حاويات النفايات وخلف بناية الكافيتيريا. تمرّ اللحظات فيصعد المشهد إلى الأعلى، تظهر المدينة كلّها واقفة، كأنها في دقيقة حداد.

يرتفع علم العراق فتبدأ منبّهات السيارات بالزعيق والأطفال بالمسيرات، لكن لا هتاف يُسمع. يُصاب حامد بهلع، يلتفت في كلّ الاتجاهات بحثًا عن مخرجٍ لخوفه، لكن الشفاه بدأت تتحرّك، يخرج الكلام على شكل ملحقاتٍ متقاطعة،

تبدو مستهزئة، متهكّمة، تتجمّع أصواتها في المنطقة الفارغة بينه وبين الجامعة. يطلق تنهيدةً عالية، يزفر زفرةً لاستخراج المارد من جوفه، ليُعلن إمكانية التخلّص من الخوف. عيناه تترصّدان سامر، وهو يقف بلا حَراك، لكن لا خوف على ملامحه. يراه مراقبًا لما آلت له الحالة، الوحيد الذي حرّك يديه باتجاه السماء. حامد يقترب من نقطة التقاء الخضرة بميسم الحديقة المرصوف ببلاطات اسمنتية ملوّنة: «لا تفكّر، لها مدبّر».

عينا حامد تدمعان، يصاب برجفةٍ جعلت جسده يختضّ للحظة. يقترب طيرٌ من فوق رأسه، يخفق بجناحيه، يشعر بالراحة. يبرز صوتٌ من جهةٍ مجهولة، يعيده إلى ارتجاف المفاصل: «الحقّ بيّنٌ والباطل بيّنٌ، والحياة مسيرة تتوّج بالآخرة حيث جنّات الرحمن أو نار جهنّم». تصدح تكبيراتٌ هائلة، من جهة مكان سائقي السيارات، تُصيب رأس حامد بالدوخة. تصعد من قمة رأسه وتدور فيه، يشعر أنه سيسقط أرضًا. يبدأ تصفيقٌ من الطابق الأعلى، تصفيقٌ حاد، فيما تصدر من جهة وقوف الأساتذة أقوالُ الحِكم التي أطلقها الفلاسفة والفقهاء.

يبدو المشهد مفعمًا بالتحدي والعنفوان، تمتلئ الذاكرة بالتصفيق، التصفيق لمن؟ يشير حامد لسامر. يشير سامر لحامد أنه لا يعلم لمن.. يتعالى التصفيق، يضغط على رأس حامد. يلتفت إلى الوراء، يجد مكانًا فارغًا. يعطي لساقيه الإيعاز بالركض، يركض، يلحقه سامر، تتساقط من رأسيهما كلّ الكلمات. وما إن خرجا من بناية الكلية حتى أصبحا خفيفين، فارتفعا عن الأرض، يلاحقهما صوت العمادة: «هذا مكانٌ للعلم، وليس للمهاترات والفلسفة الفارغة»

رنّ الهاتفُ النقّال، وكالعادة أخرجني ممّا أنا فيه، ساحبًا إيّاي من تشابكِ المشاهد التي أخذت ترتطم في الغرفة. كان حامد أيضًا على الجهة الأخرى. اعتدتُ أن أفعل أشياءً جديدة، منها ألّا أشعر بالألم إذا ما امتنعتُ عن الإجابة أو الرد، وتفضيل الصمت. وأن أُحاور نفسي وألومها، أفضل عندي. مثلما اعتدتُ على

أن أضع مع كلّ حالةٍ سؤالًا بين الأسئلة. لكن هذه المرّة لم أسمع صوت أمي. اليوم مرّ ولم أسمع التكبيرة أو حتى طرق الباب للتنبيه على وجود الطعام. يومي أعرفُه نهارًا ومساءً من نوع الوجبة؛ بيضةٌ واحدة أو علبة قيمَر مُعلّب وصمونة واحدة واستكان شاي، يعني أن الزمن هو الإفطار. صينيةٌ فيها ماعون رز ومرق وخبزة ورأس بصل، يعني أن الوجبة غداء. فيما كان العشاء قد امتنعت عنه، وطلبتُ من أمي ألّا تُزوّدني به. ضحكت وقالت:» النُسُكُ والكهَنَةُ والمفكّرون والمعتزلون والصوفيُّون والعِرفانيُّون والمتأمّلون، لا يأكلونَ الوجبات». أعادت سخريّتها من جديدٍ للتأثير عليّ، لعلّي أفعل شيئًا، لكن لا رَدّة فعل من هذا النوع، فهي أمي.

انتهى الاتصال، لم أُجِبْ على حامد، ولم أقطع الاتصال لأُبيِّن له أنّي لا أريد الإجابة. كانت بي رغبةٌ أن أعود لأسجّي جسدي على السرير، لعلّ هناك إجابةً على سؤال، ولعلّ الجوابَ يهبطُ مثل وحيٍ يحمله البياضُ أو الريحُ أو الصمت. كان شعري مُنْفَوشًا، ولحيتي قد طالت، واختلط شعرها بشعرِ فودَيَّ ورأسي، حتّى وجنتايَّ نبت فيهما الشَّعر. وضعتُ رأسي على الوسادة، وجدتُني أشعر كأنّي أنام على طابوقةٍ لم ينشف الماء منها بعد. قرّرت ألّا أفكّر بشيءٍ آخر؛ أبعد حتّى الوساوس والشَّيطان والأصوات والصّراع والأفكار، وحتّى الذّاكرة. أقترب من لحظة الوقوف بين الأسئلةِ والأجوبةِ. سجّيتُ جسدي تمامًا، وغرقتُ في بحرٍ من الهدوءِ لم أكن عليه سابقًا. هدوء تامّ يشبه هدوء من وصفتني به أمّي، «النّاسك العاشق». تراءَت لي الصّور قبل أن أُغمض عينيّ، وكان هناك ما يتسلّل إليَّ من أشعّة الشّمس، وأصواتٌ تأتي بشكلٍ جهوريٍّ للاستعداد لما هو آتٍ. شيءٌ ما يقترب، ضوءٌ يهبط من الأعلى، يخترق السّقف، لونٌ أبيض، فيه عطرٌ لم أشمّ مثله من قبل. هبط بهدوءٍ، كأنّ أحدًا يدفعه من الأعلى، أو يسحبه من الأسفل. لم يكن مثل الرّؤى السّابقة؛ كان خفيفًا شفّافًا، فيه برودةٌ تحمل لذّة الحضور. كنت

أخاف ألّا يستمرّ الأمر، وتقطعه الأصواتُ المريبةُ التي تشكّك حتّى بكوني حيًّا أو ميّتًا، أو إن كانت هذه طقوسًا أم شعوذةً، جنونًا أم عينَ العقل. كنت أريد أن أحيطَ بكلِّ شيء.

مشهدي الذي أراه يتكلّم عنّي وأنا مُسَجّى. اليدان ممدّدتان مضمومتان إلى الجانبين. ثمّة كتابٌ أو ورقة، قلمٌ أو دَواة، حروفٌ تتراكم، كانت حاضرة في المشاهد السابقة، الآن أكثر وضوحًا، يهتزّ الجسد، يدخل شكلٌ ليست له ملامح، رؤيةُ مَن هو مُغمض العينين. حضرت جملةٌ مخيفة لا يريد الجسد سماعها: «لا تُصدّق بما تراه، فأنت لن ترى سوى هلوساتك». كانت تطوف مع الكلمات، تتحرّك فتثير الغبار، تذهب لتتكوّن على النافذة، تُصاب الكلمات بسُعالٍ حاد. تخرج أفواهٌ كثيرة تتحرّك داخل الغرفة، تُصاب بسُعالٍ بسيط، تقحّ ثم تلتصق بالجدران. يعود السكون إلى المكان، الجسد مُسجّى بلا حراك، لا يتأثّر بما يُحاصِره. تأتي يدٌ، تمسح على الوجه، تُعيد ترتيب شعر الرأس، ثم تتحرّك باتجاه القلب، تُسمع الدقّات المتسارعة، تعود إلى نَبضها المعتاد. لكنه من جديد يُصاب الجسد بحضور الخوف، تُغادر الأوصال سكونها، تظهر عضلة الذراع اليمنى، ترتجف، والفم يُريد التخلّص من سُعالٍ حضر مع تحرّك الغبار من السِتارة. يصبِر الجسد ويُعيد سكونه من جديد، ثَمَّةَ قوّة تُشارِك الجسد، تظهر على شكل يدٍ كبيرة، يشعر بالإحسان والراحة، مثل شعور الوصول إلى نهايات السباق، وخطّ النهاية أمامه وهو وحده في المضمار.

يَفتح الجسد عينًا واحدة، مع سماع صوت الأم، وهي غارقة في الدعاء. لكنّ الأدعية لا تُسمع داخل الغرفة، إن كانت ضدَّها أو ضدَّ ابنها. هي دومًا تندب حظَّها العاثر، تقول: «لو أنجبتُ بنتًا لكانت الآن لي عونًا، بدلًا من ثلاثة لم يتفقوا على كلمة». كاد الجسد يضحك، ويخرج صوتٌ من داخله، يُعيد ترتيب الحروف التي قالها في وقتٍ سابق: «حظّك العاثر، كما تقولين، البيت الذي لا بنتَ فيه لا حياةَ فيه».

بلا إرادة، ينسدل الجفن على العين المفتوحة. تأتي يدٌ بيضاء تقف على الجبهة، رعشةٌ أشبه بصعقةٍ كهربائية خفيفة، تُزيل عن الجسد تراكماتٍ كبيرة، تتكوّم في إناءٍ فخّاري، له القدرة على تحمّل حرارة الألسن وشدّة الأصوات.

في تلك اللحظة فتحتُ عينيَّ الاثنتين، حتى لا أُكمل المشهد. شعرتُ بالخوف من أن تصل اليد إلى عينيَّ فتسدلهما، كما يفعل أهلُ الميّت حين تبقى العينان مفتوحتين. في تلك اللحظة تخيّلتُني بلا فائدة، حتى في هذا التفكير والحوارات الخاصة.

لم أزل ممدَّدًا، واليدُ أَشعر بها، ملمسُها ناعمٌ وهي تُمرّر راحتها على وجنتيَّ. سينزل مطرًا هنيئًا يُرطّب داخلي النّاشف، ويسطع ضوءٌ آخر، يَخترق النّافذةَ والستارةَ بكلّ تراكماتِها. أرى طيورًا محلّقة، وفراشاتٍ ملوَّنة. أَسمع زقزقةً وحفيفَ أشجار. أتنفَّس بعمقٍ، يخرج السؤالُ من عمق جوفي مع الزَّفير، كأنّه استفزَّ المكوث أمام ما يحصل، وضغط داخلي وجوفي على العَضلات. كان السؤال يُردّد: «أين أنا؟ أَيعدُّ الطَّريق صحيحًا للمكوث أمام كلّ هذا الذي يهدّد العالم، ويريدُ إحداث تغييراتٍ حتى في خرائط الدول؟»

انقلبت الأشياءُ داخل مشهدي، أنا وصورتي الأُخرى، الأشياء تنقلب على أعقابها. سمِعتُ ألسنًا ترتطمُ بالباب، وأصواتًا خشنة، غاضبةً، مختلطة. أصواتُ مُظاهراتٍ واحتجاجات، ولعنٌ وتُهم، وتعقيبٌ مرٌّ ومزاولةٌ مريرة: «علينا القتال، فالحرب سِجالٌ، والأُمَّة في خطر، والنصرُ حتميٌّ!» يُقابلُها صوتٌ آخر: «لماذا علينا أن نقاتِل؟ ألم يأت نَفَرٌ منهم يَقتلوننا أم نسِينا؟»

البابُ يَتحرَّك، تعادُ بعثرةُ شعري وفوضاي وأسئلتي التي لم أعُد أسيطرُ عليها. أصوات المكبِّرات والتَّفجيرات وقطع الرؤوس، وخُطب الطُّغاة، ولعنةُ الخطباء

والأُمراء والموتُ. أهرب إلى جهةٍ، تلاحقُني أكوامٌ من الأقوال التي لم يمضِ عليها عقدٌ، حين كانت الحربُ في المدن والجنَّةُ تتَّسع للجميع.

رفعتُ يدًا لأُزيلَ الاختناق الذي بدأ ينافسُ بلْعومي في الشَّهيق، مستعينًا بالبياض الذي ابتعد. أردتُ أن أُعيد السُّؤال قبل أن أَحترق في خِضمِّ الخوف. ارتجفَتْ يداي، كدتُ أَسقط من فرط الهولِ من السَّرير. سمعتُ رنّة هاتفي النَّقال؛ كانت رسالةً من حامد، تعاتبني على عدم الردِّ على الاتِّصالات. وجدتني أتصبَّب عَرقًا، أبحث عن يدٍ تغلِق الهاتف، وعن هواءٍ يدخُلُ رئتيَّ.

المشهد الثالث عشر

الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، هدوءٌ كبير يسبق الصلاة، لا حركة لأمي. كنتُ أعرف أنها انتهت من إعداد الغداء، وأنها بعد أن تصلّي ستجلب صينية الأكل وتضعها عند عتبة الباب. الغرفة خرساء، وأنا أحاول التدريب على الحركات الرياضية، فقد تعرّضتُ إلى تعب التمدّد مسجًى طويلًا ليلةَ أمس، ولم أجد جوابًا شافيًا بعد. لذا أشعر أن عظامي واهنة لا تحمل جسدي، وخطواتي متعبة، وظهري منحنٍ وألمٌ في العمود الفقري. أكلٌ قليلٌ وماءٌ أشربه مباشرةً من حنفية المغسلة لا يغسل المثانة، ولا يكمل دورة الإدرار. لكن لم تزل فكرة رفض الخروج تعتلج في صدري، الرفض أن أكون جزءًا من الواقع حتى أعثر على ضالّتي في الإجابات. أدرك أن المشكلة بالأسئلة، وهو ما أكرره دائمًا، لأن الإجابات مطروحة، والسنّارة هو السؤال، لكن الإجابات هذه المرّة ليست قراءةً أو تلويحًا بالثقافة أو البحث عن الكلمات في الهواء الطلق أو من بين أفواه الآخرين، بل هي التأمل. العالم موحش ووحشي، هكذا يحدّثني عقلي، مثلما يحدّثني أن الأمر صعب، فالحلول دائمًا هي الأصعب، أما المشاكل والصراعات فأسهل ما يكون. قد تبدأ بكلمةٍ، وقد تبدأ برصاصةٍ أو مصلحةٍ أو فتنة. فيما تحدّثني العاطفة أن الأمر يحتاج إلى الكثير من الصبر والبكاء والنواح والصلاة والتذلّل. ويحدّثني الواقع أن الاهتمام الزائد بأيّ شيءٍ قد يصل إلى الجنون. لذا قيل لنا إن أغلب الفلاسفة مجانين. لكني لست فيلسوفًا، ولا أريد أن أكون كذلك. جميعهم فشلوا في إحداث

التغيير في المجتمع. أفكار فوقية، وكذلك لم يستطع الفقهاء والمفسّرون ومن أُوتي من علم تفسير الغيب إلّا زيادة الصراع والتناحر. أعتبُ على نفسي على الحديث بمواضيع سبق أن تحدّثنا بها. ينهرني عقلي بصوت أسمعه يرنُّ في أذني فيحدث طنينًا دوارًا: «وكيف نمضي الوقت إذا لم نكن على استعداد حتى لإعادة الحوارات؟ فربما نجد مثلبةً فيها تعيد تكوين الكلام، أو نجد مثلبةً فنتجاوزها».

حقيقةً، أسكتني عقلي، وهو يلاحقني كي يمنحني الكثير من الهدوء، لذا طالبني أن أعدلَ من تسريحة شعري، وأن أغتسل فورًا وأخرج: «ثم عد إلى مكوثك حيثُ التأمّل». لم أقتنع بعد. قلتُ له: «أيّ خروجٍ يعني الاندماج وخسارة كل هذا الزمن. دعني في ولوجي، ولا تؤثّر عليَّ إلّا بما أريد منك أن تفعله. فأنت مؤتمنٌ بما أريد، أنت مسيّرٌ لي، ولست مخيّرًا كما تريد». عدلتُ من وضع شعر رأسي مع سماعي لترتيلٍ يأتي من الجامع قبل موعد الأذان. كانت ثمة حركةُ أقدامٍ وفتحُ صنبور ماء المغسلة، أعلمُ أن أمي بدأت تتوضّأ. وضعتُ أذني على خشب الباب، رحتُ أنصت لما تقول. ثمة شوقٌ لأمي لا أنكره، أعلم أني تسببتُ لها بالكثير من الأذى. الأمهات يتحمّلن الكثير من الأبناء. سمعتها تكبّرُ أكثرَ من مرّة. سمعتُ وقعَ خطواتٍ على بلاط الباحة (الكاشي) الذي استبدله أبي قبل رحيله. سمعتُ دعاءها بوضوح: «اللهم أعد لي ابني، ليس بيننا إلّا جدارٌ وهو بعيدٌ عني، فأنا لا أسألك ردَّ القضاء إنما أسألك اللطفَ به... اللهم ألطف به». شعرتُ بدعائها ينغمسُ في داخلي، كأنه يقول لي: «اجلس واهدأ وتأمّل بلا الذهاب إلى أشياء لا تكون مريحة». رنَّ في رأسي صوتُ أمي وهي ترجوني أن أخرجَ من الغرفة وأن أتناولَ الطعام معها في الأقل: «أرجوك يا ابني لا تفعل بنفسك ما لم ينفعك ولا ينفع غيرك، أنت العاقل الوحيد بين أخويك، لم تأخذ من

الكبير تعصبه ولا من الثاني تمرده». كنتُ أضحك وأبكي معًا، ولم أعرف ما في داخلي بعد.

سمعتُ صوت مؤذّن الجامع، أبعدتُ أذني عن خشب الباب، ليدخل صوت المؤذّن إلى أذنيَّ الاثنتين. صوت المؤذّن يأتي من النافذة. والدقائق تمر، كنتُ أجد فيها الصراع يتجدّد، والأفكار تتناسل، رغم أني أفهم المغزى والجواب، وأعرف التحليل. لم أكن أرغب بالمزيد من النقاش في هذا الموضوع، فهو يزيد من غلة التساؤلات والتيه أيضًا، ويذكّرني بحوارات ماهر وساجد في بدايات جمع الأسئلة في سلّة الظنّ والتشكيك، لذا كانت أمي تصرخ بهما: «المهم هناك أذان ينبّه الناس للصلاة، لا يهم التوقيت الدقيق». ثم وهي تستوي في وقفتها في منتصف الباحة، يعلو صوتها باستفهامٍ ساخر: «على أساس أنتم مضبوطين بالصلاة والاستغفار!!»

تدخل أمي إلى غرفتها للصلاة، أتابعها من ثقب الباب، هي تغلق باب غرفتها حين تصلي وحين تنام. ثمة مقولة: ألّا تترك الباب مفتوحًا وأنت نائم. تلتزم أمي بالتعليمات الغيبية. أخرج من الغرفة بهدوء، أترك الباب مفتوحًا، لا أريد لأيّ صوتٍ أن يخرج من وقع الخطوات. أمشي حافيًا على البلاطات، أمي تضع نعالًا أمام باب المرافق، وتمنعنا من دخوله بنعال آخر. تقول: «هذا نعال خاص للمرافق. حتى يبقى البيت طاهرًا». أفعل ذات الحركات وأنا أدخل للمرافق. لأذني أمي قوة السمع. أدلق البول الأصفر وأشعر بألم المثانة قد زاد، لكنه ألمٌ ليس قويًا. أخرج بخطواتٍ وئيدةٍ إلى المغسلة. أسمع أمي تكبّر ثم تقول بصوتٍ معلوم: «سبحان ربي الأعلى بحمده». إنها تسجد لله، وأنا أنتظر الرحمن أن يهديني السبيل.

غسلتُ وجهي بما يكفي لطرد التعب والنعاس، شربتُ ماءً بمقدار كفّين، بما يكفي لإذهاب العطش. انسحبتُ بذات الخطوات الوئيدة مثل لصّ واثق

من نفسه، أو مثل متّجهٍ إلى المسجد لا يريد أن يؤذي الأرض. اتجهتُ إلى الغرفة. أغلقتُ الباب، داهمني ضوءُ المصباح الخافت. طاردتني الهوامُّ على شكل خطوطٍ متصارعةٍ ومتقاطعة، كأنها تتحركُ أعلى هسيس نارٍ موقدة. شعرتُ بسخونةٍ تجتاحُ جسدي. لم أشأ التمدّد على السرير. رحتُ أمشي بخطواتٍ من الباب إلى النافذة، ثلاثةَ أمتارٍ ونصف. ومنها من الجدار الثاني إلى حافةِ السرير، مكانٍ جعله السرير مربع الشكل، أوسعَ قليلًا من زنزانةٍ سجينٍ متهمٍ بالمعصية.

غلبَ الظلامُ المكانَ، وغطس ضوءُ المصباحِ في حيرةِ عدم نفعه. المشهدُ متعبٌ، لم تخف السخونةُ، ولم يشعر بالجسد أنه يتواءم مع الحالة، ينتظرُ إشارةً من الضوء ليمهّد الطريق. تنفتحُ عينان وتغمضان، والظلام هو الظلام، تتحرّكُ الأصابعُ في فراغٍ، لا تلمسُ سوى أشباحٍ تتحرّكُ، لها وقعُ صوت دبيبٍ يدور في الغرفة. يخرجُ الخوف ليجعل دقّات القلب تتسارع، فيما تمشي الصعوبةُ في إمساكِ التنفّس بالتوازي مع الخوف. تتلقفُ الأرض الجسد الساقطَ على ركبتيه، تخرجُ حسرةٌ أليمةٌ من جوفٍ يابس، فتبدو الصورة أشبهَ بقصبٍ يتحرّكُ في الهواءِ وأرضه بور. الحسرةُ تدور في الغرفة المظلمة. يحضرُ الذهول ليعبّر عن حروفه التي لم تكتمل بعد كلماتها لتدوّن الوضوح. يطيرُ الرأس في الفضاء، محلّقًا إلى الأعلى، يتجاوزُ الحضور والظلمة، وينفتحُ له ثقبٌ بحجم رأسِ دبوس، تأخذُ العينان دورهما في محاولةِ الولوجِ من خلال ثقبِ الدبوس. يتوهجُ بعض البياض، تتغيرُ الملامح. وقبل النفاذ من الثقب، تخرجُ الأصوات من جديد، الأصوات التي لا تريد لأحدٍ أن يفهم ولا يعي. فيما تبدو اليدان تتعاركانِ مع شيءٍ غير واضح. يبتعدُ الثقب وتخرجُ العينان إلى العزلة.

يرنُّ الهاتف، إضاءتُه تبيِّنُ أين الجلوس على الأرض، محصورًا في الزاوية

البعيدة، مثل طفلٍ لائذٍ من البرد. يهرعُ إلى الهاتف، رنتُه فيها شيءٌ جديدٌ يُموسِقُ الحالة النفسية أكثرَ من كونها رنّة رسالةٍ عبر الواتساب، يظهر اسمُ حامدٍ على الشاشة. الجهازُ يتحرّكُ إلى السرير، ثم يتوجّهُ بالإضاءة إلى جدارِ النافذة. تظهرُ الكلماتُ بشكلٍ واضح، مثلما تبيِّنُ شكل الستارة، حيث الكلماتُ تتماوجُ مثل حركة ماءٍ هادئ.

لفحني شيءٌ من الشحوب وأنا أقرأ الرسالة التي كانت تحذيرًا أكثر منها استفسارًا واطمئنانًا. كان هناك شيءٌ ما جعلني ألهث وتتسارع دقّات قلبي. أخرجتني الجملة الأولى من شرودي وجمّدت جوارحي كي لا أنطقها. بدا البؤس واضحًا على ملامحي، حالةٌ من الشحوب تمنع الدم من الجريان في الشرايين، محاولًا فكّ أسر الاختناق. ركّزت عينيَّ على السطور، وطلبت من مخيلتي ألّا تشرد وتبقى تقرأ:

«صديقي، وصاحبي، وأخي الذي لم تلده أمي، حاولت كثيرًا الاتصال بك لكنك تمتنع من الإجابة أو الردّ، أو حتى من كتابة حرف واحدٍ لرسالة معاكسة. لا أخفيك، فقد أصابني الانزعاج بشدّة حتى أني كرهت نفسي وكرهت العلاقة بيننا التي كانت قائمةً على الاحترام، لكنك كنت تعطيني ظهر الاحترام؛ تقرأ رسائلي ولا تردّ. هذا الجهاز يُظهر إذا ما كانت الرسالة قد قُرئت أم لا، فثمة إشارةٌ لعلامتَيْ صحّ حين يتحوّل لونهما إلى الأزرق.. لكن أيضًا، لا أخفيك أنه في لحظة ضعفٍ مني، تأخذني أفكاري إلى قطع العلاقة معك والبحث عن راحة البال بعيدًا عن مشاكلك النفسية وأسئلتك الميتافيزيقية، التي كنّا أنا وأنت نسخر منها عندما كان ينطقها أستاذ الفلسفة اليونانية. وفي لحظة عاطفة، أجدني أقول إن صاحبي يمرّ بمرحلةٍ عصيبةٍ وعليَّ واجب الوقوف معه. لكن هذا الوقوف مرهونٌ بالإجابة على الاتصال. وأنت تطرح أسئلةً أكثر مما هي ميتافيزيقية وسريالية، قد لا يكون لها معنى ولا وقتها مناسب. ومع كل هذا، فأنت ترفس بقدمك كلّ ما يتّصل بالواقع ومعي

لتعيش كما تريد. وأنا أريدك أن ترفس كل شيءٍ لتعيش بأمان وتتلذّذ بما في هذه الحياة من لذّة، ولو بشكلٍ بسيط. لكنك كنت مصرًّا على أن تمسك الأشياء من طرفيها وتهزّها، لتجعلها مثل خيوط المغزل، عندما تتشابك مع خيوطٍ أخرى، فتحدث الفوضى، وتبدأ بالبحث عن رأس الخيط».

كان عليّ أن ألتقط أنفاسي. إنها رسالة ألم من صديقٍ وحيدٍ في هذه المدينة والأرض ومن عليها. وبدلًا من أن أمتلئ بالفخر، شعرت بغصّة كبيرة لما وصل إليه صديقي جرّاء معاناته وما سببتُه له فيه. لم أكن أعرف حجم الضرر النفسي الذي يعاني منه نتيجة خوفه على علاقتنا.

وضعت راحتي على خدّي ورحت أقرأ من جديد، أتماوج مع الكلمات: «خيَّلتُ أنك تريد أن تكون ناسكًا، طبعًا لا يمكنني أن أكتب كلمةً ثانيةً غير هذه التي أصبحت هي المسْمار الذي نعلّق عليه ما نريد قوله إضمارًا وتوريةً. على العموم، لن تكون نبيًّا وأنت تفكّرُ بمصائر الحياة. نعم، قد تكون الحياة والواقع مسؤولَيْن عمَّا نمرُّ به من حروبٍ رافقت الأجيال من جدّنا الأوّل حتى جيلنا، حتى أُصِبْنا بالخوف والرعب من أيَّةِ كلمةٍ فيها حرب، وصِرْنا نخافُ الزواج حتى لا نُنْجِب أطفالًا يكونون ضحايا الحروب وتجارة الطغاة. كانت أسئلتُك في بادئ الأمر محفّزةً حتى لي، كنت أؤيِّدُها بصمتٍ وأقول إنَّها أسئلةٌ مهمَّةٌ، ليس شرطًا أن يعيش صديقي مثلي لا أباليًا. ولا أخفيك كانت محفّزةً لي، لكنّي وجدتُك غارقًا إلى حدّ اللعنة، وقاسيًا على نفسك حدّ الجنون. وكأنَّ الحياةَ اختلفت الآن عن الأجيال الأخرى، وكأنك لم تقرأ أقوالَ الفلاسفة والحكماء والعلماء والشعراء، حيث في كلّ زمنٍ يلعنون ما يحصل لهم ويعدُّونها كارثةَ الكوارث.»

شعرتُ بالاختناق ورغبةٍ بالبكاء. أخذتني الكلماتُ إلى عاطفتها، حتى خُيِّل لي أنَّ دموعًا من عيني حامد تسقطُ من حافات الكلمات وتسحبُها الستارة بين

طيَّاتها. شعرتُ بالفخر بصديقي الذي شككتُ أنَّه لم يحصل من الدراسة إلَّا على الشهادة، لكنَّه كان يعيش عالمًا صامتًا، وكما يقول: إذا أردتَ أن تعيش براحة بال عليك بالصمت. غيّرتُ من وضعي في الجلوس، اتكأتُ على ذراعَي خلف ظهري ومددتُ ساقي أمامي:

«هذه هي الحياة. في كلّ جهةٍ هناك من يتاجر بمصائرنا وأرواحنا وأموالنا. وهل تتصوَّر أن الحرب في غزَّة لا يتاجرون بها؟ أنتَ صديقي، وأسرُّكَ رأيي الذي لا نستطيع البوح به. هناك مَن يتاجر بها. هل تذكر حين سألتني مرةً عنها ولم أجبْكَ؟ نعم، لأنّي لا أمتلك الشجاعة التي لا تؤدي إلى ربحٍ وانتصار، بل إلى ضياع بسبب قولٍ أو تصريح. لكن الآن أُخبركَ بهذه الرسالة الطويلة. كل حربٍ هي موتٌ وقتلٌ، هناك من يتاجر بأرواح الأطفال. وسنكتشف أن الجميع يريد إنهاء الحرب. لذا يمكن أن نضيف سؤالًا لأسئلتك: إذن لماذا بدأتم الحرب إذا كنتم تبحثون عن وقف إطلاق النار؟ الكيان الصهيوني أكبرُ المتاجرين، وبعض من يصرخون أنَّ الله معنا لم يُقتل أحدٌ منهم، لذا لا يشعرون بألم الجرحى وهم يبحثون عن إبرة إنعاشٍ أو ضماد جرح. هل تذكر يا صديقي حين أخبرتني مرةً أنَّك غير مستعدٍّ للموت من أجل شيءٍ لا نصر فيه؟»

تعبتْ يداي من الاتكاء. وتخيَّلتُ أن حامد بدأ يكتب هذه الرسالة منذ أيام.. وربما يكتب يوميًّا منها مقطعًا، والأمر واضح، لا ارتباط بين المقاطع، والزمن فيها غير متسلسل. أَرحتُ عيني من الشاشة. أدرتُ جذعي إلى الجدار الآخر المقابل للسرير. كانت الشاشة قد أظهرت شكل الطلاء القديم، وبان الطابوق المفخور بالنفط الأسود الذي تنتجه معامل الطابوق في القرن الماضي. حركت رقبتي لأعيد لها راحةً فقدتها من تصلّب الاطلاع وواصلتُ القراءة.

«صديقي العزيز، خلال هذه الأسابيع كنتُ أفكّر فيك، وقد وصلتُ إلى قناعةٍ أن لا فائدة من البقاء أصدقاء وأصحاب. لقد اخترتَ الطريق الذي يناسبك، ولويتَ عنق الواقع وتريد أن تحصل على عصير الإجابة لتشرب نخب راحتك النفسية، كما كنتَ تقول دائمًا عن الإجابة اللذيذة. أعرف، يا صديقي، أنَّ العُقدة سببها أخواك، وعُقدتهما سببها انقسام المجتمع، لكن هذه هي الحياة. أنا كذلك بسبب إخوتي وأبناء عمومتي، وأصدقاؤنا الآخرون كذلك. نحن نعيش الانفصام، وقد قالها، كما تعرف، الدكتور علي الوردي.

ولهذا، بعد فشلي في الاتصال بك، ومع معرفتي بقراراتك التي لا تتنازل عنها ولا تُعطي لنفسك فرصةً للتنفّس واتخاذ قرارٍ يلائم ما نحن فيه، قرَّرتُ ألّا أتصل بك؛ فأنا أيضًا إنسان لي كرامة. حين لا تسأل عن صديقك ولا تردّ على اتصالاته، فإنَّ هذا يعني أنك تبيع كلَّ عُمْرِ الصداقة، والصداقة واحدةٌ من أهم مجالات الحب في هذه الحياة. فإن غاب الحب غابت العلاقات. لكن، ماذا أفعل ووالدتك، التي هي بمثابة أمي التي توفِّيت، تريدني أن أتواصل معك».

يا وجعي يا حامد، إنك تسكب النفط على النار لأشتعل أكثر. كوِّرتُ يدي على شكل قبضة، وضربتُ فخذي، فتصاعد الألم من أسفلِي إلى أعلاي. طلبتُ من أفكاري أن تهدأ قليلًا، وألّا تفكّر أبعد من فعل حامد حتى أكمّم ردّة فعلي. هو يقدّم نصف الكأس الذي فيه ماء عذب، فليس عليَّ أن أسكبه وأغضب. استأذنتُ لحظة الانقطاع وواصلتُ القراءة:

«أخبرتني الوالدة أنك ستصل إلى حالة الجنون. بل قالت لي مخبّل كما نسمّي من لا يهتم بنفسه ولا يفكّر بعقله وليس له عاطفة. تقول لي إنك تتسلّل بخوفٍ كلصّ إلى الحمام، تشرب الماء من صنبور المغسلة، وهو غير صحّي، ولا أدري إن كنت تشعر بالارتواء أم هو تقليد النسك من العارفين؟

تقول إنها تراقبك من نافذة غرفتها المطلّة على الباحة، تراك منفوش الشعر، مبهذل الهندام، وقد برزت عظام وجنتيك. إنها تخاف عليك كأيّ أم، لكنك لا تخاف عليها من الألم. هي تعلم كما أعلم أن لا أحد يثنيك. ولو تدخّلتْ هي أو تدخّلتُ أنا، لحصل ما لا يُحمَد عقباه. ربما تهاجر كما أخيك، أو تجوب الشوارع صارخًا بأسئلتك. لكنها تقول إنك باقٍ في الغرفة أفضل من الخروج. نعلم أنك مصرّ على أن النهاية ستكون واضحةً لك، كأيّ طالبٍ معرفة ومنتظرٍ إجابات. هذا هو عالم العرفانيين والصوفيين، يا صديقي، وأنت لست منهم ولن تكون أبدًا».

كدتُ أبكي. صار الملح في عيني، والسواد يحيطني. أعتقد أنَّ عشر دقائق قد مضت وأنا أقرأ. أعيد قراءة بعض الجمل مرّتين، أشعر بأنَّ شيئًا ساخنًا مرَّةً ينتشر في جسدي، ومرَّةً ينسكب مثل ثلجٍ على جلدي. أغمضتُ عينيَّ لأحبس الدموع. استمرَّ الوقت بضع ثوانٍ، وحين فتحتهما، تضبَّبت الكلمات وتقطّعت الحروف، وصارت موجةً من انعدام الرؤية استمرت لحظات. أخذتُ فيها نفسًا متقطّعًا، جلستُ، رفعتُ صدري واتّكأت على السرير. طأطأتُ رأسي لأكمل القراءة. فهذه الرسالة تحمل من القوّة ما لا أمتلكه، لكن الحقيقة هي أنَّ الجانب فعل الجانبي العاطفي، لكنه لم يستطع إقناعي بأنَّ ما أفعله لن ينفع إلّا سواي. وأنا لا أريد لسواي أن يقتنع، بل أريد أنا من يرتاح من متاعب الحياة.

حامد يقف في الباحة. يتم سحبه إلى داخل الغرفة، عيناه مفتوحتان بتعجُّب من الحال الذي هو فيه. يسمع صوتًا: «أتمنى أن أفعل أمرين غير متطابقين. الأول أقبِّلك وأحضنك حتى أشمَّ فيك عطر المسافة والعمر، والثاني أنهرك بغضبٍ وأنت تريد أن تثنيني عن شيء أنت أحد أسبابه؛ لأنك تريدني أن أعيش بطريقة اللامبالاة وكأن لا عقل لنا. وأنتَ تعرف أنَّك من النوع الذي يريد ليومه أن ينتهي.

كنتَ كثير النصح ألا أستمع لآراء أخويَّ ولا أفكر بالقراءة ولا أتقرب من كتب الفلسفة والدين».

ينتبِه حامد إلى ما هو عليه، يفتح فمه ليقاتل الكلام بالكلام: «هذه سفسطات يتاجرون بها، يأخذون بها عقول الناس. ألم تقل لي إننا أمةٌ تردِّد أقوال اليمين واليسار، معمَّمينا وأفندينا ومن ارتدى العقال والسدارة والطربوش؟ لا يتساوى داخلنا وخارجنا».

يقف حامد بانبهار المكان. يدور رأسه داخل الغرفة. لا شيء فيها يستحق الحياة. ينظر إلى الملابس المعلّقة، يجدها متربةً وثمَّة خيوط عنكبوتٍ على فتحات أكمام القميصين المعلّقين. ينظر إلى النافذة، لا يجد أيّ بصيصٍ للضوء. يفتح فمه مرةً أخرى ويتحدّث بشيء من الثقة: «أنا لك ناصح يا صديقي، ابتعد عن هذه الأفكار. أو إن أردتَ، كن مع أحد الطرفين كي ترتاح. ألم تسمع بالمستقل؟ أنا هو هذا المستقل؛ لأنَّ زماننا جعل المستقل من ليس له شغل بالسياسة والدين».

ينظر ببلاهة إلى ما حوله. لا شيء أمامه. يأتيه الصوت فيلتفت إلى السرير:

«تعلم أنني أحبك. أمضينا الطفولة معًا والمدرسة والكلية، وأمضينا ما بعد التخرج سنواتٍ للبحث عن فرصة عمل. لذا، فأنتَ لك شيءٌ مني وأنا لي شيءٌ منك. فلا تقطع الوصل وابقَ معي. ألا تراني مُسجًّى؟»

يصفر وجه حامد، يتلعثم في الحديث ولا يعرف كيف يسرد. يبدو عليه أمارات الارتباك. يعتدل في وقفته ويقول: «حتى لا أقطع الوصال، عليك أن تخرج من جنون التفكير وخبال الأفعال. فهذا زمنٌ لا يغيِّر فيه فردٌ أمةً، وهو لا يملك حتى صوته».

«فتحتُ عينيَّ لأُبعِد المشهد عني، وجدتُ الكلمات تدور بصداها حولي. لها

رنينٌ مقبولٌ في الإصغاء. أخذني صوتُ حامد وهو يقرأ الرسالة التي لم أكمل قراءتها:

«أعترف لك أني لم أعد أرغب بالحديث معك؛ صرتَ موسوعةً في الوهم والمقارنات التي لا قِبل لي بها ولا أريد أن أدوِّخ بها رأسي. الصداقة أن نتشارك في الهموم لا أن تنفرد في الجنون. وهذا يعني أني لا أُشاطرك الرأي ولا السبيل ولا حتى البحث عن الإجابات؛ لأنني أصلًا بلا أسئلة. لكن تذكَّر فقط أني لا أكرهك ولن أكرهك، فقط اعتبرني غائبًا لفترة، ميتًا مثل ساجد، مهاجرًا مثل ماهر. صدّقني، لولا أمك لما كتبتُ، فأنتَ تجعلها في دوّامة حزنٍ كبيرة، تتمنّى لو كان مصيرها المحتوم اليوم قبل الغد. لذا إما أن تخرج من أجلها أو تبقى، فلا تجدنا معك. وإن لعنتك الجهات وسألوني، سأصمت لأنَّ لا إجابة لي، كما تعرفني».

بلعتُ لساني وأنا أحاول الصراخ، لم أستطع فعل شيء أمام هذه الرسالة الرهيبة التي أخرجت كلّ مكنون حامد، كما أوضحت لي عذابات أمي. أجبرتُ حالي على النظر إلى السقف، وخرج صوتي مرتجفًا: «أيتها السماء، ها أنا أفرغ رأسي المحشو بالأقوال، وكل قولٍ أمامه علامة سؤال، وكل سؤالٍ فيه شهقةٌ تعادل أمّة. كلّ شهقةٍ في داخلها ألفُ قتيلٍ وقتيل. أيتها السماء، لماذا أنا مهمومٌ بما حولي، ولا أعرف مَن أودع السرّ في هذا التفكير العالق في قحفة الذاكرة؟ لقد خسرتُ واقعي وأمي، فما أنا بخاسرٍ من جديد، أم هناك ما هو آتٍ لأكسبه؟!»

الصدى يتردّد في جدران الغرفة، يخرج من فتحات النافذة الجانبية بين الخشب والجدار. الخشب الذي ضاق بالكلام والخيال، صار ينزف صورًا يرميها في الزقاق، تدور بين البيوت والجوامع والمساجد والحسينيات، تدور، ثم تعود مكبَّلة بأصفادٍ من حديد ونار، كُتب عليها: «لا نحن مصدّقون بما

نسمع، ولا نسمع كل ما يقال، ولا نقول ما يُقال. ثمة قولٌ وحده يعرج إلى السماء».

تتحرك الأشياء بغرابة، تحمل أسئلة كانت تطوف في الفراغ. ثمة سؤال معاكس يخرج من فم زقاقٍ فرعي يؤدّي إلى زقاق آخر يفضي إلى شارع في منطقة أخرى: «لماذا كلّ هذه الهموم، وكلّ هذا الترقب؟ إن الله وحده العالم بكلّ الأمور، وهو الذي يمنح العقل، ونحن من يركض خلف الجنون. نحن من يسلِّم التفكير، ونحن من لا يرى الطريق». تتفاعل الكلمات كأنها صدى لردّة فعل، فتكون أقل حدَّةً، وكأنها تتوسّل بالآذان أن تسمع: «خذوا ما تشاؤون وأنتم أسرى المكوث، وقد استسهلتم الطريق وجعلتموه أيسر بالتفكير، ومنحتم الثقة لأقوالٍ أن الموت قريب، فلا تقربوا إلّا من يرسم لكم الطريق، وهو تيهٌ لكم». تعود الكلمات هاربةً، تتلوّى في الأزقة المتداخلة قبل أن تصل إلى الفضاء، تلتقطها أصوات التكبير في الباحة، وقد أُذِّنَ لصلاة المغرب، يدخل الغرفة محشوًّا بالكلام، فيبدأ الصراخ بقوّةٍ كما لم يكن عليه الصوت من قبل، يخرج من باب الغرفة إلى الباحة: «أين أنا من كل هذا؟!»

تصرخ أمي، أسمعها من خلف دموعها وصوتها المبحوح، تركض على صدى صراخي. تقف خلف الباب، تدقّ على خشبه الرطب من عرق الباحة. أرى طبعات أصابعها يابسة، أسمع تنفّسها، شهيقها وزفيرها، وحتى خفقات قلبها. سمعتها توبّخ حالها وتندب حظّها للمرّة الألف.

أطبقَ صمتٌ رهيب بعدها، صمت مريب. تحرّكت أكرة الباب. هالني المشهد، شعرتُ بلهاثي يهرب إلى خارج البيت، يفرّ مذعورًا إلى الشارع العام في بداية الزقاق، يجلس هناك على حافّة الرصيف، يتنفّس نسائم باردة، ثم يعود مسرعًا إلى صدرٍ شبه ميّت.

أصغيتُ إلى داخلي، لم أسمع أية نأمة. لحظات وجدتني أعود إلى السرير، أتمدّد وأسجّي جسدي، أجمع الحكايا والكلمات، فيما صوت حامد يرن في أذني: «إن لم تتغيّر لا يغيّرك أحد، والأسئلة لا يأتيها الجواب إلّا إذا بحثتَ عنه، فلا تترك عقلك مسجّى مثل جسدك».

المشهد الرابع عشر

ليس هناك شيءٌ أفعله، وليس هناك وقتٌ أعرفه؛ الحَيْرة تأكل التفاصيل، والخروج ألعن من البقاء، والحال أشدُّ فتكًا من التفكير فيه. الغرفة تبدو لي ضيّقةً، كما تبدو لي أحيانًا أُخرى مغارةً، وتارةً ثالثةً تبدو لي زنزانةً، لكنَّ الهُموم كلَّها تصبُّ في مجرىً واحدٍ من التاريخ الهجريّ الذي نسيتُ تدوينه، لكنه كان بكلِّ تأكيدٍ من عام أربعةٍ وعشرين بعد الألفين، وهو زمن زيادة أعداد القتلى التي وصلت إلى أكثرَ من ثلاثين ألفَ فلسطينيٍّ، نصفهم من النساء والأطفال. ومع كلِّ فردٍ من هذه الأعداد المتزايدة تكثُرُ الأسئلة، ويكبر بعضها من تلك التي طُرِحت سرًّا وعلانيةً.

التأمُّل يعني أن أقرأ الأشياء بوضوحٍ، وصوت أمي بدأ يزدادُ ضجرًا؛ ربما اختنقتْ من الصمت، وربما أخافتها حالتي، وربما زاد سؤال الجيران عن غيابي وسرِّ مكوثي في الغرفة.

لكنَّ الأمر مختلفٌ، فالأولوية الآن هي الحفاظ على الجسد في حالةٍ رياضيةٍ وإعادة اللياقة، إذْ بدأتْ حنجرتي تتلاءمُ مع الأجواء التي أعيشُها. لا يهمُّ؛ فالحرب ليست قتالًا فقط، بل هي أيضًا صراعٌ مع الأفكار، والفرق هو أن لا قتلى فيها سوى الشعور بالربح أو الخسارة. فالقبض على البرهان هو الأهمُّ؛ حيث يمرُّ على حنجرتي سؤاله كي يقبض على الإجابة المتأرجحة بين الحضور والغياب.

عدتُ لتوِّي من الحمام، لا شيء في الباحة سوى الصمت؛ أمي خرجتْ

للتسوّق. النهار أعسم في مِشْيته، ولا أصوات تأتيني. ربما هدأتِ المظاهرات تأييدًا لفلسطين؛ فكلما طال أمدُ القتال وصارت الصور تُشاهَد بصورةٍ طبيعية، قَلَّت العاطفة واعتادتِ العين، ولا شيء سوى التنهُّد والعتب وشتم الحكومات. لكن لا أحد يسأل: من المسؤول عن البدايات؟.

وأنا أمام المغسلة أشرب كَفَّيْن من الماء، نظرتُ إلى السلّم، إلى درجاته الأولى. حصل ما لم يكن يحصل سابقًا؛ لأوّل مرّةٍ رأيتُ صفيّة جالسةً، تنظر إليَّ بعَتَبٍ شديد. نظرات تكوّمت فيها المعاني التي لا تُقال إلّا من قِبَل مُحب. لكنَّ سؤالًا خرج من تلك النظرات: «ألم تكُن تشعر طوال تلك السنين أني أميلُ لك؟ ألا تشعر بدقّات قلبي وأنا أمدُّ لك يدًا ترتعش من حرارة الإعجاب التي تحوّلت إلى حبٍّ حين استلمتُ كتاب الجامعة؟ ألا تدري أنَّ الحُجّةَ كانت معرفةَ إجابةِ سؤالٍ أنا أعرفه، لكني أريد سماعها من فمك لتطربني نبرة صوتك؟»

مشهدٌ لم أتوقّعه، لذا تركته يكمل ملامحه وأنا معه. وقفتُ بطريقة من يقف أمام حالة استذكارٍ لفرحة، بعد أن تعودتُ على استذكاراتٍ حزينةٍ تجعل الوجوه متجهّمة. تحركتُ باتجاه السلّم، أمسكتُ سياجه الطابوقي؛ كانت أمي تضع عليه عباءتها وتنشر فوقه الملابس التي تغسلها بدلًا من الصعود إلى السطح. البيوت القديمة التي لها باحة تجعل الريح تدور فيها.

وقفتُ هناك بشكل مُنحنٍ على أوّل درجةٍ من السلّم. مددتُ يدي فتحرّك الهواء راقصًا في الباحة. شعرتُ بنسيمٍ عَذْبٍ يمرّ على وجهها، ويعود إليَّ بعطرها الفوّاح، كانت خجِلةً وهي تمدّ يدها لأصافحها. شيء لا يشبه الصعقة ولا يشبه الحب، ولا يشبه حتى لحظة التخلّص من الغَرَق وأنت تتنفّس هواءً يأتي بصعوبة، لذا تسارعت دقّات القلب، لكني كنت أسمع دقّات قلبها، خرجت من صدرها، مقتحمةً ثوبها الوردي، لتحطّ على راحة يدي اليمنى، تسري مع النبض إلى

الشريان الأبهر: «كيف حالكِ، صفيّة؟» لم يكن سؤالًا بقدر ما كان انتباهًا لا يحتاج إلى إجابة.

وجدتُ في عينيها تلك النظرات الأولى؛ طفلة جامعية تتهادى لتطلب ملزمة درس الفلسفة. كنتُ أتابع خُطاها وهي تأخذ ما تريد، مودَّعةً من قِبَل أمي ونظرات ماهر وشكوك ساجد، وتغادر، ولم أنتبه لما خلّفته من عطرٍ خلف خطواتها، وهي تضع الأثر من الباحة إلى باب الدار.

تقدّمتُ خطوةً أخرى وأردتُ الجلوس إلى جانبها. نهضت بدلال، فتحرّكت عباءتها مثل نسرٍ بجناحين يصدّان الريح، وعقلي أشبه بمعطوبٍ في تلك اللحظة، لذا لا إشارة في الوعي، ولا تمرين في الكلام، ولا التفاتة في التنبيه. وقبل أن تجيب على سؤالي، تحرّكت شفتاها بحرفين من عنبٍ ورمان. أمسكتُ بهما قبل أن يطيرا في الهواء. وحين وضعتهما في أذني، سمعتُ دوران مفتاح باب البيت. عادت أمي، وبسرعة الخائف، دخلت الغرفة وأغلقت الباب، لأستند عليه وأتخيّل صفيّة كيف ارتدت عباءتها لتسلّم على أمي وتقتفي أثر الزقاق.

اسمع كلمات أمي. لقد نسيت حنفية المغسلة مفتوحة: «صِرت تنسى حتى الماي، واني مشتعلة شعل». كانت تريد أن تقول بيتًا من الشعر الشعبي، لكنها لم تكمله. تنهّدت لتجعلني أتنهّد مثلها. سمعت ضحكة أخي ماهر واستهزائه: «حتى هذه لم تدبّرها؟!»

تذكّرت أخي ماهر. لا أعرف عنه شيئًا. هل نجح في مسعاه وتغرّبه، أم أنه يغسل الصحون في إحدى الولايات الأمريكية؟ هذا لا أخاف عليه. رنّ الهاتف على وصول رسالة عبر الواتساب، كانت من ماهر. سبحان الله، ما أن فكّرتُ به حتى جاءتني منه رسالة.

أقرأ الكلمات بسرعةٍ، أجدها مليئة بالسخرية من الحياة التي نعيشها في العراق، يقارنها بالحياة الأمريكية. كان يخبرنا أنه الآن في مشيغان، الولاية

المليئة بالمغتربين بين العراقيين والعرب. قال لي إنه يعيش بشيء من الترقّب، ولكن الذي لفت انتباهه هو أنه يعيش مرتاحًا مع الشيطان الأكبر. قال لي من وسط تهكّماته: «لا عليك، ابحث عن نفسك ولو وسط الشياطين والأبالسة. هنا لا أحد يذكرك بما أنت فيه من معتقدات، بل يسألونك عن تطبيق القانون». لكنه يكسر الرتابة ويكتب: «هنا مجتمع استهلاكي، لا يوجد بينهم عاطفة. من يمتلك المال يمتلك الحياة، على العكس منا نمتلك الروح ولا نمتلك القرار».

ضحكت، أرى عينه التي تدمع كلّما ضحك كثيرًا. لكنه لم يكن وقحًا. نظرت إلى الصورة التي جعلها خلفيةً لاسمه في الواتساب. كان يبتسم وهو يرتدي ملابس أنيقةً وقد عدّل من شعر رأسه، ووضع وشمًا عند أسفل رقبته. قرّبت الصورة، كانت كلمة (أمي) قد وُشِمَت. أعرفه طيّب القلب، لكن المشكلة أنه طموحٌ أكثر، ولا يؤمن بما يؤمن به أمثال أخي ساجد.

قرأت في رسالته: «أخي الحبيب، قَبِّل لي أمي. قل لها أن تسامحني وتعذرني. سأزوركم حالما أستقر وأحصل على الإقامة. شرط ألّا أجدك وقد تحوّلت إلى كاهن، ولا إلى رجلٍ ملحد. كن وسطًا لتعيش مرتاحًا». كان قد وضع تحتها (هههههه) كأنه يطلق نكتةً على جملته الأخيرة.

قلتُ لأكتب لأمي أن ماهر أرسل الرسالة، الأمر متعب. سأعيد إرسالها لها وهي وما تجود به من قوةِ الأعصاب؟

كانت في المطبخ، تعدّ الغداء، أنظر لها من ثقب الباب. ضغطت على زر إعادة الإرسال. سمعت رنّة الهاتف على أريكة الباحة. خرجت من المطبخ مثل أميرة منهكة. قرأت الرسالة، نظرت باتجاهي، تخيّلت أنها رأتني من ثقب الباب، واقفًا على أطراف أصابعي محني الظهر، لأجعل عيني بمستوى الثقب دون أن

أحني ظهري. أخذت نفسًا عميقًا وفتحت الرسالة. نظرت إلى السماء، واتجهت إلى المطبخ. أطفأتُ الطباخ، عادت لتجلس على الأريكة. كانت تقرأ بصمتٍ مريب، نزلت دموعٌ من عينيها. سحبت نفسًا طويلًا، وتنهدّت، ثم ضمّت الهاتف إلى صدرها كأنها تضم ماهرًا إلى صدرها أو ترضع الكلمات حليب وجعها. شعرت بالألم من هذا المشهد. ألمٌ صعد من أطراف أصابعي إلى وجهي فاشتعلت حزنًا. وهبط سؤال: لماذا لم يرسل الرسالة إلى أمي، أو يرسل لها رسالةً لوحدها يتحدث فيها بشيء من الاطمئنان؟ الذي أعتقده أنه لم يرد إشغالها، ولم يطلب مني إرسالها، بل أرادني فقط إخبارها بأنه في حالٍ جيد. لكن الأمر صار أكثر ألمًا. وجدتها تبكي، ترمي الهاتف النقال، تعود إلى المطبخ لتعدّ الغداء لابنها الذي هو أنا. ربما كانت تدعو السماء أن يتلطّف بها، وربما كانت تشتمنا جميعًا. لم أسمع أية كلمة منها.

كنتُ لا أفكّر، أشعر بشحوبٍ عام، لا صوت يأتي من النافذة. تمنّيتُ لو تأتي حنجرتها وتناديني، تناديني باسمي لأسمع زقزقات الروح. أن تكلمني مباشرةً وليس عبر جهازٍ إلكترونيٍّ صنعته العولمة، ليكون العالم بحجم شاشةٍ صغيرة. ويجعلنا في دائرةٍ واحدة. الكل مكشوف الأضلاع. كان أخي ماهر يردّ على ساجد: «العالم صنع التيتانيوم وصنع الذرّة من ذرّة غبار، فقط نصرخ أن ماضينا تليد، ونفرشه على ضعفنا الحاضر. وكل شيء مكشوف حدّ الفضيحة. ونحن نزيد الطين بلّة. هل تعلم هناك جهاز تعقبٍ عبر الأقمار الصناعية يعمل على إفشال الكاميرات التجسّسية، هم يدوّنون لنا كتب التاريخ كي نبقى في دائرة العداء».

قلتُ له: «هذا واقعنا». قال: «واقعكم الذي جعلكم تستلمون أقوال الخطباء أكثر من أقوال الرحمن. فصار البعد الثلاثي لنا. أننا أمة أقوال متناسخةٍ ممسوخةٍ متصارعة».

قلتُ له بهدوء: «لا تذهب بعيدًا في الاستهزاء. هذه فترةٌ زمنيةٌ نمرّ بها كما مرّت أغلب شعوب العالم، بما فيها أمريكا وأوروبا». لكنه قال بعصبية: «خلافاتنا تؤدي إلى القتل بيننا وليس إلى المناقشة والجدال فحسب».

كنتُ أصمتُ أمامه كما أصمتُ أمام نقاشات أخي ساجد، لا أريد تأييده ولا أريد معارضته، وأجد فضاضةً من قذف الكلمات التي أريدها أن تكون مهذبة. لكنّي أمام تمرّده المستمر قلتُ له بشجاعة: «أنتَ متخبّط لا تعرف رأسك من رجليك». يضحك بمهارة صانع السخرية، يقذف الجملة بوجه من يريد، ولا يجعل رقبته كرقبة البعير: «على أساس أنتَ الذي تعرف رأسك من رجليك. أصلاً أنت مضيع المشيتين». يضحك ويخرج من البيت. لا أحد يوقفه. مات من هما أكبر منه، وظلّت أمي الضعيفة أمام مهاتراتنا وضياعنا.

يَرِنُّ الهاتفُ النقّال. رنّة اتصالٍ وليست رسالة واتساب، لم أشأ النظر إلى الشاشة، وليس لي رغبةٌ بإتمام الاتصال. كنتُ في حالةِ ترقّبٍ وتأمّل، مُسجّى والعينان على السقف، أنتظر البياض كيف ينزل ويدور ويتحرّك ويتكوّم ويتشكّل. الهاتف لم يزل يَرنّ. يأتي صوته من بعيد، من عنق الزقاق، أو ربما من جهةٍ ما من الجدار. يتلاشى صوت الاتصال ويبدو مثل وقع أقدامٍ خافتة. في تلك اللحظة رأيتُ الرأس معلقًا، وثمّة توزيعٌ لأجزائه. مشهدٌ غرائبيٌّ آخر، أنْ أراني مجزّأَ الأوصال. رأيتُ يدي على أكرة الباب، وأنفي معلّقًا على السقف، وساقي في الزاوية البعيدة، وعنقي عند الزاوية الموازية للباب. الرأس يتحرّك بعشوائية، فتتحرّك كلُّ الأشياء بإيعازٍ مُتَّفق عليه. كلُّ شيءٍ يتابع البياض بفرحٍ غامرٍ ليس له حدود، حتى إنه فاض وخرج من ثقب الباب. رنَّ الهاتف من جديد، تتجمّع الأجزاء دفعةً واحدةً، كأن الرقبةَ تجذبها كلّها والكتفان إلى ما كانت عليه، حتى الأقدام جاءت راضيةً إلى أسفل الجسد المُسجّى. الرنّة تستمر، كأن شيئًا شيطانيًّا يجعلها تَرِنّ. لا شيء يظهر لي على الشاشة، وعينايَ لا تريدان

التأكّد من المتّصل. أخذتُ نفسًا ليعيد بعض الهدوء إلى الحنجرة. نزلتُ من السرير حالما انتهى زمن الاتصال. جثوت على ركبتَي، لأستمع إلى داخلي الذي يطالبني أن أكون أكثر صبرًا، أتمسّك بحبل جملةٍ كتبها ذاتَ مشهدٍ: «أن الحلَّ سيأتي لا محالةَ كُلَّما عَصِيَ عن الحضور».

كان ظهري عكس اتجاه القبلة، ووجهي إلى السرير، والأنفاس المتقطّعة تُحرّكني. أراقب البياضَ الذي لا حَراك فيه، ينتظر أن تهدأ الأصوات في الخارج من زعيقها وزئيرها وزفيرها. لحظات تمر، تأخذ العينان استراحة المراقبة، يتلاشى كلُّ شيء ويعود الصمت.

رنَّ الهاتف، استفزتني النغمة التي لم أستطع إعفاء حضورها، فهي وسيلتي مع أمي على الأقل. تمنيتُ لو حصلت على رقم صفيّة لتمنحني تفاصيل الزقاق، بعد أن اعتذر حامد عن كلّ شيء. تحرّكت يدي قليلًا لتلتقط الهاتف الموضوع على السرير؛ كان ماهر على الطرف الآخر. شيءٌ ما انتزعني مما أنا فيه، شيءٌ لا يشبه نزول المطر كما نصف الحال دومًا. تركتُ إبهامي يضغط على الدائرة الخضراء للاتصال. لم أستطع إكمال كلمة «ألو»؛ كنت أتلعثم، حنجرتي مصابة بالصدأ، هربت حروف الكلمة إلى لاقطة الهاتف النقّال. صحتُ من جديد: «ألو!»، عصرت صُرّة حنجرتي لتُهديني سبيل الجلوس باستقامة الملهوف. نهضتُ بنصف جذعي إلى الوراء، والنصف الآخر يبحث عن مكانٍ ليتحرّك فيه، ويدي تضغط على الهاتف لتلصقه بأذني اليمنى. سمعته يقول: «افتح الكاميرا يا غبي! تظلّ معيدي وما تفتهم بالتقنيات».

تحوّل الهاتف إلى دمية، وأنا أضعه أمام عيني. كان واضحًا، أحمر الوجه، ريّان مثل فاكهةٍ صيفية. كتفاه عريضان، ووجنتاه بيضاوان مائلتان إلى الاحمرار. خُيِّل لي أنَّ عينيه زرقاوان، وعلى وجهه ابتسامةُ طفلٍ كبر لتوّه. لم أستطع أن أتكلّم، وهو يخاطبني بطفولته التي غابت سنوات الحروب والإرهاب والبحث عن

العمر الذي يضيع: «ها ولك سْويمِر، شلونك؟» كان تصغير اسمي كأنَّه هبط من البياض، له موسيقى جعلتني أذرف دمعًا وأسحب نشيجًا، وصورته ونحن نلعب في الزقاق، تتحرّك أمامي وتتراكم كل الكلمات التي كنا نقولها، حتى تلك التي تشاجرنا من أجلها. وكلمات أبي وهو يفضّ مشاجرةً بيننا: «رويسيّة». لم أفهمها إلّا بعد أن شرحها، بمعنى أنَّ كل اثنين يُولدان أحدهما بعد الآخر يُطلق عليهما هكذا، وهما دائمًا في شجار.

صاح من جديد: «شْبيك سْويمِر، خو ما زعلان عليَّ؟ حقك والله. بس العيشة بعد ما تراد.. العراق انْترَس من تدعونهم برجال دين ومسلّحين وتابعين وجبناء، إلّا من رحم ربي». لم أكن كذلك، بل لأني لم أجد كلمةً تقابل الفرح وأنا أنظر لوجهه السعيد، والصورة الكبيرة التي خلفه تجمعنا نحن الخمسة معًا. في الصورة أبي وأمي وقوفًا، ونحن الثلاثة جلوسًا.. من أين جاء بالصورة لا أعلم.. ربما هي التقنيات.

قال بلهجته المحبّبة إذا كان فرحًا: «شلونكم خويَّة.. أهم شيء أنتَ وأمّي مرتاحين». كانت عيناي تتكلّمان نيابةً عني، خرس لساني داخل فمي. سمعته يقول: «شلونكم مشتاقون». هي عادته في التعبير عن الشوق، يجعلها جمعًا. مَتْمَتُّ بحروفٍ لا أريد للصوت أن يخرج، حتى لا تسمع أمي وتقتحم عليَّ الغرفة. لكنَّ الأمر لم يخلُ من حصول جفافٍ كبيرٍ في داخلي. رغم ذلك، شعرت بالفرح وأن أبقى صامتًا أو أهمس له.

انتبه إلى صمتي، فتغيّر لون وجهه: «كيف حال أمي؟ هل هناك أمر؟ أنا اتصلت بك ولا أستطيع الاتصال بها لأني أعرف ستبكي الاتصال الثاني لها». سارعت إلى القول: «ليس هناك ما يدعو إلى القلق، أنا أخفض صوتي حتى لا تسمعني». لم أشأ إخباره بانعزالي، وأننا لا نتحدث إلا عبر الواتساب. لذا كان هناك شيء صلب في رأسي، خفت أن يترطم بالسقف، تأوّهت قليلًا مبديًا ارتياحه لأن أمي

سالمة. وراح يحدّثني عن أمريكا والحرية، واحترام حقوق الإنسان. قال: «لا شيء إجباري. كل شيء بالقانون. أخبرتك في رسالتي الأولى. لا أحد يستغل التاريخ، ومن يريد التاريخ عليه القراءة والعودة إلى الكتب. أما الحديث به فهو لا يعني سوى البقاء في دائرة التخلّف».

لم أرد عليه. قلت له: تكلّم بما تريد، أنا أصغي لك. لكنه عاد ليسأل: «عليك الله ورسله، أمي بيها شي؟» أقسمت له أن لا شيء، فقط أنا في حالة عزلة منذ أيام، لأني وحيد بسبب رحيله. صمت قليلًا وأصابته عبرة. ولأنه ماهر في التكتيك، ابتسم وضحك وقهقه. كان ينظر لي بعاطفة الأخ الكبير، لذا اكتشف سريعًا ما أنا فيه: «أنت مشكلة سامر، تأخذ كل الأمور على محمل الجد. صدقني، لا أحد ينفعك سواك. نعم نعيش معًا لكن الأمور تعود لك. لا تسحق نفسك ولا تؤذيها بالأفكار الغريبة. لا توجد منطقة وسطى كما يقول نزار قباني، لذا عليك أن تحدد، لأن العزلة ستفقدك الصواب».

تغيّر المشهد، صار الصمت هو العلامة الفارقة، كان ماهر يتحدّث عن الحياة الأمريكيّة، وينظر بعاطفةٍ كبيرة، ويسأل عن الأفكار التي تتصارع في المشهد السياسيّ. ربما هي نفس الأسئلة التي تتحرّك وتتمركز وتدور في المخيّلة والكتب وأفواه الناس. الأسئلة تخرج الآن وتَفْتَرِشُ الشارع، تخرج من الأفواه ما أن تنفتح الشفاه، تتكوّر أمام كلّ تجمّعٍ يتحدّث ويناقش الصراع وكيفيّة المساعدة وتحقيق الانتصار، تتعارك الكلمات التي تملأ الفضاء، تطير بين الناس، ثم تهبط وتستقرّ على فراشٍ بلونٍ أحمر. لا أحد يُعيرها أهميّة، بل إنّ هناك من يقترب إلى الفراش ويرمي أسئلته، لعلّه يحصل على جواب. حتى الصبيان والشبّان، من الذين شاركوا في التظاهرات، جاءوا ورموا ما في جعبتهم.

كان حامدٌ يُشير إلى جهةٍ بعيدة، يرسم سهامًا تتّجه إلى النافذة، وكأنّه يريد القول إنّ الجميع يفكّر لكنّهم لا ينعزلون. لحظاتٌ أخرى يخرج الجميع من

البيوت، يسمعون نداءً كبيرًا: «كلُّ من لديه كلامٌ لا يستطيع البوح به ليأتِ به إلى هنا على الفراش الأحمر ويرميه. لا أحد سيعرف من القائل؛ لأنّها ستختلط الحناجر والنبرات». تفتح الأبواب ويبقى الأطفال والنساء. حامد يبقى يُشير إلى أنّ الناس تتحدّث وتمضي وتعود إلى حيث كانت. مشهدُ أبواب البيوت وهي تُغلق من جديد، فيما ينفضّ الجمع حول الفراش الأحمر ولم يبقَ إلّا العسَسُ وأصحابُ عرباتِ بيع اسطوانات الغاز السائل.

قلتُ لماهر: «حدّثني عنك». أجاب بسخريّته اللاذعة وبسرعة: «لَعَدْ ماذا كنتُ أفعل؟ شَرَدَ ذهنك؟». أضحك في سرّي، لأنه صادق. لقد شَرَدَ ذهني حقًّا. بيّن لي أن الحياة عندنا لا تُطاق، وأن الأمر مرهونٌ بالكيفية التي تعيش فيها. قال: «ليس صِلةُ الرحم وزيارات الأهل هي الميزان للحياة. جرّبنا أبناء عشيرتنا، نراهم في المآتم والفصول أكثر مما نراهم في المناسبات، حتى الدينيّة. الحياة هنا تجعلك عمل وتقول رأيَك بحرِّيَةٍ، لكنْ عندنا أيُّ رأيٍ مخالفٍ مَصيرُه القَتل أو الخَطف ثُمَّ القَتلُ.»

أشعلَ النار من جديد، كأنه عرفَ أين يرمي الجواب لأعود إلى السؤال. وقبل أن أجيب، لحقني بردٍّ آخر: «هل تعرف أن لا أحد هنا يتناقش بأمور الدين إلّا نحن العرب والمسلمين؟ لذا من أمثالي لا يلتفتون إلى هذه التجمّعات». وجدتني أسأله بسرعة، وكأني أخرجت السؤال من جيبي: «وفلسطين؟» لم ينتظر وقتًا ليجيب: «هنا التظاهرات قائمة؛ مَن يساند فلسطين ومَن يؤيد إسرائيل. الكل له الحرية. الشرطة تحمي التظاهرتين. لكني أقول لك إنها للتعبير عن الآراء والمواقف وليس للتعبير عن الحرب». أردت استفزازه، فسألته: «وأنت؟» قال، وهو يبتسم بطريقة التخفيف من حدة السؤال: «أنا لم أحصل على الجنسية، لذا أخاف أن أحصل على مخالفة. طبعًا أنا مع فلسطين. لكني اراقب التظاهرات من بعيد». وبطريقة الممازحة قلت: «تظاهرات النساء العاريات، واللحم الأبيض المتوسّط كما كنت تطلق عليهن من قبل»

يدخل ماهر. يقف عندَ زاوية الغرفة، وعينُه على البابِ مخافة أن تدخل الأمُّ. يدورُ بنظراتٍ على محتوياتِ الغرفة، يتقدّمُ خطوتين ويقول: «هذه حياتُهم وليس علينا محاسبتُهم. عيسى بدينه ومحمد بدينه». يدخلُ ساجد حتى يصل بثلاثِ خطواتٍ إلى منتصفِ الغرفةِ، بالضبطِ تحت المروحة السقفيةِ. ثمة عينانِ تراقبانِ المشهد، وأذنانِ تريدانِ تلقف الحوارِ. قال ساجد: «أنتَ صرت من هذا المجتمعِ العاري، من عاشر القوم صارَ منهم». يضحك ماهر، حتى يهتزَّ صدره. يتلفت إلى المصباحِ: «الدين شعور يا أخي، وإحساس بالإيمانِ، وليس أقوالاً واتهاماتٍ». ساجد يتحركُ نحو النافذةِ: «هذه ما يريده الشيطانُ من الناس، عري ومثلية وتطبيع». ماهر لا يجدُ إلا أن يواصل الضحكَ الهادئَ غيرَ المستفزِّ: «كلا، ما تقوله صحيح، لكن العقل هو الذي يحكم. فيَ أمريكاَ آلاف من رجالِ الدينِ وملايين من المسلمين المحافظين على دينهم ولكن بطريقة الاحترام للآخر، وهذه هي النقطة الفاصلةُ». هنا يستفزُّ ساجدٌ. يقتربُ من السريرِ، يمسكُ حافّتها القريبة من النافذةِ: «ليس هناك نقطةٌ فاصلةٌ بين الحقّ والباطل. هؤلاء كفرة لا يهتمون بالدين، يأكلون الخنازير ويحللون زواج الرجلِ من الرجلِ، ويمارسون الرذيلة في الشوارعِ. كلُّهم في نارِ جهنم خالدينَ فيها». يقتربُ ماهرٌ منه: «افترضْ ما تقوله صحيحٌ، لكن ليس الجميع. هل تريد أن تقول إنَّ ستة مليارات إنسانٍ الآن من غيرِ المسلمين هم في النارِ وفقط ملياري مسلمٍ في الجنةِ؟ وكم من المليارينِ هم على الطريقِ الصحيحِ الذي تراه أنت صحيحًا؟ ما هكذا توردُ الإبلَ يا أخي؟»

هرعتُ إلى داخلي. الكلامُ لم يعدْ بإمكاني سماعُه. والأسئلةُ تتراكمُ من جديدٍ. وجدتُ نفسي مكوّرًا بالقربِ من السريرِ، فيما كانَ ماهرٌ يتحدّثُ عن الحياة التي يقاتل من أجلِ الحصولِ عليها. ضحكتُ، فقد استخدمَ كلمة القتل في صراعهِ الفكريّ أيضًا.

دخلَ صوتُ أمي من ثقبِ البابِ: «اللهُ أكبر. هذه أولى مراحلِ الجنون، بدأت تتكلمُ مع نفسِها». سمعتُ ضحكةَ ماهرٍ وهو يُنهي المكالمةَ، وقبلها قالَ: «سأتصل بك من جديد. أخبر أمي أني بخير، ولتستعدّ للاتصال على ألا تبكي. أريدها أن تفرح، فالحياة لا تستحق البكاءَ».

المشهد الخامس عشر

الزقاق فارغٌ، وضوء الظهيرة يقسمه إلى نصفين؛ نصف ضوءٍ ونصف ظلّ. الرياح تمرّ بمتعرّجات الزقاق وأفرعه الداخلية، فتَهُبّ من الحي الشمالي إلى الحي الجنوبي، حتى تصل إلى الشارع العام، مارّةً على نافذةٍ قديمةٍ صُنعت قبل أكثر من قرن من خشب الصنوبر أو التنوب المتين. هذا الخشب لم يزل محافظًا على متانته، لا يسمح لحشرة الأرضة أن تعيش فيه، وهو ذات الخشب الذي صُنع منه باب البيت الخارجي، حيث ما زالت المطرقة الصغيرة معلّقة عليه. اشترى الجدّ هذا البيت من رجل خليجي بعد ثورة تموز 1958، ليكون منزل العائلة المكوّنة من الجدّ، الجدّة، وأربعة أبناء. توفّي أحدهم في حرب الشمال، والثاني في حرب فلسطين 1973، بينما لقي الثالث مصرعه في الحرب العراقية الإيرانية، وكان الوحيد الذي أكمل دراسته أبو ساجد، الوريث الوحيد لهذا البيت المفتوح.

ينفتح باب أحد البيوت في نهاية الزقاق، تخرج صفيّةٌ بوجهٍ بشوش، وابتسامةٌ تملأ وجهها. تحمل على يدها اليمنى صينيةً صغيرةً مغطاةً بنايلون سفرة، اتّقاءً للريح. تمشي بخطواتٍ واثقةٍ دون أن تلتفت، تبدّل وضع الصينية من يدها اليمنى إلى اليسرى، تفلت العباءة من أسنانها، يظهر جيدها البلّوري تحت ضوء الشمس الذي يعكس لمعة الأشعة، يزداد بياضًا، كأنه يشعّ بحيويةِ عمرها الذي قارب ربع القرن.

طرف العباءة من خلفها يلامس الأسفلت، فيما يرتفع من أمامها ليظهر ذيل

ثوبها الأحمر، كأنّه مشتل وردٍ نديّ، عصر عطوره في قارورةٍ من جسد. وقع خطواتها على الأرض يتموسق مع نبضات قلبها. تصل إلى باب البيت، تتوقّف، تلتفت إلى الخلف مرّتين، تنظر باتجاه بداية الزقاق، ثم تخفض الصينية قليلًا، تمسح وجهها، تطرق الباب بمطرقة الحديد. يتردّد صوت الطرق في أذنيها، فتتّسع ابتسامتها، وتلمع عيناها وقد كحلت رموشها بلونٍ يشبه لون عباءتها. تدفع الباب قليلًا، ولا تدخل، تسمع صوتًا من الداخل يقول: «تفضلي يمّه صفية».

ترطّبُ شفتيها بلسانها وتدخل. يسمع صوت خطواتها على الكاشي. خطواتٌ هادئةٌ، تبطِئ من سرعتها، عيناها تدوران في الباحة، وتستقرُّ بالبصر على باب الغرفة. تستقبلها أمُّ ساجدٍ بوجهٍ بشوشٍ لا تسعه تفاصيلُ الكون، كأنَّها تمشي على ساقٍ واحدةٍ من المرح وتغازلُ رقصة البجع. تستمرانِ بالتقبيلِ ما لم تفعلاهُ من قبل، يخرج صوتُ صفية البلبلي: «هَلَّه خالة، اليوم جِبْتُ ثَواب»، تأخذ أمُّ ساجدٍ الصينية، تقابلها بالترحاب والتهليل والشكر والعرفان مع الكلماتِ العادية في مثل هذه المناسبات: «ليش تعبتِ نفسَج؟» فتردُّ عليها صفيةُ: «تعبج راحةٌ، خالة». تأخذُ الصينيةَ، وبخُطواتٍ سريعةٍ تدخلها إلى المطبخ وتعودُ إلى صفية، تجلسُها على الأريكة، حيثُ موقعُها مقابل ثقب الباب.

لم تسألها ما المناسبة لهذه الصينية، حيث لا مناسباتٍ دينيةٍ أو وطنيةٍ، والوطيسُ حامٍ على الكرةِ الأرضية، وحربُ غزّة لم تزل مستعرةً، تجاوزَ عدد الضحايا أكثرَ من 30 ألف ضحية. الصورةُ تركّز على وجه صفية وهي تزدادُ خجلًا وتسرقُ النظرات إلى الباب. صفية توضّح بصوتٍ منخفضٍ ثم ما يلبث أن يرتفعَ أنَّ هذا الطعامَ ثوابٌ لوجهِ اللهِ وأمِّ البنينَ لقضاءِ الحاجاتِ والوصولِ بالأمانِ إلى الجميع. ترفعُ أمُّ ساجدٍ رأسها إلى السماء، تتمتمُ مع نفسها، تظهرُ عينيها حمراوينِ، تكادانِ تدمعان. تقتربُ من صفية مسافةِ شبرٍ. تضعُ يدها على فخذها الرّيّانِ، تنزلقُ راحتها على الثوبِ الأحمرِ حيث ينكشف جزءٌ منه مغادرًا العباءةَ،

لينعكسَ ضوءُ النهارِ على احمرارِ وجهِها. تتلعثمُ صفية بالقول، وهي تعلمُ أنَّ مثل هذه الحركات الكهربائية تعني عملية فحصٍ وإرسال إشارة التودّد وزيادة رباط العلاقات، والتفكيرِ بأمرِ الفرحِ القادم. هي حركاتٌ تقومُ بها الأمُّ إذا فكَّرتْ بخطبة فتاةٍ لابنِها.

تقومُ صفيةُ بمحاولة إظهارِ الجمال والأخلاق، لا تتكلَّم حتى تصمت أمُّ ساجد. تبدو قليلًا في حالة حرجٍ على شيءٍ ما في داخلها. تظهر عينها اليسرى، وهي تسترقُ النظرَ إلى البابِ الخشبيّ المغلق. تململت يمينًا وشمالًا حتى لامست ركبتها ركبة أمِّ ساجدٍ، دلَّقت السؤال وهي تغضُّ الطرف كأنَّها تحدث الأرض: «خالة، العفو، سامر خو ما بي شي؟». لم تجد أمُّ ساجدٍ غضاضةً من القول بشيءٍ من الصدق وليس الصدق كلَّه. تعلمُ أنَّ الصدقِ كلّه فيه جراحٌ كبيرة، لذا قالت لها وهي تعيدُ وضع راحتها على فخذها: «خالة، لا هو زعلان على أخوه ماهر لأن سافر وتركنا لوحّدنا، ضايج لا تعيين ولا عمل». ثم أرادت أن تخفّفَ وطأة القولِ الذي لا يجب أن يكون كذلك لشباب اليوم، قالت: «تعلمين هو خريج فلسفة لا يعرف يعمل أي شيء، لم نتركه يتعلّم من الأعمالِ الأخرى إلّا القراءةَ والنجاح». ترفع صفية رأسها وتنظرُ إلى الباب المنغلق لحظةً ثم تعودُ إلى وجه أمّ ساجدٍ، وترفعُ صوتها قليلًا، بعد أن تأخذ نفسًا مسموع الشهيق: «والله يا خالة الدنيا صعبة، لكن كل شي له حل وسهل، المهم أن تكون الصحة والعافية تمامْ والقلوب صافيةً، وكل شي بعدين يُحل بالصبر».

«سمعتُ صوتًا يشبه تردّدات شلالاتٍ هادئة بعد منتصف الليل. كنتُ مسجّىً، وعيناي إلى السقف. بالكاد كنتُ منتبهًا إلى نفسي أنّها تتأمّل، وشعرتُ بإغفاءةٍ مثلى لم تأتِني قبل هذه الساعة؛ إغفاءةٌ تشبه مَن يذوب في مرحلة الشوق إلى الأشياء ويشعر بالراحة. سكونٌ تامٌّ حولي؛ السقف والجدران والنافذة وباب الغرفة ومسامير الملابس وفراش الأرضية والستارة والجدران المتآكلة بالغبار. لا

شيء يتحرّك أو يَدنو، أو يظهر أو يحضر. حتى صورة ساجد أو ماهر، أو حتى حامد، الذي كانت آخر رسالة وصلتني منه تحثّني على الاهتمام بنفسي. ربما أخبرته أمي بأمرٍ لا أعرفه، لذا كتب الرسالة التي لم أفهم ما خلف سطورها. كانت جُمَلًا متقطّعة لكنها تحمل مغزاها الذي يعرفه هو، ويريدني معرفته. قال في كلمات رسالته، « الحبّ وحده يعالج أوجاعنا». كلمةٌ جميلة، بَتَرها حين عَرّج إلى موضوع الحزن وذَكَر قول الرسول الأعظم: (إنّ الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضرّ الإرادة، ولا شيء أحبّ إلى الشيطان من حزن المؤمن). ثم عاد ليُذكّرني بقولٍ لسقراط: (الحب إذن لا يكون حُبًّا للّاشيء أو لشيء غير متعيّن، كما أن الحرمان هو الدافع إلى الحب). تعجّبت من رسالة حامد وهو يحاول تنبيهي إلى أشياءٍ مهمّة، وربما هي سبب النقصان الذي نعاني منه. ربما يريد إخباري أنّ الحب هو المقابل لعمليات القتل»..

كنتُ في تلك اللحظة الساهِمة الغارقة في اللّاتأمّل، شعرتُ بأشياءٍ تُنغزني وتُبعِد ما كنتُ أُصارعه طوال الفترة الماضية. لكني تقَبلت أن النهاية قادمة، وأن الضوء والبياض والنور سينسكب أمامي وسيَسحبني إلى حيث أريد ويريدني. سأكون في وضعٍ آخر على الأقل فيه راحة نفسية. لكن الوقت طال منذ الأذان إلى الآن، حيث لا أعرف الزمن، والجسد المُسجّى يغطس في الفراش. في تلك اللحظة، دخل النغم من ثقب الباب، تحرّكت كلّ الأشياء الجامدة في الغرفة؛ حتى رموش عيني، وأرنبة أنفي وملابسي، وحافات الستارة. مع النغم، تسرّب بعض الضوء، بصيصٌ لا يشبه بصيص الأنفاق ولا نور الأضواء، ولا نفس الاختناق، ضوءٌ شممتُ منه رائحة الكحل وعطر الزعفران والمسك، وتحرّكت في داخلي موسيقى من نوعٍ آخر؛ موسيقى لم يتداخل معها النغم الجنائزي ولا الاستعراضي، بل موسيقى هادئة تُمهّد للارتفاع من مهبط الوجع إلى مرتفع الوضوح».

تحرّكت قليلًا مغادرًا الفراش، نافضًا لزوجة حالة المُسجّى، يسحبني نداء كلماتٍ خرجت من فمٍ بدأتُ أتوق له وأعرف أنه صادرٌ من حبال حنجرتها. انحنيتُ لأضع عيني اليمنى في ثقب الباب، غافلتني آخر حروفها لتدخل أذني القريبة من خشب الباب: «خالة سامر خوش ولد، تحلف بي زِلِم المنطقة كلْها». يا إلهي! هذه صفيّة تقدّم لأمي غداءً من الحب والاطمئنان، ها هي تقول لها إن ابنها سامر، الذي هو أنا، تحلف برأسه رجال الزقاق. يا إله السماوات والبياض والنور. كانت أمي تصغي، تلمّ الحروف في حضنها وتضمّها تحت طيّات ثوبها الأسود، فتتحول الكلمات إلى فراشاتٍ ونحل. سمعت منها كلمات، لم أسمعها من قبل، لا في الكتب ولا في الجامعة ولا في المحاضرات ولا في المنابر: فقط قالتها صفية: «خالة، الحياة بلا حب لا معنى لها. ما ينقصنا هو الحب، وغياب الحب يزيد من القتل والكراهية، والله هو الحب. الحب ليس ما نستورده، بل هو أن نعيش بلا أسئلةٍ لا أجوبة لها».»

صرتُ مجذوبًا للكلمات، أرسلتُ عيني إلى مكانها، إلى حديقتها الحمراء التي تُغلف كل كيانها، إلى عينيها العسليتين كي تأخذ قطرة من ضوء وتعود. كيف كنتُ، ومن الذي غيّرني؟ هي الأسئلة الجديدة التي اعتلت الأسئلة الأخرى، كأني كنتُ على غفلةٍ من الصوت الداخلي النائم في صدري. في سجل ذاكرتي، حيث لا خروج من المعاطف، ولا تحريك لمواقعها أمام كتل الكلمات التي تبعثرت في العقول وجعلت الناس بلا راحة وكأنها في قيامة مستمرة».

أرحتُ عيني اليمنى من النظر.أدخلتُ اليسرى، انزلقت الخطوط المعوجّة، والسبل الغائبة، والأجوبة المختفية، صارت دائرةً بحجم ضوء قمرٍ أو حتى قرص شمس. كنتُ أنظر إلى أمي، أجدها فرحةً مثل كمنٍ جاءوا لخطبة ابنتها. تبدّلَ اصفرار وجهها وشحوبه وتهدّل جلد رقبتها إلى امرأةٍ جاءت من (حفّافة) المنطقة التي تحوّلت إلى صالون تجميل العرائس.، دخلت الحمّام لتزيل ما علق من سنين

الحرمان. أسمعها تقول لصفية، معتذرةً عن كل تلك الأيام والأسابيع التي حملت فيها بمشاكل برحم المصائب.

قالت لها: «لو كنتُ أعلم أن في صدرك هذه الكلمات لجعلتكِ تقولينها قبل أن يشتد عود الغياب على سامر، وتدمّره الأسئلة». ها هي أمي تكشف المستور عني، وتعطيني مساحةً من التفكير. وجمل صفية وكأنها تنفخ من روحها لتصير الأجوبة طيورًا تحلّق في الباحة. تصعد الى الأعلى، تغادر سطح البيت، تحوم في الزقاق، وتعود لتدخل البيت من النافذة.

كنتُ أسمع أمي، شممتُ الكلمات الخارجة من فمها فيها عطر فاكهة، تفوح حين تتكلم. أين كانت هذه الكلمات يا أمي أمام قسوة الحياة عليك؟.

تحرّكت صفية، تنظر إلى ثقب الباب، فرحُها يخرج من صدرها ومن تحت شعرها، تطير الخصلات على شكل طيور الحب. تصفّق في الباحة، يتحوّل صوتها إلى زغاريد، تجعل النساء في الزقاق تسأل: ماذا حصل، لمن هذه الطيور وهذه الزغاريد؟ يظهر على وجهها أنها كَسَبَت وُدَّ أم ساجد، مثلما يظهر على وجه صفية علامات المودّة والقبول. تقترب منها وتلتصق، ويختنق الفراغ بين الاثنتين.

تقول أم ساجد: «الحياة صارت صعبة، محاطون بالحرب والسلاح والجرائم والمخدرات التي لم يشهدها العراق طوال تاريخه». تتنهّد صفية وتميل جسدها لتكون وكأنها في مواجهة أم ساجد في جلستها على الأريكة: «الشباب اليوم في ضياع. وصارت الحياة ليست صعبةً فقط، بل أنها في حالة انهيار، لأن الحب انفقد، الأخ لا يعرف أخاه، والبنات كلّ واحدة تريد ما في رأسها يتحقق، والممنوع والعادات والتقاليد».

يظهر على وجه أم ساجد انشراح كبير. في داخلها هوسٌ من تعابير تخرج على شكل غيماتٍ وتصعد لتحطّ فوق رأس صفية. بحركةٍ مفاجئةٍ، تسحب أم

ساجد رأس صفية وتضعه على كتفها، تميل رأسها عليها. تشمّ عطرها، فواحٌ مثل عطر حدائق مزروعةً بالياسمين. وجهها يظهر كأنها عروس. تتحرّك رغبة أم ساجد، وتكون في وسط الباحة، ترقص وتغنّي وتهزّ كتفيها، تتناثر من أسفل ثوبها الأسود حَبّات من بذور التين والزيتون.

تثبت صفية في مكانها، تريد أن تبقى نائمةً على الكتف إلى زمنٍ أكبر. تدعوها رغبة أم ساجد، فيخرج حلمها من قفص صدرها ليرقص في الباحة، يرتدي ثوبًا أبيض كأنه ملاكٌ ينزل من سماء الباحة. يقترب المشهد، تظهر كتابة بلونٍ أخضر تزقزق عليها عصافير ملونة، تمسك الجملة بالمناقير: (أنا أحبك وانتظرك).

سقطت الجملة مثل نهارٍ مشمسٍ في يومٍ شتائيٍّ قارس، مبتسمًا للدفء، غمرني بالكثير من الارتجاف الذي لم أعشه من قبل، حتى أيام الجامعة. لا وصف له سوى أن ما أحدثته الجملة من ذبذبات عالية التردّد، جعلتني أخلع بصري من كلّ وقار. أحاول أن أجعل عيني تذهب بعيدًا إلى تفاصيل وجهها لمعرفة ما كُتِب على الملامح. كنت أرى الملامح وقد تغيّرت تمامًا، صارت أمي وصفيّة كأنّهما على وفاقٍ تام. كان هناك رقص داخلي، مثل شوارعَ فرحةٍ تسحب أسفلتها لتلحق بالزقاق. كنت أحلم بكلّ شيء، أحلم بطريقةٍ أردتها أن تكون على شكل نهرٍ صغيرٍ يجري بلا سدود. رأيت في فضاء الباحة حتى حمام الحضرة يرقص بابتهاج، وهو يتقلّب كأنثى وذكرٍ في الطيران. شعرت أن ساقيّ ترتعشان، وظهري ليس فيه عمودٌ فقريّ. سمعتها تقول لأمي من جديد: «خالة، عَفْية، على مهلك معه. الجميع يمر بهذه المرحلة، لأنه إنسان حساس وخلوق. هل تعلمين أنه لم ينظر إلى أي فتاة في الجامعة؟»

أقطع الاستماع وأركض نحوي. يدي التي تمتد إلى أُكْرَة الباب لتفتحه تمنعها الأخرى وتعيدها إلى ركبتي. أفكاري التي تريد أن أهرع إلى الباحة وأمثّل دور من استيقظ لتوّه من النوم، لكن الأفكار الأخرى تمنعني من نسيان أنني لم أزل

مُسَجًّى. وأنَّ الأمور لم تزل مرتبطةً برباط الخوف من تواصل القتل. أحاول طرد وساوس الحروب التي تشتعل وتتكدّس في رأسي، لأجدني وقد تكوَّرت من جديدٍ خلف الباب.

التفتُّ إلى يدي، أراها وقد حملت شهادة تزكية. وأنا أركض، الأرض تُطوى تحتي، والأسفلت أَسحبه بيديّ فأتقدَّم إلى مسافاتٍ بعيدة مثل طائرٍ فرحٍ بالكَلَأ في أرضٍ كانت بورًا. أرفع بصري، أرى المدينة مُسبِلَة العيون، والكراسي تتلاطم مع المنابر، والفضائيات مع أجهزة الهاتف النقّال. موسيقى تُحيطني، تخرج من ينابيعَ لم يكن لها فتحات، فيتساقط منها آلاف الحركات والوجوه والألسن التي امتدت لتكون مثل شريطٍ ناقلٍ بين مكانين.

أخذني الفرح إلى أن أَغفو؛ إغفاءةَ من يبحث عن شيءٍ خارج الواقع الذي جعله موهومًا بالكثير. كان ما سمعته من هذا الفرح يشبه صفعةً مثل تلك التي تأتي لمَن غفل عن أمر. في تلك الإغفاءة رأيتُ ما لم يَره النائم. خرجت لي شهرزاد، بملابس لامعةٍ وهي تضع التفاحة في فم شهريار. ولَكِن لم أجد الشهر الذي أمضيته في السؤال. تركت شهرزاد طاغيها لتهمس لي عن رؤياها، صارت ليس عرّافةً بلا أحجار. تقول لي: «إيّاك والعبث بما يمدّك. ثمة ما يُحاك في الدهاليز ضدّك. خذْ ما تشاء من العشق، ولا تقف عند حدّك، وارتدِ من المحبة ما لا ينوء به حِمْلُك، واشرب نخب الحياة وما يُميِّز عقلك، ولا تكن في الطريق سؤالًا لا جواب له من بعدك. كن ما تريد ولا تكن ما يُراد من فهْمك».

يتسرّب لي نغم الحياة، يوقظني من تلك الإغفاءة، فأجد شهرزاد من ثقب الباب، تقول لأمي: «كلُّنا تائهون يا خالة في بلادنا، ولكننا سنجد مسقط أقدامنا، ونبرِي من جديد أقلامنا، ونكتب على الصحائف أحلامنا، ونرتّب من فوضانا ما نريد لمأوانا». يا إلهي، هل أسمعها أم لم أزل في الإغفاءة؟ فتحت عينيّ على وسعهما، فحضر ساجد بخوفه من جهنّم، وماهر بلهوه وتمرّده، وحامد

بلامبالاته، وأبي وهو يُلوّح لي أن أدنو برأسي منه كي يُمسّد عليه. نفخت بين يديّ، فتطايرت الذرّات والهوام، واختفت الأصوات، فيما راحت دقّات قلبي تعلو، فتغطّي بصوتها ما يُعلن عن البهاء، تُموْسق معناها بشكلٍ أهدأ ممّا يحتاجه متأمّلٌ في انتظار الأجوبة.

يسحبني من جديد صوت صفية، أهرع إلى ثقب الباب. ثمة ما يسحرني من فم شهرزاد. تسحرني كأني أتحوّل من لهبٍ إلى نسيمٍ يمرّ على كلّ ما لديّ من روحٍ وأفكار. تركت أذنيَّ تُصغيان إلى الكلمات وهي تتراقص: «الحياة ليست سؤالًا. هكذا خلقنا الله ووجدنا أنفسنا نقاوم الحياة نفسها، فلا بيت بلا قتيل، منذ أن كان هناك قابيل وهابيل». أرى أمي تراقب شفتيّ صفية، وقد تحوّل وجهها إلى لوحةٍ مبتسمةٍ من تلك التي تشبه الموناليزا. كان وجهها نَضِرًا، يشبه الوجه الذي كان يوم تخرّجتُ من الكلية وهي تنثر الحلوى في الزقاق وتقول: «آخر العنقود تخرّج». وتذكّرت أن صفية كانت بالقرب منها؛ لم ننتبه نحن الاثنين إلى وجودها، كما لا ننتبه إلى ما حولنا من الجمال دومًا. شاهدت شعر أمي وهو ينسدل على كتفيها، وأنفها المدقوق الذي يتنفس عطر صفية. تكلّمت أمي كأنها تسأل روحها، رفعت رأسها إلى فضاء الباحة: «أين كنتِ يا صفية الروح؟ كم أنا بحاجةٍ إليك!» كانت في حالة انشدادٍ كبير، تمنّيت لو رأيت عينيها، أتخيّلهما مغرورقتين، تلمع في داخل كلّ عينٍ عشرُ دمعات. صفية تخجل من لحظتها، طائرٌ لا يريد الهبوط بلا معنى، إلّا في المكان الذي يريد؛ لذا تساءلت: لماذا لم أعرف مكانتي وحضوري بين الناس؟ لماذا تتناوشني الأسئلة ونُطيل الطريق، وهو ليس بطويلٍ وإنما نحن من نجعله كذلك؟ لذا كانت صفية وفمها الذي يطلق الجمل كأنها جمعت أقوال الفلاسفة من أناكسيماندر أوّل الفلاسفة الإغريق وطاليس حتى آخرهم من أساتذة الجامعة، لترمي بحمل الكلام على مسامعٍ من قلق. تخيّلتها الضلع الذي تكدّس بالحروف والذي لا تنطقه إلا نساءٍ من عسجد.

التفتت أمي إلى الباب، رأيت دائرة وجهها كلّه، وقد تساقط الحزن أسفل الأريكة. كانت نظراتها تحمل عتابًا، مثلما تحمل أمومةً؛ أن أمسك بالجواب الذي أمامي، أوزّعه على المرامي. عادت لتنظر إلى صفية وتَسمك بيد الاطمئنان. سمعت صفية تقول: «خالة، أفكار سامر أكبر من الواقع، لذا هو في حالة صراع، محاطٌ بالأسئلة. منذ أن كان في الجامعة، كنت أسمع من الطلبة أنه يستفسر عن كل شيء ويشكّك في كلّ شيء».

أمي تواصل الاصغاء، تهلل وجهها لتسوّره بالمحبّة، وتجعل من إصغائها سبيلًا لتواصل صفية الكلام: «مرة في الجامعة، وبعد أن انفجرت سيارة مفخخة في إحدى الساحات، سمعته يقول لأستاذه، ما نفع الفلسفة أمام هذه الأحداث والتفجيرات التي تقتل الإنسان، والجميع يذكر الله ويكبر له؟ القاتل والمقتول، فأي فريق سيدخل الجنة؟»

كان المشهد الجديد الذي حضر غريبًا، بقعٌ لونيةٌ غير متناسقةٍ ولا متجانسةٍ، بقعٌ في فمها أعشاشٌ وقصبٌ ودودٌ. وأخرى وردٌ وعشبٌ أخضرٌ وريحٌ ونهرٌ رقراق. فجأةً، تحوّلت الباحة إلى مشهدٍ لا يمكن لعينين الإحاطة به. تظهر عينا صفية وهما ترمقان الباب بجديةٍ أكبر وشجاعةٍ أقوى، ترتفع الكلمات التي تجمعّت على بلاطات الباحة، تزيل صورًا من صراعات نبتت مثل أشواك، كلّما أرادت الشمس أن تضيء المكان، تحوّلت إلى سياجٍ من ظلام.

تحدّثت صفية إلى أم ساجد: «الحب هو السبيل الوحيد لكي نشعر بالاطمئنان على حيتانا ووعينا». أم ساجد تسارع إلى السؤال: «أين المشكلة إذن؟» تخرج الإجابة على شكل عصافير ملونة: «المشكلة أننا أسلمنا العقل لكي يعبّئ الآخرون أفكارهم وصراعاتهم».

تمدّ أم ساجد ذراعيها إلى جسد صفية، تتحوّل إلى جناحين من ريشٍ ناعم،

وتحضنها، تخبّئ في عنقها حزن الحياة. حينها انفتحت كلّ الأبواب. أبواب الغرف والمطبخ والسطح وباب الدار، إلّا غرفةً واحدةً لها نافذةٌ على الزقاق. اشتعلت الأضواء وتحركت ذؤابات النور، دخلت نسائم من هواء إلى الباحة.

أردت أن أفتح الباب، أعيد محاولة إمساك الإكرة لأجعل من باب الغرفة آخر إشهارٍ للأسئلة، لعلّي لا أسمع شيئًا سوى الحب. هربت إلى داخلي، أفتش عن سُبلٍ أخرى وأفكارٍ جديدة، عن حياةٍ بلا قتل، لكن صوتًا بدأ يلاحقني، صوتٌ لا يريد أن يستوقفني، صوت يسحب معه الأسئلة من تحت الوسادة. تظاهرات تخترق الشوارع، مندّدةً بالقصف الوحشي على لبنان. هتافاتٌ صاعدةٌ إلى عنان السماء، تخترق الأماكن، تتسرّب إلى الزقاق وتدخل إلى النافذة. أرى الستارة تتحرّك، غاضبةً كأن ريحًا عاصفةً هبّت عليها، حاملةً ألسنةً من نار. الشارع يغلي، هتافاتٌ قويةٌ، يصاحبها صوت طبول، كأن الحرب على الأبواب.

أغمضت عيني، تمدّدت على الأرض، فيما يدخل أذني صوت انفجاراتٍ تهدم عماراتٍ سكنية، وصورٌ لأناسٍ يهجرون. فتذكّرت الحرب. هبط عليّ وجهَا أخويَّ ساجد وماهر. أغمضت عني، أوقفت تدفّق الصور. ولا شيء في السقف أراه.

خارج المشهد

تظهر أسماء الشخوص، تنزل من الأعلى إلى الأسفل. ثمة طريقٌ طويل، طويلٌ جدًّا. تبدو فيه عماراتٌ مهدمةٌ وأنقاضٌ حروبٍ مشتعلةٍ في العالم. يظهر في الصورة رجلٌ متكدسٌ تحت الأنقاض، وثمة من يريد إنقاذه. يظهر مشهدٌ، كطفلةٍ في عمر التاسعة من العمر، تحمل طفلةً جريحةً بعمر الرابعة من العمر، تهرب من القصف. تظهر وجوهُ حكامٍ يندّدون بالقتل، ويطالبون بوقف إطلاق النار. تقترب الصورة، ثمة حقائب كثيرةٌ مليئةٌ بالمال، وأوراقٌ مليئةٌ بالكراهية.

في آخر السيناريو، تظهر كلمةٌ صغيرة، ثم تكبر حتى تملأ الشاشة:

(ليست النهاية)

مركز الرافدين للحوار (R.C.D)

مركز فكريٌّ مستقل (THINK TANK)، يعمل على تشجيع الحوارات في الشؤون التعليمية والثقافية والسياسية والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السلم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأدائها، ويمثل المركز فضاءً حُرًّا للحوار يتسم بالموضوعية والحياد، ويوظِّف مخرجاته لمساعدة صُنَّاع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

يُعَدُّ مركزُ الرافدين للحوار من مراكز التفكير النوعية في العراق التي تجمعُ على منبرها النخبَ السياسيةَ والاقتصادية والأكاديمية الناشطة في توجيه الرؤى والمؤثرة في صناعة القرار والرأي العام. تم تأسيس المركز في 2 شباط (فبراير) 2014 في مدينة النجف الأشرف على شكل مجموعة افتراضية في العالم الالكتروني تضم عدداً من الأكاديميين والمثقفين والسياسيين، وقد تطورت الفكرة لاحقا ليتم إكسابها الصفة القانونية عن طريق تسجيل المركز في دائرة المنظمات غير الحكومية NGO التابعة للأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي.

الرؤية:

إن المركز هو محطة ثقافية تلتقي عندها آراء النخب وصناع القرار بجميع أطيافها السياسية والدينية والقومية، وبِمَا يوفره من بيئة حواريّة إيجابية تُحْسِّنُ إيجاد الفضاءات المشتركة بين تلك الآراء وتسهم في بناء بلدٍ مزدهر.

الرسالة:

تتمثل رسالة المركز بتشجيع وتنمية الحوارات الموضوعية والجادة بين النخب العراقية وصناع القرار بما يعزز التجربة الديمقراطية ويحقق السلم المجتمعي والتنمية المستدامة في العراق من خلال تحقيق **الأهداف** الآتية:

1. تعزيز السلم المجتمعي عبر الحوار البنّاء بين النخب العراقية.
2. تعزيز المسؤولية الوطنية ودعم التجربة الديمقراطية للدولة وبناء مؤسساتها.
3. مساعدة مؤسسات الدولة في حل المشكلات عبر تقديم الاقتراحات والاستشارات في مجالات مختلفة وعبر إصدارته المتنوعة وخبراءه المتنورين.
4. توسيع المشتركات بين الكيانات السياسية والاجتماعية عبر حوار محايد يعزز العلاقة بين المواطن والدولة.

الوسائل:

1. تنظيم الندوات والجلسات النقاشية في المجالات التي يُعنى بها المركز ومتابعة مخرجاتها في ظل تغطية إعلامية تعرِّف بها داخل العراق وخارجه.
2. إصدار الكتب والتقارير الاستراتيجية وإجراء الأبحاث والدراسات ونشرها ورقياً وإلكترونياً.
3. عقد شراكات مع مؤسسات محلية ودولية بحثية وأكاديمية ذات أهداف مشتركة.
4. التعاون مع جامعات عالية المستوى لإقامة الفعاليات العلمية والملتقيات الفكرية.
5. إنشاء دوائر بحوث ولجان متخصصة لتعزيز البحث العلمي.
6. عقد حوارات بين المختلفين لتعزيز الاندماج الاجتماعي.

هيكلية المركز

يتكون مركز الرافدين للحوار RCD من هيكلية إدارية متشكّلة وفقاً لنظامه الداخلي تتضمن: مجلس الإدارة الذي يتكون من السيد المؤسِّس **زيد الطالقاني** بوصفه رئيساً للمجلس **و**ثمانية أعضاء، ومدير تنفيذي ونائبه، وهيأة مستشارين، وعدد من الأقسام العلمية والإدارية هي: قسم البحث والتطوير، وقسم الشؤون الإدارية والقانونية والمالية، وقسم المراسم والعلاقات العامة، إلى جانب مستشار الشؤون الثقافية والتعاون الدولي.

مثل أي مؤسسة معطاة ومثمرة، تعرّض مركز الرافدين للحوار الى عدد غير قليل من التحديات والمضايقات والاستهدافات التي حاولت النيل منه، إلا أنه أبى إلا أن تستمر مسيرته المؤزرة باستدامة العطاء وقوة الإرادة.

يُعنى المركز بعدة قضايا محلياً وإقليمياً وعالمياً يُعالجها عبر إصداراته المتنوعة من خلال المجالات الآتية:

1. العلوم السياسية والعلاقات الدولية.
2. الاقتصاد والتنمية.
3. الاجتماع.
4. الشؤون الفكرية ومعالجة الظواهر الاجتماعية.
5. الشؤون الاستراتيجية والعسكرية.
6. التكنولوجيا والأمن السيبراني.
7. القضايا الدستورية والاجتماعية والقانونية.
8. الجغرافيا.
9. الدولة والمجتمع.

10. البيئة والتغيّر المناخي.

11. الذكاء الاصطناعي والتحولات الرقمية.

صلات المركز البحثية والعلمية محلياً وإقليمياً ودولياً

بوصفه مركزاً بحثياً يعمل على تعزيز الحوار مع الآخر، يحرص مركز الرافدين للحوار على مد جسور التعاون المعرفي والبحثي عبر عقد صلات مع مراكز ومؤسسات بحثية عربية وأجنبية حول العالم وذلك من خلال اتفاقيات تعاون مبرمة مع مؤسسات ومراكز على درجة من الأهمية على الصعيد العراقي والعربي والإقليمي والعالمي، منها «**معهد الخدمة الخارجية**» التابع لوزارة الخارجية العراقية، و«**مركز الدراسات المصرفية**» التابع للبنك المركزي العراقي، و«**جامعة صلاح الدين في أربيل**»، و«**مجموعة الأزمات الدولية (ICG)**»(بلجيكا)، و«**المعهد العالمي للمياه والبيئة والصحة**»(GIWEH) (سويسرا)، و«**المعهد الفرنسي للأبحاث وتحليل السياسة الدولية**»(CFRP)، «**معهد الصين للعلاقات الدولية المعاصرة**»(CICIR)، و«**مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية**»، و«**مركز الشؤون الدولية الروسي**»(RIAC)، «**معهد السياسة والحكم**» (GPTT) (إيران)، و«**المعهد العربي للديمقراطية**» (تونس)، و«**مركز أفغانستان والشرق الأوسط وإفريقيا** (CAMEA) **في معهد الدراسات الاستراتيجية**(ISSI)، إسلام أباد (باكستان)، وغيرها من المؤسسات المهمة.

استطاع مركز الرافدين للحوار RCD أن يكون رائداً في عقد المتلقيات وذلك عبر ملتقاه السنوي الأكبر (مُلتقى الرافدين) **و**هو ملتقى دولي يعقده المركز سنوياً في العاصمة بغداد، يناقش أبرز المواضيع والمستجدات على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي، ويوفر فضاءً حُراً لمناقشة الآراء

في المجالات التي يُعقد على أساسها بين النخب على الصعيد المحلي والدولي وعلى درجة عالية من الأهمية، ويُسخّر مخرجاته لصالح بناء الدولة ومؤسساتها وتعزيز ثقافة الحوار والتعايش على المستويات كافة.

يتمتع المركز بدعم وتمويل من المؤسسات الراعية له عبر اتفاقات علنية ووفقاً للضوابط والقوانين العراقية النافذة، ويحرص على الإعلان عن مصادر هذا الدعم والتمويل بشفافية ووضوح. ويتمثّل هذا الدعم لنشاطات المركز بإسهامات الهيأة الإدارية (مجلس الإدارة) والتبرعات والمنح والهبات والهدايا غير المشروطة الداخلية والخارجية، فضلاً عن المنح المالية من المنظمات الدولية، ووكالات الأمم المتحدة، والجهات المانحة العراقية والدولية، والهيئات الإنسانية والتنموية والشركات الخاصة مثل (البنك المركزي العراقي (CBI)، وزارة النفط العراقية، هيأة الاعلام والاتصالات، بعثة الاتحاد الأوروبي، شركة بريتش بتروليوم (BP)، المصرف العراقي للتجارة (TBI)، المجلس الاقتصادي العراقي (IEC)، شركة وادي الخير للاستثمارات الزراعية، مصرف الثقة الدولي،، شركة النافذة لخدمات الانترنت وتكنولوجيا المعلومات، مجلس الأعمال العراقي، شركة وجه القمر للاستثمارات والمقاولات، شركة مدينة المعالي للاستثمارات والمقاولات، منصة تعليم).

كما يتمتع المركز بدعم من مؤسسات عراقية رصينة مجازة قانوناً، أبرزها «الوطني من إيرثلنك» التي تعد الشركة الأولى والرائدة في العراق المتخصصة في مجال تقنية الألياف الضوئية (FTTH) وأكبر مجهز لخدمات الإنترنت في العراق، وشركة «آسياسيل» (AsiaCell) أول شركة اتصالات في العراق والمزود الرئيسي لخدمات الاتصالات النقالة والإنترنت عالية الجودة، وتملك قاعدة مشتركين وصلت إلى 19.7 مليون مشترك. و«مصرف

العالم الإسلامي» أحد أهم المصارف العراقية في مجال التنمية الاقتصادية وهو شركة مساهمة خاصة أسسها نخبة من رجال الأعمال المعروفين محلياً وإقليمياً.

أولاً: الكتب المؤلفة

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
1	الاقتصاد العراقي بعد عام 2003	زين العابدين محمد عبدالحسين صادق علي حسن	2018
2	أهوار العراق ثلاث دراسات في البيئة والحيوان والسياحة	عبد علي الخفاف حسين عليوي الزيادي خالد كاطع الفرطوسي	2019
3	محاضرات في الشأن العراقي	مجموعة خبراء	2019
4	بناء العراق الواقع والعلاقات الخارجية وحلم الديمقراطية	لقمان عبد الرحيم الفيلي	2020
5	الاقتصاد السياسي للتعليم في العراق	أ.د. كامل علاوي الفتلاوي أ.د. حسن لطيف الزبيدي	2020
6	بين جيلين.. مجموعة حوارات متسلسلة بين شاب عراقي وأخيه الأكبر	لقمان عبد الرحيم الفيلي	2021
7	البنك المركزي العراقي: الأدوار.. المهام.. وخيارات المستقبل	مجموعة مؤلفين	2021
8	العراق 2020: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2021
9	الوجيز في خلافة الدول: دراسة قانونية في ضوء أحكام الاتفاقيات الدولية	د. أبوطالب هاشم أحمد الطالقاني	2021

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
10	فلسفة أطر العلاقة البينية للايتيقيا والقانون: دراسة قانونية نقدية في الواقع وعالم ما بعد العلمانية	أ.د. إياد مطشر صيهود	2021
11	العقد الاجتماعي عند الشيخ النائيني في العراق	أ. المتمرس د. عبد الأمير زاهد	2022
12	رؤى جديدة لإدارة صناعة إستخراج النفط في العراق	أ د. جواد كاظم لفته الكعبي	2022
13	مشكلات عراقية معاصرة	أ.د. وليد عبد جبر	2022
14	العراق 2021 التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2022
15	الصين وشركات التكنولوجيا أذرع التجسس ومصادر التفوق والهيمنة الرقمية	أ.د. حسن لطيف الزبيدي د. كرار أنور البديري د. أحمد أمين	2022
16	الفَسادُ الماليُّ والإداريُّ في العراق رؤيةٌ جغرافيَّةٌ-سياسيَّةٌ	أ. د. حسين عليوي ناصر الزيادي	2023
17	انتهاكات داعش للقانون الدَّوليِّ الإنسانيِّ	د. فاضل عبد الزَّهرة الغراويّ	2023
18	مصادر الطاقة ومستقبل البشرية	د. حسين الشهرستاني	2023
19	دراسات في الحركات الاسلامية المعاصرة في العراق	مجموعة مؤلفين	2023
20	الوجود الإسلامي في اوربا ومستقبله: دراسة في ضوء المصادر الاستشراقية المعاصرة	هبة حسين الرماحي	2023
21	النجف الاشرف 2050 رؤية مستقبلية	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2023

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
22	تقويم عمل الحكومة العراقية خلال عامٍ كامل 2022-2023	مجموعة مؤلفين	2023
23	العراق عقدان ملتهبان: تناسل الازمات وامتناع الحلول (5 مجلدات)	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2024
24	كركوك العراقيَّة وصراع الهويَّات الفرعيَّة	د. دهام محمد العزاوي	2024
25	الأهمية الاقتصادية لميناء الفاو الكبير وانعكاسه على واقع التنمية المستدامة في العراق	أ.د. حميدة شاكر الإيدامي أ. م. د. أمجد راضي الزاهدي	2024
26	العراق 2022: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض أ.د. أسعد كاظم شبيب	2024
27	المؤسسة العسكرية العراقية 2003-2020	د. عماد هادي علو الربيعي	2024
28	العراق 2023: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2025
29	الانتفاضة الشعبية في العراق 1999 بعد استشهاد السيد الصدر (قدس): المقدمات، المسارات، النتائج	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض أ.د. أحمد سامي المعموري	2025

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
30	جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق: حقائق جديدة على أرضٍ قديمة	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
31	السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في عهدي ترامب وبايدن 2017 – 2024	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
32	النجف قبل الإسلام: حفريات في ذاكرة المنطقة	عبد الأمير المؤمن	2025
33	العراق 2024: التقرير الإستراتيجي لمركز الرافدين للجوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
34	السياسات الخضراء: إعادة تعريف التقدم في عصر الذكاء الاصطناعي	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. عامر عبد زيد الوائلي	2025
35	دور إيران في محددات التوازن الاستراتيجي في الشرق الأوسط (البرنامج النووي انموذجاً)	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض	2025
36	الانتخابات البرلمانية في العراق 2025: ديناميات الوجود والتأثير واستشراف المسارات المستقبلية	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب م. د. خالد عدنان الرماحي	2026

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
37	الدولة العربية المعاصرة والمشكلة الطائفية	د. محمد محفوظ	2026
38	الحماية الاجتماعية ومكافحة الفقر في العراق: مقاربات مع نماذج عالمية	مجموعة باحثين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب م.م. عمّار كريم حميد	2026

ثانياً: الترجمات

ت	عنوان الترجمة	المؤلف	سنة النشر
1	حرب بلا نهاية: سياق حرب العراق	مايكل شوارتز	2019
2	مقدمة في الفلسفة السياسية	جيسون برينن	2019
3	ريع الموارد والنمو الاقتصادي	بيتر كازناتشيف	2019
4	العراق تاريخ سياسي من الاستقلال الى الاحتلال	عضيد داويشة	2019
5	المرجعية الدينية الموقف الوطني في العراق بعد 2003	كارولين مرجي الصايغ	2020
6	القاعدة والدولة الإسلامية وحركة الجهاد العالمية ما يحتاج الجميع الى معرفته	دانيال بايمن	2021
7	أوهام النصر صحوة الأنبار وصعود الدولة الإسلامية	كارتر مليكزيان	2021
8	شنّ حروب التمرد الدُّروسُ المُسْتَقَاةُ مِنْ حُروبِ التَّمرُّد بدْءًا مِنْ الفيت كونغ وُصُولًا إِلَى الدَّوْلَةِ الإسلاميَّةِ	سيث ج. جونز	2021
9	النظام الفيدرالي في العراق النشأة والأداء والأهمية	فرح شاكر	2021
10	الاتجاهات العالمية 2040	مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي	2021

ت	عنوان الترجمة	المؤلف	سنة النشر
11	الشيعة العرب.. المسلمون المنسيون	كراهام فولر رند الرحيم فرانك	2021
12	حكّام وعقائد وثروات لماذا أثرى الغرب دون الشرق؟	جارِد روبِن	2021
13	جنود ومواطنون التاريخ الشفوي لعملية «حرية العراق» من ساحة المعركة إلى البنتاغون	كارل ميرا	2021
14	الأمن في منطقة الخليج	فاطمة شايان	2021
15	بين الدولة واللادولة.. السياسة والمجتمع في كردستان العراق وفلسطين	مجموعة مؤلفين تحرير: گلستان گُرِيَ زابينه هوفمان فرهاد إبراهيم سَيدر	2022
16	الإسلام الشيعي والسياسة إيران والعراق ولبنان	جون أرمجاني	2023
17	فهم العنف الديني: اكتشاف الراديكالية والارهاب في الدين من خلال دراسة حالات نموذجية	مجموعة مؤلفين تحرير: جيمس دينگلي مارسيلو موليكا	2023
18	الاقتصاد السياسي لعلاقة الاتحاد الاوربي مع العراق وإيران- تقويم لعلاقة السلام عبر التجارة	أمير كامل	2023
19	نظرة جديدة في العلاقات التركية العراقية - معضلة التعاون الجزئي	محمد عاكف قومرال	2023
20	الحرب الخفية: كيف تمكنت الصين من السيطرة على غفلة من النخب الأمريكية	روبرت سبولدينغ سِث كوفمان	2023
21	الحرب والسلام السيبرانيان: الصراع الرقمي في الشرق الأوسط	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023

ت	عنوان الترجمة	المؤلف	سنة النشر
22	الركائز السبع: الأسباب الحقيقية لإضطراب الشرق الأوسط	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023
23	صعود روسيا: السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023
24	السفراء: الدبلوماسيون الأمريكيون على الخطوط الأمامية	بول ريكتر	2023
25	كيف أصبح العالم غنيًا؟»	مارك كوياما جاريد روبين	2024
26	بناء المؤسسات في البلدان الضعيفة: أولوية السياسات المحلية	أندرو رادين	2024
27	المعلومات والسلطة والديمقراطية: الحرية من بنات المعرفة	نيكو شْتير	2024
28	منظمة أوبك في القرن العشرين: من الصعود إلى الانحدار	تحرير: جوليانو غارافاني	2024
29	العراق في مواجهة العالم: صدّام، والولايات المتّحدة الأمريكية، ونظام ما بعد الحرب الباردة	سامْيَوَل هلفونت	2025
30	العراق: السلطة والأنظمة والهويات	أندرو جيه فليبرت	2025
31	الجهاد في الاسلام دراسة تاريخية فقهية في مسألة الجهاد الابتدائي	آية الله الشيخ نعمة الله صالحي النجف آبادي	2025
32	الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي	ديليب هيرو	2026

ثالثاً: سلسلة الرسائل والأطروحات الجامعية

ت	عنوان الرسالة / الأطروحة	الباحث/ة	سنة النشر
1	موقف إيران من الاجتياح العراقي للكويت 1990 – 1991 دراسة تأريخية	رماح سعد مرهون المعموري	2021
2	الأثر المترتب على مخالفة ضوابط تسبيب الحكم الجزائي في التشريع العراقي (دراسة مقارنة)	م. م. يوسف فاضل طه حرز الدين	2021
3	صناديق الثروة السيادية دراسة قانونية مقارنة	د. لنجة صالح حمه طاهر حمه أمين	2021
4	التنمية السياسية وأزماتها السياسية في العراق بعد عام 2003	د. فرزدق علي التميمي	2021
5	ديناميكيات القوى الصاعدة والمهيمنة في جنوب شرق آسيا دراسة تحليلية وفق نظرية توازن المصالح	م.م. عمّار كريم حميد	2021
6	الارهاب والنظام السياسي الدولي بعد أحداث 11 أيلول سبتمبر 2001 رؤية مستقبلية.	د. خالد محمد طاهر شبر	2022
7	الاستثمار الدولي واستثماراتICAPMباعتماد أنموذج الشركات الدولية	د. علي عبد الأمير فليفل أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي	2022
8	تمويل التنمية الاقتصادية في البلدان النامية «العراق أنموذجا»	أ.م.د. إبراهيم جاسم جبار الياسري	2022

ت	عنوان الرسالة / الأطروحة	الباحث/ة	سنة النشر
9	المكان وأثره التنظيمي في القوى الاجتماعية والاقتصادية لمحافظة النجف الأشرف	د. عصام صباح إبراهيم	2022
10	عجز الموازنة العامة والتغير النقدي في العراق للمدة 1980 - 2015	أ.م.د. حسين شناوة مجيد	2023
11	الحراك الاحتجاجي في العراق حلم الديمقراطية: من النكوص الى الانبعاث	د. سيف حيدر الحسيني	2023
12	المحيط الاقليمي ومحاربة الإرهاب في العراق	د. باسم محمد يونس	2025
13	نقد الحداثة في الفكر السياسي العربي المعاصر	أحمد عباس فاضل جاسم	2026
14	النظام الحزبي وصُنع السياسة العامة: دراسة مقارنة ألمانيا-العراق	سمية غالب زنجيل	2026

رابعاً: الإصدارات القادمة

ت	عنوان الإصدار	فئة الإصدار	سنة النشر
1	صلاحيات رئيس الجمهورية في الأنظمة السياسية البرلمانية المعاصرة: النظام السياسي العراقي وفق دستور 2005 أنموذجاً	كتب مؤلفة	2026
2	مجلس الاتحاد العراقي: اشتراطات قانونية وتحديات عملية	كتب مؤلفة	2026
3	برامج الحكومات العراقية (2003 - 2025)	كتب مؤلفة	2026
4	حدود العراق الدولية: من خرائط النزاع الى بوابة التعاون	كتب مؤلفة	2026
5	العراق 2025: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	كتب مؤلفة	2026
6	موسوعة السياسة العراقية	كتب مؤلفة	2026
7	آفاق السياسة الأمريكية تجاه العراق بعد عام 2025	كتب مؤلفة	2026
8	العلاقات الدولية في عالم اليوم من الهيمنة التقليدية إلى الذكاء الاصطناعي	كتب مؤلفة	2026

مركز الرافدين للحوار RCD

مركز الرافدين للحوار RCD

www.alrafidaincenter.com
009647826222246
alrafidaincent
alrafidaincenter.com
alrafidaincent
alrafidaincent
info@alrafidaincenter.com
مركز الرافدين للحوار RCD
النجف الاشـرف - حي الحـوراء - امتداد شارع الاسكـان
العاصمة بغداد - الجادرية - قرب تقاطع ساحة الحرية